إقــــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية

دراسة في ضوء المناهج النقدية

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification

Student's name:	**سعد عودة حسن عدوان**	اسم الطالب:
Signature:		التوقيع:
Date:	٢٠١٤/١٠/	التاريخ:

الجـــامعة الإســلامية – غزة –
عمـــادة الدراســـات العـليا
كلية الآداب-قسم اللغة العربية

الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية
دراسة في ضوء المناهج النقدية

Character in the novelist work of Ahmed Rafiq Awad
A Study in light of the Critical curriculum

رسالة ماجستير مقدمة من الطالب

سعد عودة حسن عدوان

إشراف الأستاذ الدكتور

نبيل خالد أبو علي

أستاذ الأدب والنقد في الجامعة الإسلامية
نائب رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

من قسم اللغة العربية – بكلية الآداب

في الجامعة الإسلامية بغزة

١٤٣٥هـ- ٢٠١٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية – غزة
The Islamic University - Gaza

مكتب نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا   هاتف داخلي 1150

الرقم ج س غ/35/ Ref

التاريخ 2014/10/18 Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **سعد عودة حسن عدوان** لنيل درجة الماجستير في **كلية الآداب/ قسم اللغة العربية**، وموضوعها:

الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية
دراسة في ضوء المناهج النقدية

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم السبت 24 ذو الحجة 1435هـ، الموافق 2014/10/18م الساعة الواحدة ظهراً بمبنى القدس، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د. نبيل خالد أبو علي	**مشرفاً ورئيساً**	....
أ.د. كمال أحمد غنيم	**مناقشاً داخلياً**	....
أ.د. عبد الجليل حسن صرصور	**مناقشاً خارجياً**	....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية الآداب/قسم اللغة العربية**.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق،،،

مساعد نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. فؤاد علي العاجز

P.O. Box 108, Rimal, Gaza, Palestine fax: +970 (8) 286 0800 فاكس Tel: +970 (8) 286 0700 ص.ب. 108 الرمال، غزة، فلسطين هاتف
public@iugaza.edu.ps www.iugaza.edu.ps

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى الذين أسرجوا خيل المنايا وهم يذودون عن الدين و الأرض والعِرض فقدموا أرواحهم على أكفهم رخيصة في سبيل الله . . .

﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

إليهما اعترافاً بفضلهما علي

إلى من جعلها الله سكناً لي وجعل بيننا مودة ورحمة

إلى من جعلهم الله قرة عين لي ولها

إلى أشقائي وشقيقاتي

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر وخالص التقدير لأستاذي الفاضل

الأستاذ الدكتور

نبيل خالد رباح أبو علي

أستاذ الأدب والنقد في الجامعة الإسلامية

ونائب رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني

على ما قدمه من توجيه وإرشاد ومتابعة طوال مدة إعدادي للبحث ؛

فقد كان مثال المشرف والموجه ولم يسأم من توجيهي وإرشادي ، ولم

يتوان عن متابعتي في كتابة هذا البحث

أشكره على سعة صدره ، وتحمل المشاق التي تسببت له فيها

خلال فترة كتابة البحث

جعل الله ذلك في ميزان حسناته، وجزاه عني خير الجزاء

عرفان

الحمد لله الذي أعانني على إنجاز هذا البحث المتواضع حمداً كثيراً لا ينقطع أوله ولا ينتهي آخره ، وأصلي على أفضل الخلق محمد – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين

أما بعد ؛ فلم يكن البحث ليرى النور، لولا أن أمده الله بالأستاذ الدكتور نبيل رباح أبو علي الذي شرفت بإشرافه على بحثي، فصبر علي وصابر معي لتخرج الفكرة في صورة بحث علمي؛ يمكن الاستفادة منه.

وأشكر المناقشين ؛ على ما قام به من جهد مشكور في قراءة الرسالة وإثرائها بالملاحظات الهامة والمفيدة عليها ليقوى بناؤها ويزداد نفعها بإذن الله ، وكما أتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور " يوسف رزقة " الذي أفدت كثيراً من إرشاداته القيمة .

كما أقدم الشكر لأخي العزيز رائد لافي ، وصديقي صفوت الكحلوت لما قدماه من مساهمة في الحصول على بعض الروايات والمراجع المهمة .

كما أقدم خالص شكري وامتناني لزوجتي العزيزة على ما قدمته لي من دعم ، ولما تحملته من عناء وجهد في سبيل إتمام هذا البحث .

والشكر موصول لكل من شارك أو ساهم ، ولو بشطر كلمة في إنجاز هذا العمل ؛ أقدم لهم جميعاً حباً ووفاءً .

جزاكم الله عني كلّ الخير وحسن الجزاء.

الملخص

الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية

دراسة في ضوء المناهج النقدية

سعد عودة حسن عدوان

الجامعة الإسلامية –غزة –٢٠١٤م

تناولت هذه الدراسة موضوع بناء الشخصية في روايات " أحمد رفيق عوض " هادفة إلى الكشف عن ماهية الشخصية في رواياته ، وطرق تقديم الشخصية عنده بشقيها المباشر وغير المباشر ، وأصناف الشخصيات عنده سواء أكانت رئيسية أم ثانوية أم نامية ، ودراسة الشخصيات البارزة عنده كشخصية الفلسطيني بأنماطها (المفاوض الفلسطيني ، والضابط الفاسد ، والمرأة البغي ، والعميل ، واللاجئ ، والمغترب العائد ، والعامل ، والمثقف المقاوم) ،والشخصيات التراثية بأنماطها (صلاح الدين الأيوبي ، وبهاء الدين قراقوش ، والخليفة المقتدر ، وأبي طاهر الجنابي – القرمطي–، والمرأة البغي والأم والراهبة) ، وشخصية اليهودي بأنماطها (الجندي ، وضابط المخابرات ، والمفاوض ، والمرأة العاهرة ، واليهودي المدني والمستوطن ، واليهودي المهاجر) ثم بيّنت سمات تلك الشخصيات ومدى تطابقها مع واقعها .

ومن خلال هذا العرض أمكن الخروج ببعض النتائج أهمها أنّ التقديم غير المباشر للشخصيات كان أسلوب عوض ، وأنّ هذا النمط جعل القارئ بحاجة إلى مشاركة عميقة كي يتسنى له تحديد الماهية الحقيقية للشخصية ، وفي حديثي عن الشخصيات الفلسطينية خلصت إلى أنّ جل أنماطها مصابة بحالة من التشظي والتفكك والانفصام لأنها تصور الواقع الفلسطيني الراهن الذي يعيش حالة من القمع والانهيار والتلاشي .

وفي دراستي للشخصيات التراثية تبين لي أن توظيف التراث عند عوض ليس اختياراً عشوائياً بل يتخذ مناحي مختلفة جمالية ، وفنية ، وفكرية ، وسياسية ، واجتماعية ، كما استخدمه كرمز لقضايا العصر ، ولم يقلد التراث القصصي تقليداً تاماً ؛ إذ لم تكن النصوص القصصية إعادة كتابة لتلك القصص ، وإنما انعكس أسلوب الكاتب ووجهة نظره الخاصة.

وفي حديثي عن الشخصيات اليهودية ، خلصت إلى أنّ الوجه العسكري كان طاغياً عليها؛ وقد قدم عوض شخصية اليهودي على أنها شخصية سلبية مستبدة متعالية على الفلسطيني ، وبينت الرواية شخصية المفاوض الإسرائيلي متعنتاً ومتعاليً على المفاوض الفلسطيني .

أما المرأة اليهودية فقد قدمها الكاتب من منظور جنسي فقط ،وقد جاءت المرأة اليهودية على صورة عاهرة .

وفي نهاية دراستي تبين لي أنّ عوض قد انزاح عن النمط التقليدي للروايات الكلاسيكية التي كانت تتضمن راوياً واحداً يسرد الأحداث ؛ فجعل عدة رواة تتناوب على سرد الأحداث ، كما أدخل عوض المتلقي إلى الرواية فانماز بإدخاله أسلوب حداثي .

لقد توصلت الدراسة إلى توصيات ، منها إمكانية دراسة تقنيات السرد في روايات عوض ، وإمكانية دراسة المرأة في نتاج عوض ، وتداخل الأجناس الأدبية ، وغيرها ، وهذا ما يؤشر إلى أنّ أعمال عوض عالم رحب يجعل الدارس أمام خيارات متعددة لدراسة أي جانب يريده .

Abstract

The Character in the Novel Works of Ahmed Rafeeq Awad

A Study of Critical Methods

Saad Ouda Hassan Udwan

Islamic University – Gaza - 2014

This study investigates the structure of character in the novels of Ahmed Rafeeq Awad. This study tends to unravel the essence of the characters in his novels and their direct and indirect presentation. It moves to study the types of characters: main character, secondary character and developing characters. It also examines the distinctive patterns in his novels like the Palestinian character (Salaheddine Al Ayyoubi, Baha al-Din Qaraqush, Caliph Al Muqtader, Al Qarmati…) and the character of the Jew with all its patterns (soldier, intelligence officer, negotiator, prostitute…). It also scrutinizes the distinctive features of the character and its relation with the narrative reality.

Through this presentation we can see some conclusions. The most important is that the indirect presentation of characters is Awad's main style. This pattern puts the reader in need for deep participation to let him define the real essence of the character. If we talk about the Palestinian characters, I concluded that most patterns are characterized by dissociation, disunity and fragmentation because they reflect the current Palestinian reality which is witnessing a state of repression, dichotomy, and disappearance.

Through examining the folkloric characters, it turned out that Awad's use of heritage and folklore was not a spontaneous choice; however it included aesthetic, artistic, intellectual, political and social aspects. He also used it as a symbol for the contemporary issues. He also did not fully imitate the old narrative works, as the narrative texts were not merely a re-writing of such stories, but it was noted that the author's style and views were integrated into these narratives,

In my analysis of the Jewish characters, I came to a conclusion that the military aspect of such characters was so dominant, Awad presented the character of the Jew as negative, oppressive and arrogant towards the Palestinian, it also portrayed the character of the Israeli negotiator as obstinate and arrogant towards the Palestinian negotiator.

The character of the Jewish woman was addressed by the author from a sexual perspective, her character was perceived as a prostitute.

At the end of our study, we can see that Awad has broken the traditional technique of classical novels, which contains one narrator. He used more than one narrator to

interchangeably narrate the events. He also introduced the recipient to the novel, so he earned a modern style.

The study came up with some recommendations including the possibility to study narrative styles in Awad's novels. It also shows the possibility to shed light on women in his works, overlapping among literary genres and other aspects.

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم ، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم ، وعلى صحابته الأبرار مصابيح الهدى ، وعلى آله الأطهار نجوم المعرفة وأولي الحكمة والنهى وبعد ،،،

يعد درس بنية الشخصية وبيان ماهيتها وأنماطها في أي عمل روائي من الموضوعات المهمة التي يرتكز إليها الباحث في درس الفن الروائي ؛ لأن الشخصية هي مرتكز الرواية وأساس معمارها الذي لا يمكن الاستغناء عنه ؛ فلا يمكن أن تقوم رواية دون وجود شخصية ؛ فالشخصية وما يصدر عنها من حركة وأحداث هي التي تكوّن الرواية وتوجدها ، وأحمد رفيق عوض بصفته روائياً فلسطينياً مبدعاً اتسمت كتاباته بنهج حداثي جديد ، كما أنه روائي يحمل على كاهله هماً قومياً عربياً عاماً ، ووطنياً فلسطينياً خاصاً .

أما الدراسات الجامعية التي تناولت روايات أحمد رفيق عوض فهي :-

١- أطروحة ماجستير تقدم بها الباحث (حسن ماجد قطوسة) إلى مجلس كلية الآداب في جامعة القدس عام ٢٠١٣ م بعنوان (توظيف التاريخ في روايات أحمد رفيق عوض) ، وقد اطلع الباحث عليها وأفاد منها وكانت دراسة طيبة .

٢- أطروحة ماجستير تقدم بها الباحث (زاهي ناصر) إلى مجلس كلية الآداب في جامعة بيرزيت عام ٢٠٠٦ م بعنوان (القرية والمدينة في الرواية الفلسطينية المعاصرة : أحمد رفيق عوض أنموذجاً) ، ولم أتمكن من الاطلاع عليها . بيد أنني لم أقف على دراسة مستقلة لدراسة بنية الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض . ومن هنا جاءت هذه الدراسة لهذا الجانب محاولةً كشف أبعاده وأشكاله وماهيته من خلال استقراء روايات أحمد رفيق عوض عامة ، من أجل الخروج برؤية واضحة المعالم عن حقيقة بنية الشخصية في مجمل إبداعه.

هذا وقد ارتكز الباحث في دراسته على المنهج التكاملي؛ لقدرته على استيعاب موضوعات البحث على شموليتها ، واستقراء نتائج البحث وربطه بأسبابه ، إضافة إلى حيوية مأخذه ، وقدرته على التواصل مع المتلقي في أي مجال .

وقد أفاد الباحث من بعض الدراسات ذات الصلة بموضوع الرسالة ، أبرزها :

- بنية الشخصية في أعمال مؤنس الرزاز الروائية –رسالة ماجستير- إعداد: شرحبيل المحاسنة
- الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة ، لمحمد أيوب .

وقد استدعت منهجية الدراسة أن تتوزع على : **(مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة فصول)**

سيتناول الباحث في التمهيد نبذة مختصرة عن حياة المؤلف وثقافته وأعماله ثم يتحدث بنبذة مختصرة عن مفهوم الشخصية لغة واصطلاحاً ، ومراحل تطورها ، وأنواعها وطرق تقديمها .

أما الفصل الأول : فسيتناول فيه الباحث شخصية الفلسطيني ، وهي التي تمثل الذات ، وسأتحدث فيها عن أنماط متعددة من شخصية الفلسطيني مثل شخصية : (المفاوض الفلسطيني ، والضابط الفاسد ، والمرأة البغي ، والعميل ، واللاجئ ، والمغترب العائد ، والعامل ، والمثقف المقاوم) وسأتناول الحديث عن تلك الأنماط بالشرح والتحليل من أجل الوصول إلى رؤية واضحة حول تصوّر الروائي ورؤيته للواقع الفلسطيني ، والوقوف على مدى تماهى الكاتب مع الواقع الفلسطيني بكل تجاذباته .

الفصل الثاني : فسيتناول فيه الباحث الحديث بإيجاز عن ماهية التراث ، وتعريفه في اللغة والاصطلاح ثم سأتحدث عن مدى تماهي عنوان الرواية بالمضمون ؛ كما سأتحدث بالشرح والتحليل عن بعض الشخصيات التراثية في روايتي (عكا والملوك ، والقرمطي) مثل شخصية (صلاح الدين الأيوبي ، وبهاء الدين قراقوش ، والخليفة المقتدر ، وأبي طاهر الجنابي –القرمطي-، والمرأة البغي والأم والراهبة) ، وسأتناول الحديث عن سبب استدعاء عوض لتلك الشخصيات باسمها الحقيقي المعروف في التاريخ ، وهل استعار المدلول العام للشخصية ، وما مدى توظيفه إياها فنياً ودلالياً أم أنها مجرد إعادة كتابة لتلك القصص .

الفصل الثالث : سأتحدث عن شخصية الآخر اليهودي ،وعن أنماط متعددة من شخصية اليهودي مثل شخصية (الجندي ، وضابط المخابرات ، والمفاوض ، والمرأة العاهرة ، واليهودي المدني والمستوطن ، واليهودي المهاجر) وسأتناول الحديث عن تلك الأنماط بالشرح والتحليل للتعرف على شكل تلك الأنماط والشخصيات ، ومعرفة ما هو الطابع العام لهذه الشخصيات بكافة نماذجها، وهل أظهرها الكاتب بالشكل المعتاد أم أنه جاء بجديد وماذا أراد الكاتب من وراء ذلك .

كما سأتحدث عن فكرة التجانس – الشعب اليهودي الواحد- التي يتغنى بها اليهود ، وهل هي حقيقية أم أنها خرافة أم أنها أكذوبة كبرى . وتلت هذه الفصول الخاتمة ، وأهم التوصيات التي اجتهد الباحث في طرحها من منطلق ما لمسته من خلال الدراسة النظرية والتطبيقية ، تلاها ثبت بالمصادر والمراجع، وأخيراً : فهرست الموضوعات .

وأخيراً أقول إنّني بذلت قصارى جهدي في هذا البحث ، فما كان فيه من صواب فمن الله عز وجل ، ثم بفضل توجيهات مشرفي الأستاذ الدكتور " نبيل خالد أبو علي" ؛ وما كان فيه من خطأ فمن نفسي ، وحسبي قول ابن عساكر في تاريخ دمشق : " فمن وقف معه على تقصير أو خلل ، أو عثر فيه على تغيير أو زلل ، فليعذر أخاه متطولاً ، وليصلح منه ما يحتاج إلى إصلاح متفضلاً ، فالتقصير من أوصاف البشرية ، وليست الإحاطة بالعلم إلا لبارئ البرية " .

التمهيد

أحمد رفيق عوض حياته ، وثقافته ، ورواياته :

إن دراسة النص الأدبي في ظل معرفة الأديب وسيرته والظروف العامة والخاصة التي أثّرت عليه تُعد عاملاً مساعداً على تحليل النص الأدبي وتفسيره ، وذلك من خلال إبراز الظروف التاريخية والاجتماعية التي أُنتج فيها النص الأدبي .

لهذا فإن " السيرة الشخصية للروائي هي من الروافد والمنابع الأساسية لتشكيل التجربة الفنية للمبدع . قد تشكل الاتجاهات الروحانية والوجدانية لديه ؛ بمعنى أن المبدع يبني –أولاً –من واقعه ثم ينطلق منه ثانياً " [١] .

حياته :

لقد قمت بمحادثة الكاتب عبر الهاتف المحمول مرات عدة [٢]، وتحدثنا فها حول نشأته فيقول إنه ولد في يعبد بجنين يوم الخميس العاشر من آذار عام ألفٍ وتسعمائة وستين ١٩٦٠/٣/١٠ لأبوين فقيرين يعيشان في بيت من الطين ، وقد جاء أبوه من قرية كفر قرع في المثلث عام النكبة والتهجير (١٩٤٨م) حيث عمل مزارعاً ، وتزوج من ابنة نجار وانتقل بها إلى يعبد ليعمل بائعاً متجولاً ومهرباً للبضائع الرخيصة من أراضي ال(٦٧) ، وقد ظهرت تلك المهن في رواية الكاتب العذراء والقرية –باكورة رواياته – فقد كانت شخصية المهرب أساسية ومركزية في تلك الروايات ، وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه آنفاً حول دور البيئة وتأثيرها على الكاتب ، وفي ظل هذه الظروف الاقتصادية والسياسية الصعبة ولد ونشأ أحمد رفيق عوض .

أحمد رفيق عوض عبادي ،إذاعي من مؤسسي صوت فلسطين و كاتب روائي أصدر أكثر من ثلاثة عشر عملاً أدبياً و صحفياً و سياسياً،و هو يعمل محاضراً متفرغ في دائرة الإعلام و التلفزة بجامعة القدس،وله مشاركة فاعلة في الحركة الثقافية الفلسطينية و العربية .

وقد حصل على شهادة الثانوية العامة سنة ١٩٧٨ ، ثم شهادة البكالوريوس في الأحياء من جامعة اليرموك عام ١٩٨٢م ،ثم شهادة الدبلوم في التربية وعلم النفس من جامعة اليرموك عام ١٩٨٢ ثم شهادة دبلوم عالي في الإدارة الإعلامية في الدنيمارك عام ١٩٩٧ ، ثم شهادة ماجستير في الدراسات الإقليمية–جامعة القدس–عام ٢٠٠٦ ،وأتمّ الدكتوراه في العلوم السياسية–القاهرة–٢٠١٠م ، وقد تنقل في العديد من الوظائف ؛ فعمل مدرساً في المدارس الحكومية في لواء جنين

---

[١] علي الخواجة:عين السارد قراءات في أعمال أحمد رفيق عوض،ط١،مطبعة أبو غوش،البيرة ، ٢٠٠٥م ،ص١٣.

[٢] محادثة مع الكاتب عبر الهاتف ٢٠١٤/٤/١٦م.

ما بين ١٩٨٢- و١٩٨٤م ، كما وعمل مديراً للأخبار في صوت فلسطين ورئيساً للتحرير في مركز التدريب التابع لهيئة الإذاعة والتلفزيون ما بين ١٩٩٦-١٩٩٨م ، وهو عضو مؤسس لبيت الشعر الفلسطيني ، وعضو هيئة التحرير لجريدة دفاتر ثقافية الصادرة عن وزارة الثقافة لمدة ثلاث سنوات ورئيس تحرير لمجلة " المجلة الطبية الفلسطينية " ١٩٩٦-١٩٩٨م ، ومديراً في وزارة الثقافة ومستشار الفضائية الفلسطينية في رام الله ، كما ويعمل محاضراً غير متفرغ في قسم الإعلام بجامعة بيرزيت ما بين ٢٠٠٠-٢٠٠١ ، ومحاضراً متفرغاً في قسم الإعلام والتلفزة في جامعة القدس ٢٠٠١م ، وكاتباً صحفياً وناقداً أدبياً في الدوريات المحلية والعربية .

المؤلفات :

أحمد رفيق عوض من الكتاب الفلسطينيين الذين أثروا الواقع الثقافي الفلسطيني، وهو حاصل على عدة جوائز كانت آخرها جائزة الملك عبد الله الثاني للإبداع، وترجمت رواياته "الملك تشرتشل، وبلاد البحر " للغة الايطالية، وقد شهدت تفتح الوعي المبكر للشاب الذي سيغدو في عقده الثاني من أهم قصاصي الأرض المحتلة، حين وقّع قصصه الأولى باسم مستعار (فكري خليفة) في مجلة: «الفجر الأدبي» وهو في بداية العشرينيات ، وهو الذي كتب قصة «رجل تحت الاحتلال» عام ١٩٨٤ في مجلة «الفجر الأدبي» وكانت من أولى القصص التي زاوجت بين فعلي الاحتلال والتخلف والأنماط الاجتماعية المتخلفة...وقدمت مضموناً مختلفاً غير سائد على مستوى الشكل والمضمون، وقد أصدر رفيق عوض سبع روايات هي على التوالي: العذراء والقرية ١٩٩٢، قدرون ١٩٩٦، مقامات العشاق والتجار ١٩٩٧، آخر القرن ١٩٩٩، القرمطي ٢٠٠١، عكا والملوك ٢٠٠٣، بلاد البحر ٢٠٠٦ .

يمتلك رؤية فنية أدبية عميقة تستمد قوتها من الواقع الفلسطيني، وعمق الحياة اليومية التي نتعايش معها في ظل ظروف فرضت علينا، كان دائم البحث عن الحقيقة والإبداع وبعيدا عن التزييف للواقع، كان يحمل بيده ريشه ترسم وجه الأرض ووجه المرأة ، وعالما فلسطينيا ينبض بفكرٍ وثقافةٍ وفنٍ تنبع من رحم الأرض والزيت والزيتون.

مؤلفات عن أعماله :

- جوائز الفحم ، علي الخواجة ، ٢٠٠٥م   * متابعة نقدية ، علي الخواجة ، ٢٠٠٥م .
- عين السارد ، علي الخواجة ،٢٠٠٥م .   * المختلف ، المتوكل طه ، ٢٠١٠م .
- رسالة ماجستير بعنوان " المكان في روايات أحمد رفيق عوض ، للطالب زاهي ناصر .
- رسالة ماجستير بعنوان " توظيف التاريخ في روايات أحمد رفيق عوض " للطالب حسن ماجد قطوسة .

مفهوم الشخصية :

جاء في لسان العرب أنها من مادة شَخَصَ ، والشَخص ، جماعة شَخْصِ الإنسان وعيره مذكر ، والجمع أشخاص وشخوص ، وشخاص .

والشخص : سواد الإنسان وغيره وتراه من بعيد ، وتقول ثلاثة أشخص ، وكل شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه .

وفي الحديث : " لا شخص أغير من الله " ؛ الشخص كل جسم له ارتفاع أو ظهور ، والمراد به إثبات الذات فاستعير لها لفظ الشخص ، والشخيص العظيم والشخْصِ ، والأنثى شخصية والاسم الشخاصة " [١]

من خلال تعريف ابن منظور يظهر لنا أنه قصر الشخص على معنى الذات الظاهر للعيان ، وهو بذلك يؤكد الظهور الحسي المقترن بمسمى الشخص .

وبالرجوع للقاموس المحيط فقد وردت فيه مادة شخص بمعنى " ارتفع بصره وفتح عينيه ، وجُعل لا يطرف ، ومن بلد إلى بلد ذهب وسار في ارتفاع ، وورم السم ارتفع عن الهدف والنجم طلع ، والكلمة من الفم ارتفعت نحو الحنك الأعلى ، وربما كان ذلك خلقه أن يشخص بصوته فلا يقدر على خفضه ، وشخص به كمعنى أتاه أمر أقلقه وأزعجه وأشخصه : أزعجه ، والمتشاخص : المختلف والمتفاوت [٢].

وواضح هنا أن الفيروز أبادي قد أضاف معاني أخرى أكثر وأوسع مما جاء في لسان العرب ، حيث بين لنا المواطن التي تستخدم فيها الكلمة ، لأنها تحمل أكثر من معنى بحسب استخدامها .

وفي المعجم الوسيط : " شخص الشيء عينّه وميّزه مما سواه " .

الشخصية : الصفات التي يتميز بها الشخص من غيره ، ويقال : فلان لا شخصية له ، أي ليس له ما يميزه من صفات خاصة [٣].

واضح أن هذا التعريف اقرب إلى الفهم النفسي للشخصية ، حيث يهتم علم النفس بوصفه ومظهر الشخصية وقدراتها ودوافعها وردود أفعالها العاطفية وخبراتها واتجاهاتها.

---

[١] ابن منظور : لسان العرب ،ط٦،دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٧ ، ٤٥/٧ مادة شخص.

[٢] الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ٣١٧/٢ مادة شخص.

[٣] إبراهيم أنيس ورفاقه : المعجم الوسيط ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ : ٤٧٥ ، مادة شخص.

وفي مقابل هذه اللفظة في اللغة الأجنبية والمنحدرة من أصول لاتينية ، نجد أنّ كلمة شخصية هي ترجمة لكلمة (persona) اللاتينية حيث تعني " القناع الذي يرتديه الممثلون اليونانيون في احتفالاتهم وتمثيلياتهم لإخفاء معالم شخصياتهم الحقيقية [١] .

و" عن هذه الكلمة جاء المصطلح الإنجليزي (personality) دالاً على الشخصية وصارت كلمة (person) تعني مصطلحاً أدبياً بمعنى (القناع الأدبي) ، أي صار في النقد يدل على الذات الفاعلة ضمن العمل الأدبي ، فتتخذ هذه الذات أوجهاً متعددة ، ربما كان الروائي نفسه أحد تلك الأوجه [٢].

" واللفظة بكاملها يعود استعمالها إلى الزمن الذي شهد فيه الممثل على الزمن الإغريقي ، يضع القناع على وجهه لغرض إظهار الصفات الصارخة في شخصية الفرد الذي يقوم بتمثيل دوره على المسرح وإيضاحها [٣] ".

" والحق أن اشتقاق اللغة العربية من وراء اصطناع تركي : ش خ ص ، وذلك كما نفهم نحن العربية على الأقل ، من ضمن ما يعنيه التعبير عن قيمة حية عاقلة ناطقة ، فكأن المعنى إظهار شيء وإخراج تمثيلية وعكس قيمته ... ولا يعني أصل المعنى في اللغات الغربية إلا شيئاً من ذلك [٤].

اصطلاحاً :

الشخصية في اللغة والأدب هي " أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة أو المسرحية " [٥].

وتعد الشخصية من أهم العوامل المساهمة في تشكيل القصة ، حيث تعد " ركيزة الروائي الأساسية في الكشف عن القوى التي تحرك الواقع من حولنا وعن ديناميكية الحياة وتفاعلاتها ؛ فالشخصية من المقومات الرئيسية لرواية الرواية بقولهم الرواية شخصية " [٦] .

---

[١] داوود حنا : الشخصية بين السواء والمرض ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٩١ :٧ ، وانظر الحبابي ، محمد عزيز من الكائن إلى الشخص ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٢ :٢٥.

[٢] برنارد دي فوتو : عالم القصة ، ترجمة : محمد مصطفى هدارة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٩ : ٤٠.

[٣] علي كمال : النفس ، دار واسط ، بغداد ط٤ ، ١٩٨٨م ، ٧٣/١ .

[٤] عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب ، الكويت ١٩٩٨ ، ٧٥ .

[٥] فريال سماح : رسم الشخصية في روايات حنا مينة ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٩٩ ،١٧/١٨ .

[٦] محمد التوتجي : المعجم المفصل في الأدب ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ٤٥٦/٢/٤٥٧ .

والشخصية " أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة أو المسرحية " [١] .

ويراها آخرون تتحرك في مجال الدلالة على الهيئة الخارجية للإنسان أو الحيوان ، أو المتاع لأي شيء خلاف ذلك . ولا تتحقق هذه الدلالة إلا بوقوع الهيئة ، أو الشخص المتجسد هيئة وشكلاً ، في مجال رؤية الشاخص بحيث لا تتحرك الكلمة لتعطي دلالات إلا في إطار علاقة ذات طرفين : راءٍ ومرئي ، أو ذي صلة بالتشخيص الذي ينتقل ما هو غير مرئي إلى مجال الرؤية من جهة ثانية أن الكلمة تذهب إلى تجسيد بعض المفاهيم المجردة كالانزياح والقلق والغربة [٢] .

ويعرفها جيرالد برنس في المصطلح السردي حيث جمع تعريفه تعريفات الكثير من النقاد والأدباء ؛ فهي عنده : " كائن موهوب بصفات بشرية وملتزم بأحداث بشرية ، والشخصيات يمكن أن تكون مهمة أو أقل أهمية (وفقاً لأهمية النص) فعالة (حيث تخضع للتغير) ، مستقرة (حينما لا يكون هناك تناقض في صفاتها وأفعالها ، أو مضطربة وسطحية (بسيطة لها بعد واحد فحسب ، وسمات قليلة ، ويمكن التنبؤ بسلوكها) ، أو عميقة (معقدة لها أبعاد عديدة قادرة على القيام بسلوك مفاجئ) [٣] .

والشخصية " هذا العالم المعقد الشديد التركيب ، تتعدد الشخصية الروائية بتعدد الأهواء والمذاهب والأيديولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية " [٤] .

والشخص عند السيميائيين " كائن حي واقعي له حالة ودلالة في الواقع ، أما الشخصية فهي ما يحمله الشخص من تخيل وتصور عن طبيعة الشخصية التي يناط بها دور من الأدوار في القصة " [٥] .

ومن الملاحظ في التعريف السيميائي السابق للشخص أنهم يفرقون بين الشخص الواقعي الفيزيائي المسجل في سجل الأحوال المدنية ، وبين الشخصية الورقية التي يسند لها دور في القصة الأدبية .

---

[١] مجدي وهبة : معجم مصطلحات الأدب ، مكتبة لبنان –بيروت– ١٩٧٤ ، ٦٥ .

[٢] عبد الرحمن بسيسو : قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر ، ط١ ، المشروع القومي للترجمة بيروت، ١٩٩٩ ، ١٨/١٧.

[٣] جيرالد برنس : المصطلح السردي ، ترجمة عابد خزندار ، ط١ ، المشروع القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠٠٣،٤٢–٤٣ .

[٤] عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية ، ٧٣ .

[٥] محمد أيوب : الشخص و الشخصية في القصة الغربية (دراسة سيميائية) ، ٣.

ولعل هذا التعريف السيميائي يحملنا إلى المقارنة بين الرواية القديمة التقليدية وبين الرواية الحديثة كما يُطلق عليها من حيث نظراتهم الروائية إلى الشخصية الروائية ، كما يحملنا إلى تتبع مراحل تتطور الشخصية الروائية .

وقد نالت الشخصية اهتمام كثير من العلوم كعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الهندسة النفسية ... وكثير من العلوم التطبيقية ، ولسنا بصدد الحديث عن الشخصية في تلك العلوم لأن ما يهمنا في هذه الدراسة هو الشخصية في الفنون الأدبية وتحديداً في الرواية ، حيث تُعد الشخصية أهم العناصر التي تقوم عليها الرواية والقصة والأقصوصة والمسرح .

فهي ولا شك " مصدر إمتاع وتشويق في القصة لعوامل كثيرة ... " [١] .

مراحل تطور الشخصية الروائية :

تستميز الرواية الجديدة عن الرواية التقليدية بأنها تثور على كل القواعد التي كانت سائدة ومنتشرة في كتابة الرواية التقليدية ؛ فلم يعد ما كان متعارفاً عليه مقبولاً لدى كتّاب الرواية الجديدة ، وبما أن الشخصية تُعد العنصر الأساس في كتابة الرواية ؛ فقد حدث فيها تغيراً جذرياً حيث " كانت الرواية التقليدية تركز كثيراً على بناء الشخصية والتعظيم من شأنها والذهاب في رسم ملامحها كل مذهب وذلك ابتغاء إيهام المتلقي بتاريخية هذه الشخصية وماهيتها معاً .

لكن الرواية الجديدة جاءت إلى مثل هذه الشخصية فأعارتها أذناً صماء وعيناً عمياء فلم تكن تأبه لها بل بالغت في إيذائها وفي التضليل من مكانتها الممتازة التي كانت تتبوؤها في حضن الرواية التقليدية فإذا هي مجرد رقم أو مجرد حرف أو مجرد اسم غير ذي معنى " [٢] .

وقد كان الروائي التقليدي يهدف من وراء ذلك أن يعكس صورة مصغرة للعالم الواقعي فأصبح يعامل تلك الشخصيات وكأن لها وجود فيزيقي ويبدو أن تلك العناية الفائقة في رسم الشخصيات كان له علاقة بهيمنة النزعة التاريخية والاجتماعية ، وقد وظفت رواية السيرة الذاتية التاريخية الأسلوب التقليدي ، وغلب عليه الأسلوب التقريري لخدمة واقعية الشخصية " قصد خلق التمويه بينها كتقنية أو كموضوع وبين الكائنات البشرية الواقعية الحية ... فيتعامل القارئ فيها مع

---

[١] محمد يوسف نجم : فن القصة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ص٥ .

[٢] عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية ، ٤٨ .

الشخصية على أنها كائن بشري يتحرك بلجمه ورسمه على الورق ، وعلى الكاتب السارد الذي يحكي عنها دون تدخل مباشر ، وأحياناً تحكي عن نفسها (ضمير المتكلم) [١].

لقد نجح الروائي التقليدي في أن يفيد من التاريخ بحيث يعمل على بلورة تلك الأحداث في رواياته محاولاً إقناع قرّاءه بأنها شخصيات واقعية ، ولكنه فشل في ذلك لإحساس القرّاء بأن الروائيين يخدعونهم ويكذبون عليهم وعلموا أنها مجرد لعبة .

وعلى الجهة المقابلة نجد من ينكر هذا الزعم ويخالفه ويذهب إلى أن " الشخصيات الروائية ليست كائنات حقيقية بل هي كائنات من ورق " [٢] .

لذلك هي عندهم " تشبه الأناس الحقيقيين ولكنها لا تشبههم كذلك " [٣] ،وذلك لأن الشخصية الروائية عبارة عن خيال محض صاغها وكونها خيال المؤلف " فالشخصية الروائية تمتزج في وصفها بالخيال الفني للروائي (الكاتب) ، وبمخزونه الثقافي الذي يسمح له أن يضيف ويبالغ ويضخم في تكوينها وتصويرها بشكل مستحيل معه أن تعتبر تلك الشخصية الورقية مرآة أو صورة حقيقية لشخصية معينة في الواقع الإنساني المحيط ، لأنها شخصية من اختراع الروائي فحسب" [٤]

ولعل هذا ما دفع كافكا لحرمان الشخصية من المكانة التي حازت عليها ، وتجريدها من خصائصها المرئية وأطلق عليها رمز (k) مرة ، ورقم مرة أخرى ، وهو بذلك يعلن ابتداء عصر جديد يحدد فيه ملامح التعامل مع الشخصية الروائية حيث إنه اخفي ملامحها وطمس قسماتها وحرمها من العاطفة والتفكير والحق في الحياة .

" ولما كانت الشخصية من منظور النقد الروائي التقليدي ، والكتابة الروائية التقليدية معاً هي كائناً حياً مسجلاً في الحالة المدنية ... فقد كان منتظراً أن يربط الحدث بالشخصية على شيء من هذا الأساس " [٥] .

---

[١] محمد اقضاض وآخرون :الرواية المغربية أسئلة الجدارة دراسات ضمن موضوع الشخصية في الرواية المغربية ، دار الثقافة – الدار البيضاء – ٢١٩ .

[٢] رولان بارت : مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص ، ترجمة منذر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، ط١ ،١٩٩٣ ص٧٢ .

[٣] روبرتشولز : " عناصر القصة ، ترجمة محمود الهاشمي ، دار خلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٨ ، ٧٢ .

[٤] آمنة يوسف : تقنيات السرد في النظرية التطبيقية ، دار الحوراء للنشر والتوزيع ، سوريا ،ط٢، ١٩٩٧ ، ص٢٦ .

[٥] عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية ، ٨٤ .

لقد نظرت الرواية التقليدية للحدث وكأنه من جنس التاريخ والمجتمع ؛ فأصبحت الشخصية صورة معكوسة للذين يحيون في ذلك المجتمع إمعانا في الواقعية المزعومة لديهم فأصبحت الشخصية " تصادي الشخص الحقيقي المركب من لحم ودم وعظام " [١] .

ويبدو من خلال هذا العرض المقتضب لرأي الفريقين أنّ كتّاب الرواية الجديدة من وجهة نظرهم للشخصية الروائية كانوا على درجة عالية من الوعي الفني بحيث يناسب وصف الرواية بصفتها عملاً فنياً إبداعياً وليس مجرد انعكاس للواقع ، وذلك لأن الشخصيات في الرواية على درجة عالية من الفنية بحيث تسهم في بنية النص السردي ، ككل بالإضافة إلى أنّ فنيتها تجعل القارئ مشاركاً في فهم الشخصية الروائية علماً بأن هذا الفهم يتعدد بتعدد القراء لاختلاف آرائهم وأمزجتهم وأهوائهم .

ويمكن أن نقول إن هذه الخصومة ما بين أصحاب الرواية القديمة أو التقليدية ، وبين أصحاب الرواية الحديثة أو الفنية تكمن في أن التقليدية " يلحقون ملامح الشخصية بملامح الشخص ويستريحون لإيهام القراء بأنها ترتقي إلى مستوى التمثيل الواقعي لصورة الحياة ... في حين أن أصحاب الرواية الحديثة يزعمون أن الشخصية لا تعدو كونها عنصراً من مشكّلات السرد في العمل الروائي من أجل ذلك لا ينبغي أن نمنحها كل هذه الأهمية ، ونميزها عن المشكّلات الروائية الأخرى تميزاً " [٢] .

إن الذي صنع الشخصية الروائية هم الكاتب ؛ فهي ليست حقيقية توجد في الواقع لأن الكاتب هو الذي أبدعها ؛ فهي موجودة فقط في ذهن الكاتب وإن شابهت الشخصية الحقيقية في بعض ملامحها الفيزيائية والنفسية .

أنواع الشخصية/

الشخصيات إما حقيقية (مُنْتِجَة)، أو متخيلة (مُنْتَجَة) وسيتناول الباحث الحديث عنها بشيء من التفصيل.

أولاً: الشخصيات الحقيقية (الخالقة أو المبدعة)

تتمثل الشخصيات الحقيقة في الأشخاص الحقيقيين الذي يساهمون في إبداع العمل الأدبي، إذ لا بد لكل عمل أدبي من مبدع يبدعه ويقدمه لجمهور القراء، والمبدع الحقيقي، وهو المؤلف الذي يكتب العمل ويوجه اهتمامه إلى قارئ متخيل وإلى قارئ حقيقي في الوقت نفسه،

[١] عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية ، ٨٤ .

[٢] السابق : ٨٥ .

والقارئ الحقيقي له دور جوهري في تأويل النص الأدبي، ولذا فإن الكاتب لا يهمل القارئ، ولكنه يطالبه أن يساهم مساهمة واعية وخلاقة، فالقارئ مطالب بأن ساهم في عملية الخلق الأدبي عن طريق اختراع هذا العمل الذي يقرؤه"(١).

أ/ المؤلف/ الروائي:

هو صانع الخطاب الروائي، أو الشخص الحقيقي الذي أنتجه وأبدع نسجه بشكل موضوعي لا لبس فيه، ولا تصح مقولة (موت المؤلف) وتلاشيه في الأعمال السردية المكتوبة حسب عبد الملك مرتاض "فحين يكتب أي روائي رواية فهو الذي يكتب؛ وهو الذي يُنشئ الشخصيات، وهو الذي يتخذ لروايته سارداً، في بعض الأطوار السردية... لكن المؤلف يظل حاضراً في العمل الروائي، فهو الذي يهندسه، وهو الذي ينسجه ويدبجه"(٢).

ويرسم خيال المؤلف شخصيته وأدوارها التي تلعبها مستمداً رؤاه من واقعه الذي يعيشه وخياله، ومن خلال تصوره للواقع المعاش، قد يتبنى شخصية، أو فكرة ما، يمارس خلالها "عمله ووظيفته الكتابية أو الإبداعية. قد يكون هذا القصور للأشياء، أو هذه الرؤية للعالم محدّدي السمات والمعالم، وقد يكونان غير واضحين بالقدر الكافي عند الكاتب أو المبدع"(٣).

وتعد شخصية السارد / الرواي أبرز تلك الشخصيات التي يبدعها خيال الروائي بل ويحرص الروائي على إقامة مسافة فنية بينه وبين السارد/ الراوي؛ فليس سارد الرواية هو المؤلف، وإنما السارد شخصية خيالية يتجول المؤلف من خلالها. (٤)

وهو ما يطلق عليه باللعبة الفنية تجعل من "هيمنة الراوي كعنصر ليست سوى وظيفته (لعبة الفني) ضد هيمنة موقعه ككاتب. أليست علاقة الراوي بما يروي ومناهضته هيمنة الكاتب الأيديولوجي عليه، هي ما جعلت العمل الفني يخون أحياناً كاتبه؟"(٥).

فالسارد موجود ولكن ليس بالحدة التي يزعمها النقاد الجُدُد، وليس إلى حد إلغاء المؤلف، بعدوانية عابثة، والاستيلاء على منزلته في العمل السردي. (٦)

---

(١) آلان روب جرييه، نحو رواية جديدة، دار المعارف –القاهرة– ص١٣٨.

(٢) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت– شعبان ١٩٩٨م، ص٢٠٧.

(٣) سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، ط١، رواية، –القاهرة– ٢٠٠٦، ص١٦٦.

(٤) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص٢٢٥.

(٥) يمني العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج النبوي، ط٢، الفارابي، بيروت، ١٩٩٩، ص١١٨.

(٦) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص٢٢٧.

ب/ المتلقي:

لا يمكن للإبداع أن يكتمل إلّا بالقارئ، فإذا كان الكاتب هو المؤلف الأول للعمل الأدبي، فإن القارئ الحقيقي هو المؤلف الثاني لهذا العمل، ولكي يكتمل العمل الأدبي يجب أن يتحول القارئ إلى مؤلف للنص. [١]

يعيد إبداعه من جديد ومن هنا جاءت فكرة تعدد القراءات للنص الأول. والقارئ الحقيقي يختلف عن القارئ المتوهم الذي يتخيله المؤلف في أثناء كتابته للعمل الأدبي، فالكاتب يعرف كيف يخلق التسلية بكل وسائل الخداع، فهو يعي رغبات الآخرين، والقارئ الحقيقي يبرز كمعارض للقارئ المتوهم عند القاص، ومكتملاً كقارئ حقيقي يضفي على العمل الأدبي معنىً جديداً ويترك عليه بصماته بحيث يتحول إلى مبدع ثانٍ للعمل الأدبي ويحاول الإسهام في الأتوبيوغرافية، كجزء من بحثه عن صورة البطولة والحدث والزمن، لا كما يرسلها القاص، ولكن كما يتلقاها وعي القارئ"[٢].

إن زمن قراءة النص يظل مفتوحاً على الأزمنة والأمكنة من خلال عملية. (الترهين الزمني) الدال على الحال (الآن) ومع مجيء المدرسة النقدية أكدت على دور المتلقي في صناعة المعاني "إضفاء أي معنى تلزمه حاجاتهم النفسية على نص معين، وليس النظام، بل الفوضى هي التي تحتل موقع موقع الامتياز من هذه النظرة"[٣].

بالإضافة إلى أنّ المتلقي يقوم بدور الناقد "فقد يختار منهجاً ملائماً لقراءة النص، وقد يختار منهجه هو لقراءة أي نص، وقد تجتمع لديه مناهج مختلفة يرى أنها تتظافر إلى جانب معارف أخرى لتقديم أفضل قراءة ممكنة للنص"[٤].

إنّ القارئ هو مبدع في الوقت نفسه، فهو يقوم بإبداع رواية داخل الرواية التي كتبها المؤلف.[٥]، وقد أجمع النقاد على إعادة خلق العمل الأدبي. [٦]

فالقارئ الناقد يقرأ بتمعن ودقة، وهو كاتب روائي يعيد صياغة العمل الأدبي، ويتحمل جزءاً من المسئولية، لأن العمل الروائي بعد إنجازه لا يخص المؤلف وحده. [١]

---

[١] إلياس خوري، الرواية الجديدة، كتابات معاصرة (مجلد١، عدد ١٩٨٩، ٣)، ص٧٩.

[٢] سعيد علوس، الرواية والأيديولوجيا (ط٢، بيروت، دار الكلمة للنشر، ١٩٨٢، ص٩٢.

[٣] روبرت شولز، السيمياء والتأويل، ترجمة سعيد الغانمي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٣٠/١٩٩٤.

[٤] فصول، خصوصية الرواية العربية، العدد الثالث، شتاء ١٩٩٧، ٩٣/١٦.

[٥] بيرسي لوبوك، صنعة الرواية، العراق، وزارة الثقافة والإعلام، ترجمة عبد الستار جواد، ١٩٨١، ص٢٣.

[٦] آلان روب جرييه، نحو رواية جديدة، ص١٣٨.

ثانياً/ شخصيات مُنْتَجَه:

تتعدد أنواع الشخصيات المُنْتَجَة في الأعمال الروائية، ومن المعلوم أن هناك تصنيفان شائعان الأول شكلي "يركز على مهمة الشخصية في النص وعلاقتها الشكلية الخالصة بالشخصيات الأخرى"(٢).

وقد انقسم هذا الصنف إلى قسمين: الأول يتضمن الشخصية السكونية الباقية على نمط واحد طوال السرد، ولا تنمو ولا تتطور، والثاني يتضمن الشخصية الدينامية، وهي الباقية على نمط واحد طول السرد، وتخضع للتغيير أو التبديل وهي دائمة الحركة وتمتاز بالتحولات المفاجئة التي تقرأ عليها داخل البنية الحكائية الواحدة. (٣)

أما التصنيف الثاني فهو الذي يبني على أساس ارتباط الشخصية بالحدث الروائي حيث ينظر إلى "أهمية الدور الذي تقوم به الشخصية في السرد فقسمت الشخصيات فيه إلى شخصيات رئيسية أو محورية وشخصيات ثانوية مكتفية بوظيفة مرحلية"(٤).

"وكان النقد يصنف الشخصيات بحسب أطوارها عبر العمل الروائي، فإذا هناك ضروب من الشخصيات بحيث تصادف الشخصية المركزية التي تصاديها الشخصية الثانوية، التي تصاديها الشخصية الخالية من الاعتبار، كما يصادف الشخصية المدورة والمسطحة، والإيجابية والسلبية والثابتة والنامية..." (٥)

وسيبدأ الباحث بالحديث عن التصنيف الذي يرتبط بالحدث الروائي، حيث قُسمت فيه الشخصية إلى ثانوية ورئيسية، وهذا التصنيف هو الأكثر شهرة في درس تصنيف الشخصيات ويجعل شخصيات أحمد عوض في دائرة أكثر شمولية.

---

(١) بيرسي لوبوك، صنعة الرواية، ٢٨/٢٧.

(٢) سمير روحي الفيصل، الشخصية والراوي في "أنت منذ اليوم" راية مؤتة، م٢، ع٢، ١٩٩٣، ص١٧٧.

(٣) انظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء – الزمن – الشخصية)، ط١، ١٩٩٠، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص٢١٥.

(٤) السابق: ٢١٥، وانظر: محمد الحسن المصطفى، الرواية العربية الموريتانية (مقاربة للبنية والدلالة)، ص٩٩.

(٥) انظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص٨٧.

١- الشخصية المحورية/ الرئيسة:

وهي التي تنهض بمهمة رئيسة وبالدور الأكبر في تطور الحدث، كما وتساعد المتلقي على فهم طبيعة الخطاب وهي التي "تقودنا إلى طبيعة البناء الدرامي، فعليها نعتمد، حين نبني توقعاتنا ورغباتنا، التي من شأنها أن تحول، أو تدعم تقديراتنا وتقييمنا.

ومن ثم تنهض قيمة معظم الروايات، وما تحدثه من التأثير الفعال على مدى مقدرة الشخصيات الرئيسة في تقديم الموقف، والقضايا الإنسانية التي يطرحها العمل تقديماً حيوياً. وأننا نميل إلى تقييم العمل في ضوء مقدرة الشخصيات على تجسيد تلك المواقف بصورة مقنعة"[١].

وهي التي تقود الفعل وتدفعه إلى الأمام، وليس من الضروري أن تكون الشخصية الرئيسية بطل العمل دائماً، ولكنها الشخصية المحورية، وقد يكون هناك منافس لهذه الشخصية. [٢]

وهي بذلك عكس الشخصية الثانوية التي لا تتغير رغم الظروف المحيطة بالشخصية الرئيسية يقول أنريكي أندرسون: "توصف الشخصيات بأنها رئيسية عندما تؤدي وظائف مهمة في تطوير الحدث، وبالتالي يطرأ على مزاجيتها تغيير وكذلك على شخصيتها، أما الشخصيات الثانوية فهي التي لا يطرأ عليها تغيير أو تتغير في إطار الظروف المحيطة. إن الشخصيات الرئيسية هي شخصيات مسيطرة، وتظهر بصورة الأفراد المهيمن رغم أن سلوكها قد لا يتسم بالسلوك البطولي. وأياً كانت الأحداث والتصرفات الصادرة عنها فإن الباعث ينير معالم الشخصية. أما الثانوية فهي تابعة تسهم في إضفاء اللون المحلي للقصة"[٣].

فالشخصية الأولى صانعة للحدث والثانية مضيئة له.

لقد ظهرت الشخصيات الرئيسية في روايات أحمد رفيق عوض، وكان لظهورها طابع منفرد، وسلوك خاص، ودلالات فنية نحاول الإشارة إليها في أثناء التعرض لبعض نماذج الشخصيات الرئيسة عنده.

---

[١] روجرب هينكل، قراءة الرواية، ترجمة صلاح رزق، د.ط١، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٥، ص١٨٦.

[٢] إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين، طبع التعاضدية العالمية للطباعة والنشر –تونس– ١٩٨٦، ص٢١٢.

[٣] أنريكي أندرسون، القصة القصيرة (النظرية والتقنية)، ترجمة: علي إبراهيم علي، المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة– ٢٠٠٠، ص٢٣٩-٢٤٠.

٢- الشخصية الثانوية/ المساندة:

لا تخلو رواية منها وتأتي مساعدة للشخصية الرئيسية، وغالباً ما تكون غير نامية تسير وفق مستوى واحد فهي "إما عوامل كشف عن الشخصية المركزية وتعديل سلوكها وإما تتبع لها، تدور في فلكها، وتنطق باسمها فوق أنها تلقي الضوء عليها وتكشف عن أبعادها"[١].

كما وأنها تقوم بخلق الصراع وإثارة الحيوية فدورها مساند وليس ثانوي لأن المساندة تعبير أقوى فهو يعطي دلالة المبادر والحيوي والمعاضد فكرياً أو شعورياً يقول باسم عبد الحميد: "إن الشخصية الثانوية هي الشخصية المساندة التي تعطي للعمل الروائي حيوية ونكهته وقدرته على إبلاغ رسالته، وإنّ تجذير الصورة الدرامية داخل العمل الروائي لا يتم الاّ من خلال تحريك الشخصيات الثانوية التي تعطي للصراع ذروته ومعناه، ومن هنا فالشخصية الثانوية ليست حالة أو مادة عابرة أو مفروضة على مسرح الحدث، وأستطيع الإدعاء تبعاً لذلك، وبغير كثير من التشكيك أن الشخصية الثانوية بطلة أيضاً إنما بمستواها"[٢].

وبعد بقي أن نقول إنّ الشخصية الثانوية أو المساعدة لها أهمية كبيرة في الخطاب السردي، فلا ينبغي التقليل من شأنها لما لها من دور بارز في تجلية الشخصيات الرئيسية وإبرازها، فمن خلالها يصنع الكاتب الحدث والحبكة.

وفي روايات أحمد رفيق عوض كان للشخصية الثانوية دور فعال في تصعيد الحدث وصنع الحبكة وتجلية الشخصيات الرئيسية بل كان لبعض الشخصيات الثانوية ظهوراً أقوى من الشخصيات الرئيسية وهذا ما سنجليه من خلال الحديث عن الشخصيات الرئيسية والثانوية في روايات أحمد رفيق عوض.

وهناك شخصيات إيجابية وأخرى سلبية وأخرى نامية حيث أنها لا تتماز بالثبات على طول النص بل متغيرة باستمرار وهي بعكس الشخصية المسطحة التي تسير ضمن نمط ثابت لا تتغير سماتها على طول الرواية، وهناك الشخصية النموذجية أو المثالية.

[١] إبراهيم السعافين، تطور الرواية العربية في بلاد الشام، دار المناهل، بيروت ١٩٨٧، ص٤٦٣.

[٢] باسم عبد الحميد حمودي، مدخل إلى الشخصية الثانوية في الرواية العراقية، الأقلام، ٦٤، ١٩٨٨، ص٤٢.

الفصل الأول

شخصيات فلسطينـية

تتشكل شخصية أي إنسان من خلال البيئة التي يعيش فيها ، كما أن للظروف الاقتصادية والاجتماعية الدور الأبرز في تشكيل الشخصية بوجه عام ، وقد ألمت بالشعب الفلسطيني ظروفاً صعبةً أدت إلى صياغة شخصيته بشكل خاص " وقد شكّلت أحداث عام ١٩٤٨ منعطفاً خطيراً في حياة أبناء الشعب الفلسطيني، فقد انهارت طبقات وشرائح اجتماعية ، وتفككت العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة قبل النزوح الكبير، وتحولت غالبية الشعب الفلسطيني إلى مجموعات من اللاجئين المشردين الذين تجمعوا في مخيمات خاصة أقامتها لهم وكالة الغوث في المناطق المتبقية من فلسطين، أو في الدول العربية المجاورة " [١] .

كما كان لوجود الاحتلال الصهيوني الذي قارب على السبعين عاماً الأثر الأكبر على تكوّن الشخصية الفلسطينية ، فكان لا بد من أن يترك هذا الجسم السرطاني الأثر العميق على عقلية ونفوس الشخصية الفلسطينية ، وذلك لتملكه للقوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والإعلامية ، وقد كان أشدها خطراً على الفلسطيني التأثير الثقافي ؛ فخروج آلاف العمال الفلسطينيين للعمل في الأراضي المحتلة عام الـ(١٩٤٨) بشكل يومي أدى ذلك إلى التأثر الكبير بثقافة الآخر.

ومن الجدير بالذكر أنّ هذا التأثر قد تُرجم عملياً من خلال حياة الفلسطيني اليومية فأخذوا يتداولون كثير من الكلمات العبرية ، وقلّدوا الإسرائيليين في لباسهم وعاداتهم وتقاليدهم مثل شرب الخمر وممارسة الزنا والفاحشة ولعب القمار ... ؛ بل وصل الأمر عند بعض العمال بأن يدعو صاحب عمله – الإسرائيلي – لفرح ابنه ويتفاخر بذلك ؛ وهكذا تأثر المهزوم بالمحتل الذي فتح أبواب العمل للفلسطينيين بعد هزيمة عام الـ (١٩٦٧) على مصراعيه ففتن الفلسطينيون بالحضارة الإسرائيلية وبالأموال الكثيرة التي أنستهم هموم التهجير .

هذه الحقيقة المرّة والتي صارحنا بها الكاتب " أحمد رفيق عوض " من خلال رواياته فتحدث عن تلك السلبيات بكل وضوح وصراحة دون مجاملات ؛ فتحدث عن أصناف متعددة ونماذج مختلفة لشخصيات استقاها من الواقع ؛ فتحدث عن شخصية العامل والعميل والمناضل والسمسار والسجين واللاجئ والمفاوض الفلسطيني ... وقد أسهب الحديث عن تلك الشخصيات واضعاً يده مكان الجرح والألم في محاولة للوقوف مع الذات وتعريته ليقول لنا أنّ الهزيمة جاءت من هنا ؛ فانهيار المجتمع أخلاقياً يتبعه الهزيمة بكل تأكيد .

---

[١] محمد أيوب : الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة ، ص٤٩ .

ومن ناحية أخرى كان السواد الأعظم من الفلسطينيين يتمتع بسمات الشخصية العربية الأصيلة التي اتصفت بالكرم والشجاعة والتضحية من أجل الوطن والتمسك بأرضه وتقديم الغالي والنفيس في سبيلها بالإضافة إلى التمسك الشديد بالدين الإسلامي الحنيف والحفاظ على العادات والتقاليد الموروثة .

كما ويظهر على الشخصية الفلسطينية رفضها للخضوع والانكسار وعدم الاستسلام ، وتتميز بالإصرار والعزيمة وقوة الشكيمة ، والعند خصوصاً إذا كانت في حالة تحدي ، وقد أوضح الخطاب الروائي عند "أحمد رفيق عوض " تلك الصفات من خلال شخصياته الروائية .

١- شخصية المفاوض الفلسطيني:

رواية آخر القرن

محمود السلوادي

بعد انتهاء مراسم وطقوس استقبال الأبطال العائدين من البيت الأبيض ، ومواجهة الواقع الذي تمخض عن اتفاقية أوسلو بدأت تختفي الابتسامات شيئاً فشيء لأن الواقع بدأ يكشف عن مرارة الاتفاقية ؛فأحس الكتّاب والأدباء والشعراء بواجبهم في كسر القيود والأغلال وإبراز الحقيقة بشكل أدبي وفني لتصوير الواقع بآلامه وآماله ليصبح مرآةً للواقع المرير وللحياة المُرّة فتعكس الإحساس بالألم والفرح والبكاء والضراء والسراء والسخط والرضا ، ولتصور لنا الصدمة الهائلة التي مُني بها الشعب الفلسطيني إثر اتفاقية أوسلو فقد صوّرها "أحمد رفيق عوض " على أنّها استكمالاً لمسلسل الهزائم بينما صوّرها "عاموس عوز" الروائي الإسرائيلي على أنها نصر عظيم لنعلم حجم الكارثة التي حلت بنا إثر التوقيع على اتفاقية أوسلو حيث يقول : " إنّ ١٣ أيلول /سبتمبر /١٩٩٣/٩ م ثاني أكبر نصر في تاريخ الصهيونية بعد ولادة الدولة العبرية ١٩٤٨م" [١] .

لم يقبل الروائي الفلسطيني عامة و" أحمد رفيق عوض " خاصة أن يقف مكتوف الأيدي أو أن يكون ضمن المصفقين المنتفعين بل شعر أن الواجب الوطني يجبره على إبراز خطورة هذه المرحلة رغم أنّ الحديث عن أوسلو يبدو مهمة صعبة ؛ فصور لنا عوض تلك المرحلة وكأنه مراقب محايد يحاول التغيير من خلال قلمه كما ويقدم الحلول والإجابات لأسئلة عالقة في ذهن المواطن من خلال تقديم عالم من اللغة والخيال القريب من الواقع ؛ فعبر لنا عن موقفه الرافض

---

[١] نايف حواتمة : أوسلو والسلام الآخر المتوازن ، الأهالي – بيسان – ص٣٠٠.

لاتفاق أوسلو من خلال أعماله الفنية التي أعقبت التوقيع على اتفاقية أوسلو وخصوصاً رواية الرائعة " آخر القرن " .

تتحدث الرواية عن مرحلة حرجة جداً من حياة الشعب الفلسطيني وهي المفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين لإيجاد حل سياسي، وتشعرنا بالجو الذي يعيشه المتفاوضون عن قرب،وكأنك تجلس قربهم ، وتفضح لنا عبثية تلك المفاوضات لعدم تكافؤ طرفيها، فالآخر قوي يفرض ما يريد وما يشتهي، وما على الضعيف إلا القبول بذلك ثم يحاول أن يظهر لنا أن ما فعله انتصار حقيقي كما وتفضح لنا الرواية حياة الفلسطيني المتناقضة ففي الوقت الذي يفاوض فيه "محمود السلوادي" الإسرائيلي حول اللاجئين والمستوطنات، يعمل أخوه في بنائها لفارق الأجر، كما وتبين لنا الرواية ألّا مثالية لصورة الفلسطيني فهناك العديد من المتناقضات في شخصية الفلسطيني ؛ فهناك العميل والخائن والمناضل والمتاجر بدماء الشهداء والمتجر بأرض فلسطين ؛ فالجريمة والغش والخيانة موجودة في الشخصية الفلسطينية ففلسطين ليست جنَّة كما تخيلها "أبو يزن" العائد لوطنه والذي لم يعش فيها أبداً قبل دخوله بوثيقة إسرائيلية حيث كان يتخيل أهل فلسطين ملائكة ولم يعلم أن الحياة قد عبثت بهم .

وكعادته يضعنا " أحمد رفيق عوض " في عمق الهزيمة التي يعيشها الشعب الفلسطيني كل يوم، من خلال المفاوضات الهزلية ؛ فأحمد عوض منشغل دائماً بالهزيمة والفساد والإذلال الذي عاشه العرب والمسلمين منذ التاريخ.

تبدأ الرواية مباشرة في موضوع المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية، وهي بداية تنبئ بالهزيمة لأن النص يبدأ "بتل أبيب" وحزيران، وحزيران شهر انتصارات اليهود وهزائم العرب ، والحوار التالي بين "محمود السلوادي" المفاوض الفلسطيني و"حاييم" المفاوض الإسرائيلي يكشف لنا مدى تفاخر المفاوض الإسرائيلي بانتصاراته فهو يرى أنّه الأقوى دائماً " شكا حاييم من حرارة حزيران، ولكنه استطرد قائلاً إنه يحب هذا الشهر جداً، فقال محمود السلوادي بصوت متجهم: إنه شهر انتصاركم على العرب. ضحك حاييم وقال وهو يتحرك على كرسيه: نحن ننتصر دائماً... ألا تعتقد ذلك؟"(١).

إن عملية التفاوض من بدايتها تشي بالفشل، فالآخر –الإسرائيلي- يذهب إلى التفاوض وهو القوي. صاحب انتصارات كثيرة ، والمفاوض الفلسطيني ضعيف محمل بتاريخ من الهزائم، وبالتالي يصبح هذا التفاوض هزيمة أخرى تضاف إلى سابقتها من الهزائم.

(١) أحمد رفيق عوض : آخر القرن ، القدس – اتحاد الكتاب الفلسطينيين – ، ١٩٩٩ ، ص١٥.

"محمود السلوادي" المفاوض الفلسطيني خرج من سجون الاحتلال حيث اعتقل عام ١٩٨٩م وحكم عليه بالسجن أربع سنوات لكنه لم يتمّها بسبب انعقاد مؤتمر مدريد من ناحية ، ولأن سياسة الدولة آن ذاك ترى بإخراج بعض الشخصيات المقبولة لديها ولدى الشارع الفلسطيني من ناحية أخرى – وهي الشخصيات البراغماتية – لينضم إلى قائمة المفاوضين بشئون اللاجئين.

وبذلك يتحول "محمود السلوادي" من مناضل ومقاوم وسجين إلى مفاوض للاحتلال حول قضية اللاجئين المعقدة ، ويصطحب السلوادي في مفاوضاته "حسين فالح" وهو من المركز الفلسطيني لشئون اللاجئين، بينما المفاوض الإسرائيلي يحضر معه شخصين الأول من وزارة الخارجية والآخر من وزارة الدفاع، كما أن المفاوض الإسرائيلي مزود بتقرير مفصل عن "محمود السلوادي" من جهاز "الشين بيت" منذ بدء المفاوضات، وبذلك يكون المفاوض الإسرائيلي قد تفوق على المفاوض الفلسطيني في كل شيء ، ومن هنا تبدأ المفارقة والتي تتضح معالمها تدريجياً من خلال التعمق في مجريات الأحداث بواسطة تقنية التقسيط التي استخدمها الكاتب كثيراً .

كما وقام " أحمد رفيق عوض " بتعريف القارئ على تاريخ "محمود السلوادي" من خلال تقنية حديثة أخرى لعلها استخدمت لأول مرة في الرواية وهي تقنية التقرير، وهي تقنية جديدة وبعيدة عن السرد التقليدي، ويعرض التقرير المقدم من "الشين بيت" كل ما يتعلق "بمحمود السلوادي" من معلومات ونشاطات تخريبية –حسب التقرير– قام بها، والفترات التي سجن فيها، والأشخاص الذين اتصل بهم، وتفاصيل حول حياته الشخصية، ومصادر معلومات التقرير من العملاء وغيرهم، وما إن انتهى "حاييم شلومو" من قراءة التقرير حتى نظر بتعالي إلى محمود يعاتبه قائلاً :
" لماذا تخفي عني أنك تعرف العبرية؟! ومحمود بسرعة دون تفكير: أنا أفاوضك، ولست صديقك"(١).

لقد أظهر التقرير مدى ضعف المفاوض الفلسطيني الذي يملك الحق والشرعية ولكنه في نفس الوقت يفتقر إلى كل شيء حتى إلى المعلومة ...، كما وبين التقرير قوة المفاوض الإسرائيلي الذي يمتلك قوة الواقع ويفتقر إلى الشرعية لكنه خبير مزود ببنك من المعلومات وبذلك يكون هو المسيطر وصاحب القوة، كما وأظهر التقرير أنه رغم الرصيد النضالي الذي يتمتع به السلوادي إلّا أنّه يعاني من الاختراق والعملاء وهذا ضعف يضاف إلى سابقه .

---

(١) أحمد رفيق عوض : آخر القرن ، ص٣٩.

كما وأظهر لنا الخطاب مساوئ وضعف فترة من فترات النضال الفلسطيني وهي فترة الانتفاضة ونوه إلى ظاهرة الاختراق التنظيمي فمعظم المعلومات التنظيمية التي وصلت إلى الشين بيت كانت من خلال عملاء تم زرعهم في التنظيمات ،وهذا يدل على شفافية الكاتب وصراحته في تعرية الذات من أجل تصحيح المسار لا من أجل جلدها .

يقترب محمود من الفندق "دان تل أبيب" ليفاوض الإسرائيليين للمرة الثانية مع "حاييم شلومو" حول اللاجئين، دون كاميرات ، دون ضجيج إعلامي فهو لقاء بشكل غير رسمي حول تعويض اللاجئين الفلسطينيين الذين يفقدون حق العودة غصباً، وعليه أن يسمع للنهاية كما أوصته قيادته في غزة :

" قالت لي القيادة في غزة: عليك أن تسمع إلى النهاية!! أحببنا ذلك أم كرهنا، فنحن نتفاوض مع المحتل، والتفاوض يفترض وضع كافة البدائل والاحتمالات"[١].

وبذلك تتضح الفكرة السابقة من حيث ضعف المفاوض الفلسطيني ، وتفوق الإسرائيلي لتعميق الشعور بالهزيمة، وهي فكرة مؤمن بها "محمود السلوادي" منذ البداية لذلك أكثر "محمود السلوادي" أحمد رفيق عوض من استخدامه للأسطورة التي يلجأ إليها ليبين لنا الاستسلام واليأس الذي وصل إليه المفاوض الفلسطيني ، فهو يتكئ على الخرافة التي ستخلصه يوماً ما من المحتل ويكرر مراراً ذلك القول حيث تم اختراع رواية معدلة للنهاية – نهاية المحتل –بعد سقوط غرناطة حيث تفترض في النهاية تعطيل الآلة ومن ثم العودة لاستعمال السيف والعودة والانتصار، وقد وجدت هذه الرواية هوى في نفوس أهل الأمة ،فتناقلتها الأجيال إلى أن وصلت هذه الرواية إلى سلواد يقول السلوادي هذه الرواية قد حكاها لي أبي على النحو التالي : " أول الأمر تكون موقعة عظيمة بين أمريكا وروسيا، تنتصر فيها أمريكا، ومن ثم يتقاتل العرب والأمريكان، وعندئذ تتعطل "الآلة بأمر الله، فينتصر العرب في الموقعة، – وكان أبي يصر على كلمة موقعة هذه–، ويصل العرب في نهايتها إلى روما، وما أن يتم الانتصار حتى يصيح صائح أن أعور الدجال يعيث في الأرض فسادا، فيرتد العرب إلى فلسطين... " [٢]

---

[١] أحمد رفيق عوض : آخر القرن ، ص١٠.

[٢] السابق : ص٩٨.

وفي موطن آخر يتحدث السلوادي مرة أخرى عن تلك الأسطورة من خلال المنولوج الداخلي في لحظة ضعف تسيطر عليه في أثناء حديثه التفاوضي مع حاييم يقول : "ستتعطل "الآلة" يا حاييم، وسنجعل من "السيوف" مناجل وسككاً بعد أن نكون قد فتحنا روما.. أو رومية إن شئت"(١).

ويتضح ضعف "محمود السلوادي" أكثر عندما يتذكر أثناء –حواره مع حاييم– أيام السجن وجلسات التحقيق مع الميجور إبراهيم يقول الراوي : " توتر محمود السلوادي شعر بأن رائحة العطر ورنين الضحك، واللهجة الواثقة تتحداه كلها، استفزت حواسه بالكامل، تذكر أيام السجن وجلسات التحقيق مع الميجور إبراهيم ذي السحنة العراقية، تداخلت الصور والروائح..." (٢).

كما ويوضح لنا الحوار الذي دار بين "محمود السلوادي" وبين صديقيه جانباً من ضعف وعبثية المفاوضات يقول لصديقه "فارس العبد" عندما سأله عن أخباره فرد عليه "محمود" قائلاً : " أخباري يا عزيزي تتلخص في أني أفاوض الإسرائيليين وقد أفقع يوماً في أثناء المحادثات، من الصعب على الضعيف أن يفاوض أو يجري مفاوضات ناجحة " (٣).

هذه المقتطفات السابقة المستندة على الأسطورة تارة وأخرى على المونولوج الداخلي وثالثة على الحوار تبين لنا نفسية السلوادي المأزومة والمنهزمة كما وتلخص لنا شعور المفاوض الفلسطيني في تلك الحقبة إنه الشعور بالهزيمة التي تلاحق الفلسطيني في كل مكان .

يقدم السلوادي تقريراً لقيادته عن مجمل المحادثات مع "حاييم شلومو" ملخصه أن الإسرائيلي يشترط حل مسألة اللاجئين بعيداً عنه فهم يعارضون عودة اللاجئين بالجملة معتمدة على أن الولايات المتحدة هي التي تتحكم في أمور الشعوب وبالتالي فلن يعجزها أمر مئات آلاف اللاجئين الفلسطينيين.

ويوضح لنا "محمود السلوادي" وجهة نظره حول التفاوض مع الصهيوني بقوله " التفاوض مع الإسرائيلي مرير ومقلق ومفاجئ، ومثير للسخرية والعجب، هو مرير لأنه يدور عدة ساعات بلا نتيجة وبلا هدف أيضاً"(٤).

---

(١) أحمد رفيق عوض : آخر القرن ، ص٩.

(٢) السابق: ص١٦.

(٣) السابق: ص٨١.

(٤) السابق : ص٦٨.

وهو ماهر وفنان في تفريغ أي محادثات من معناها ومبناها، وهو لا يعتمد على الحق وإنما يعتمد على أسلوب إدارة المفاوضات "وهكذا فعل القوي دائماً في كل مراحل التاريخ ... والتفاوض مع الإسرائيلي مقلق، باعتباره يجعل من الحقائق أوهاماً، ومن المسلمات قضايا بحاجة إلى برهان ... إنه يجرك إلى منطقته المعتمة، إنه عملياً يجرك إلى لا وعيه، وإلى هواجسه"[١].

كما " أن الحقيقة التي يؤمن بها الإسرائيلي تأتي عن فضاء مختلف ومن قاموس مختلف ... يقلقك أن يرى الإسرائيلي في نفسه خصماً وحكماً للتاريخ في آن واحد ... يقلقك أن تعيد شرح بديهيات انتهى العالم من نقاشها مقلق أن تناقش إسرائيليا قد يقول لك على حين غرة: لماذا تعتقد دائما أن الشمس تشرق من جهة الشرق ؟! "[٢].

المفاوض الإسرائيلي قوي فهو مزود بمعلومات دقيقة وهائلة عن كل شيء وتتفاجأ أنّ الإسرائيلي يتبنى قضيتك ويريد لك الاستقلال وهو في ذات الوقت "يريد ماءك الذي تستحم به"[٣].

هكذا وصف لنا "محمود السلوادي" شخصية المفاوض الإسرائيلي بشكل دقيق ، والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا فشل السلوادي في التفاوض مع الإسرائيلي رغم قراءته له، والجواب لأن السلوادي ذهب للمفاوضات وليس بيده ورقة قوية يفاوض من خلالها سوى أنه صاحب الحق وهذا لا يكفي بينما الإسرائيلي فهو الأقوى ويملك أوراق اللعبة جيداً لكنه من العجب أن هذا القوي إذا انهار لا يجري مفاوضات إنما يوقع دائماً على وثيقة استسلام.

إن شخصية "محمود السلوادي" " تواجه حواف أقدراها، من خلال قوة إدراك عالية، ومن العجب أنها تتميز بهذه القدرة على رؤية الأشياء كما هي ولكنها تختار غير ما تدرك"[٤].

يحس "محمود السلوادي" بالتناقض الكبير فقد جاء إلى المفاوضات وهو صاحب حق والآن يناقش " حاييم " في شروق الشمس من المشرق –أي في المسلمات– لذلك يرغب محمود بالصراخ ويقول : " أنا لا أشعر بنفسي أنني محمود السلوادي فقط، بل أشعر أنني جماعة مطعونة بشرفها الشخصي، وأنني للحظات كثيرة وأمام حاييم شلومو بالذات، أشعر بهول مصيبتنا وعارنا يوم سقطت بغداد أمام جهلة غوغائيين"[٥].

---

[١] أحمد رفيق عوض : آخر القرن ، ص٦٩-٧٠.

[٢] السابق: ص٧٠.

[٣] السابق: ص٧١.

[٤] المتوكل طه : المختلف (دراسات في عالم أحمد رفيق عوض الروائي والمسرحي)، منشورات اتحاد كتاب فلسطين، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، ص٥٨.

[٥] أحمد رفيق عوض : آخر القرن، ص١٤.

يقدم "محمود السلوادي" تقريره النهائي الذي يرفعه للقيادة مدعماً باقتراحات ونصائح مقدماً إلى دائرة المفاوضات، وهي قراءة متمعنة لشخصية الآخر تفيد في عملية التفاوض، فالإسرائيلي متشدد "وكلما تشدد كان أقرب للكسر، التشدد عادة ما يخفي تحته هشاشة ما، لا تخشى المفاوض العنيد أبداً ... لا تكثر من الضحك، كما لا تعبس أو تكشف عن أسنانك ... إياك أن "تحبه" ... إياك أن "يأكلك"، إياك أن "يضبعك" ... إياك أن ينزلق بك الحديث مع المفاوض الإسرائيلي إلى الحديث عن امتيازات تجارية أو مالية " (١).

وينهي "محمود السلوادي" نصائحه برأس الحكمة ومنتهاها وهي القوة " لا تفاوض الإسرائيلي إلّا وأنت قوي!! فالإسرائيلي يعبد القوة ويسعى إليها ويربط نفسه بمصدرها..." (٢).

بعد تقديم "محمود السلوادي" لتقريره يشعر باليأس ويستقيل من عمله في المفاوضات كما ويحدث خلاف بينه وبين المفاوضين زملاءهُ، ويطلب من أبي يزن العودة إلى فلسطين لأنه يشعر بعدم جدوى وجوده في المفاوضات، ويعود "محمود السلوادي"، "شاعراً بالهزيمة وقلة الحيلة " (٣).

والمفارقة العجيبة أن "محمود السلوادي" يصارح أبا يزن بأن سنين النضال قد أنسته نفسه وعائلته وأن الكثير ممن حوله يرتبون أمورهم بشكل منهجي ولهم مشاريع تجارية يقول: "أرى أنني لم أستطع حتى الآن شراء بيت خاص بي.. ولم أسع إلى توظيف شقيقي في إحدى أجهزة السلطة.. وابن أخي وابنته على أبواب التخرج ولم أعدها بوظيفة " (٤).

كان هذا ما دار في وجدان "محمود السلوادي" والذي يصور لنا واقع الفساد الذي عاشته السلطة في ذلك الوقت، وميل نفسه لأن يعمل مثل الذين يرتبون أمورهم، لكن " أحمد رفيق عوض " يسجل لبطله "محمود السلوادي" أنه لم يخضع لأي إغواء، ولكنه من جهة ثانية لم يقدم له البراءة المطلقة فقد بنى بيت جميل وساعد أخاه في بناء بيت متواضع، وهو في قرارة نفسه غير راضٍ عمّا يفعل.

وبعد... نستطيع أن نقول بعد هذا العرض أن شخصية المفاوض الفلسطيني "محمود السلوادي" قد جسدت العديد من المفارقات المتجذرة في مستويات الدلالة السردية، فهي بذاتها مفارقة حادّة للشخصية ويظهر ذلك من خلال زيارته التفاوضية إلى "تل أبيب" مع "حاييم شلومو".

---

(١) أحمد رفيق عوض : آخر القرن، ص٧٧.

(٢) السابق: ص٧٨.

(٣) السابق : ص١٨٨.

(٤) السابق: ص١٨٩.

يقول: " تجولت في الجامع المهجور وسمعت دعاء عشرات الآلاف من المصلين الذين أمّوه – يوما –، وسمعت هدير المتوسط، وسمعت أيضا صفارات سيارات الإسعاف القريبة، فقد فجّر شاب فلسطيني نفسه في محطة الباصات المركزية وسط "تل أبيب"، فإذا بالمدينة الحاذقة والمحكمة تنفقئ وتسيل على جوانبها الأحماض والكبريت والحديد، وأصبحنا في مصيدة حقيقية، وصاحت الحناجر في الأسواق والساحات العامة "الموت للعرب".(١)

ووسط هذه الجلبة تحدث المفارقة حيث إنه لا يستطيع أن ينزع نفسه من تاريخ امتد إلى مئات السنين إنه عربي يمت للانتحاري بصلات "وانتبهت إلى أنني عربي، أمت إلى الانتحاري بصلات وأنني قد أتحمل تبعات هذه الصلات، فخشيت على نفسي، ورغبت حقاً في الفرار بأسرع ما يمكن من مدينة تتوعدني بالموت " (٢).

كما ويُشكل فريقا التفاوض مفارقة أخرى قائمة على مبدأ الحق للأقوى "على كون الجانبين، أحدهما يمتلك قوة الواقع ويفتقر إلى الشرعية، في حين أن الآخر يمتلك الشرعية ويفتقد القوة، فإن التفاوض بينهما لا يفضي سوى إلى الفراغ"(٣).

كما وتشكل عائلة "محمود السلوادي" مفارقة غريبة من نوعها حيث جمعت شخصيات متباينة فهي عائلة فلسطينية تمثل الهمّ الاجتماعي على مدى قرن من الزمن، وهي تواكب الحركة السياسية وتعد شاهداً على الثورة والهزيمة معاً، فالأب عبد الرحمن قاتل في صفوف عز الدين القسام والابن "محمود" يعمل في ملف المفاوضات بخصوص اللاجئين بينما الابن "ماجد" يعمل في بناء المستوطنات فهو يقف على النقيض من أخيه المفاوض .

لقد ظهر تباين واضح في شخصيات عائلة السلوادي في جميع المستويات من حيث التفكير والطباع، فخالد الشقيق الأكبر "لمحمود" قتل أثناء اجتيازه لنهر الأردن بعد حرب الأيام الستة حيث أراد العودة إلى قريته سلواد أما سامية وهي الشقيقة الثانية لمحمود السلوادي فقد قتلت عام ١٩٧٦م مع زوجها جمال مسعود، وهو مخرب – في نظر الإسرائيلي – وقد كان مسئولاً عن عملية تفجير الفندق في تل أبيب عام ١٩٧٢. وقد قتل المخرب مع زوجته خلال اشتباك مسلح مع قوات الأمن بالقرب من الخليل .

---

(١) أحمد رفيق عوض : آخر القرن ، ص١٣.

(٢) السابق: ص١٤.

(٣) علي الخواجا: جوائز الفحم (دراسات في أعمال أحمد رفيق عوض) ، ط١ ،٢٠٠٣ ،مطبعة دار المنار، ص١٧٣.

وقد استخدم " أحمد رفيق عوض " تقنية سردية جديدة هي تقنية " الريبورتاج التلفزيوني"[1] ليظهر لنا من خلالها التناقض بين "ماجد" العامل في المستوطنات، و "محمود" أحد طواقم التفاوض الفلسطيني الإسرائيلي وهي قصة مثيرة تعكس التوترات والصراعات التي ترافق عملية صنع السلام كما وتبين عمق الهوة بين المفاوض الفلسطيني وواقع الفلسطينيين أنفسهم فكيف يغفل المفاوض الفلسطيني أنَّ أكثر من مائة ألف عامل يعملون داخل الخط الأخضر في بناء دولة الكيان ولم يوفر لهم عملاً بديلاً بل تركهم يعملون في المستوطنات ، إنها مفارقة عجيبة ، يتفاوض الفلسطيني على مساحة المستوطنات واليد الفلسطينية هي التي تبني وتعمر تلك المستوطنات.

لكن " ماجد السلوادي " لديه تبريره الخاص لعمله في المستوطنة فهي ستؤول له ولأبنائه ولو بعد حين ويبدأ الريبورتاج التلفزيوني بسؤال المذيع : " المذيع يسأله: هل يزعجك أنك تعمل في مستوطنة لليهود. ماجد يقول بما يشبه الصراخ: ستكون لي ولنسلي من بعدي.

المذيع: ومن أين لك هذا الإيمان؟

ماجد: ألا تفهم.. أنا ابن منطقة.

المذيع: ولكن شقيقك محمود..

ماجد يقول: دعني من أخي.. الإنسان يرى ما يريد"[2].

كما وتظهر مفارقة أخرى تظهر التناقض الواضح بين ما يؤمن به الإسرائيلي وبين ما هو واقعي فهم يؤمنون بأن العمل يجب أن يكون " عبري خالص " لكن الواقع مخالف ويأتي ذلك على لسان "البروفيسور يشعياهو بن موشيه" يقول: " الحقيقة أن العمل العبري الخالص الذي تكلم عنه جيل الرواد والمؤسسون الصهاينة كان أكذوبة كبرى، فقد تم الاعتماد على العامل العربي منذ العشرينات في تجفيف المستنقعات وشق الطرق... أما ما يعرض من أفلام قديمة تظهر فيها مجموعات يهودية من الشباب والشابات الأقوياء وهم يرفعون سارية أو يثبتون سياجاً فهو لا يعكس حقيقة الوضع، ويمكنني القول وأنا مرتاح الضمير أنه لولا العامل العربي الذي يعيش هنا ما كان لإسرائيل أن تصل إلى ما وصلت إليه"[3].

---

(1) "هو التحقيق الإذاعي الذي يستخدم في طرح العديد من القضايا ، والموضوعات ، والمشاكل التي تهم المواطنين، وتثير جدلاً بينهم بهدف التوصل إلى وضع حلول مناسبة لها، أو جذب انتباه المسئولين إليها ومحاولة البحث عنها" انظر: د. حسين أبو شنب، محاضرات في تخطيط البرامج للراديو والتلفزيون، جامعة الأقصى، غزة، ٢٠٠٢م، ص٢٦.

(2) أحمد رفيق عوض : آخر القرن ، ص١٢٠.

(3) السابق: ص١٢٤.

يظهر من خلال ما سبق المفارقة بين ما هو على أرض الواقع وبين المفترض أن يكون، وهي بذلك تطرح تساؤلات بعضها يمكن الإجابة عليه وبعضها الآخر لا إجابة له، فهي مفارقة ساخرة وفي ذات الوقت مبكية وحزينة.

لقد أظهر الخطاب الروائي تفوق المفاوض الإسرائيلي على المفاوض الفلسطيني بحضوره الفاعل حيث امتلاكه للقوة والمعلومة في ذات الوقت كما وأظهر تفوقه المسبق في اختياره الافتراضي لشخصية القيادات التقليدية المقبولة لديه حينما أوصى جهاز "الشين بيت" بالحكم علي " محمود السلوادي " بالسجن لمدة طويلة "إلّا أن القاضي العسكري حكم عليه بالسجن لمدة سنة واحدة معللاً ذلك بتدخل المستوى السياسي، الذي رغب في تلك الفترة أن يقوي من شأن القيادات المحلية، بعد التصدع الكبير الذي لحق بمنظمة التحرير الفلسطينية " [١].

لقد بالغت الباحثة " أحلام بشارات " عندما وصفت "محمود السلوادي" أنه صناعة إسرائيلية[٢] لأنها توحي بعمالة السلوادي وهو غير ذلك ، وبرغم احترامي لرأيها إلا أنه ليس صناعة إسرائيلية بالمعنى المفتوح غي أني أتوافق معها بأن المطبخ السياسي رغب في إظهار قيادات تنسجم مع مشروع السلام الذي ترتضيه إسرائيل وتكون هذه الشخصيات لها قبول في الشارع الفلسطيني كما وأنها تقف أمام بعض الأطروحات السياسية المعارضة لمشروعها.

فمحمود كما وصفه التقرير ليس له نقاط ضعف، ولم ينفع معه إثارة الإشاعات حوله وحول أمه "رقية"، فالمجتمع الفلسطيني ينظر إليه كبطل في أحيان كثيرة، وهو شخص " براغماتي " غير متطرف تتغير آراؤه بحسب الحال، فكان أكثر المتحمسين للمشروع السياسي الذي بدأ مع مؤتمر مدريد في نهاية عام ١٩٩١" [٣].

كل ذلك جعله شخصاً مقبولاً لدى الإسرائيلي للتفاوض معه فهو شخصية "سرعان ما تقبل بالتسويات لأنها تشكل لها طوق نجاة من المآزق والمعضلات" [٤].

وبعد... بقي أن نقول أن شخصية "محمود السلوادي" محكوم عليها بالفشل خصوصاً بأنه غير منسجم مع طاقمه التفاوضي عكس الإسرائيلي المنسجم رغم اختلافه فهو متكون من اتجاه يساري واتجاه يميني.

---

[١] أحمد رفيق عوض : آخر القرن ، ص٢٩.

[٢] أحلام بشارات : البطل في الرواية الفلسطينية –رسالة ماجستير– جامعة النجاح، ٢٠٠٥م، ص٦١.

[٣] السابق: ص٣٨.

[٤] السابق: ص٣٩.

ينسحب محمود من المفاوضات، بدعوى عدم جدواها داعياً لوقفها وأن الحل لا يكون إلّا بالقوة لأنها رأس الحكمة، كما ويظهر على "محمود" الملل والفتور والنفس القصير، وتلهيه ملذات الحياة ناظراً لمن "رتب وضعه" وبنى بيتاً واشترى سيارة ممن يعرفون بـ "أثرياء الثورات" يقول : " اكتشفتُ أن كثيراً من حولي يرتبون أمورهم بشكل منهجي أرى مشاريع تجارية وخدماتية أرى تكوين جمعيات ومنظمات موازية ، أرى استغلال مناصب " (١).

ويذهب محمود للعمل في إحدى مؤسسات السلطة، ويصادف فيها "نهى سليمان" وهي موظفة في تلك المؤسسة بيدها كل خيوط العمل وهي جميلة ومتشعبة ذات علاقات مشبوهة وسرقات نوعية وكبيرة تصل إلى درجة تضليل قيادات في السلطة وشخصيات أوروبية ذات نفوذ لدى السلطة الفلسطينية، وتحاول إغراء محمود بكل الوسائل على التوقيع على مشروع ما ليكتمل مسلسل السرقات ، ولكن يسجل " أحمد رفيق عوض " براءة غير تامة لمحمود فهو لم يخضع لإغوائها، ولكنه وفي المقابل يظهر التناقض الغريب في شخصية وعقلية محمود "البراغماتية" المتحولة حيث يسعى لاستغلال نضالات والده لتقوية مركزه داخل الحركة، فيسعى لإحضار وثيقة لأبيه باعتباره شيخ المقاتلين القدامى وأنه الآن عقيد فخري ، ويأتي ذلك على لسان الراوي العارف بتفاصيل كل شيء وبخبايا النفوس يقول :

" ما فعله محمود لأبيه كان من أجل تدعيم مركزه داخل الحركة، التي تشهد اجتهادات مختلفة، الأمر الذي انعكس في الرؤية والتطبيق، وقد عرف محمود أن الأساليب القديمة لم تعد تفيد في الوضع الجديد، وعرف أن مرحلة التحول من ثورة إلى جهاز حكومي تعني تبديل الأسلوب والعقلية معاً " (٢).

ومن مفارقات شخصية "محمود" أنه بعد رفض عرض نهى له وتركها للعمل في المؤسسة الحكومية تكوّن شركة بعلاقتها الأخطبوطية المشبوهة بجهات أمريكية وإسرائيلية، فيغادر محمود المؤسسة الحكومية بدعوى الفساد المستشري فيها ليلحق بشركات نهى التي أصبحت تضاهي مؤسسات السلطة الفلسطينية، فهو ينتقل من فساد إلى فساد آخر .

هذا التناقض الواضح في شخصية السلوادي يجعله يعيش في صراع شديد مع ذاته التي انفصل عنها رغم تحقيقه لأحلامه مثل باقي المنتفعين ؛ فلا يجد محمود ملجأ له سوى والدته "رقية"

---

(١) أحمد رفيق عوض: آخر القرن ، ص١٨٩.

(٢) السابق: ص١٥٥.

ليبكي بين يديها: "دخل محمود السلوادي غرفة أمه رقية... ألقى برأسه على كتفها ورغب في البكاء قالت له وهي تعبث بسبحتها الطويلة والكبيرة: مالك.

قال: تعبان.. أنا تعبان.. ولا أعرف إلى أين تقودني الأحداث.

قالت: ولكنك اشتريت أخيراً البيت الذي كنت تحلم به في رام الله.

ورغم هذا، فأنا تعبان.. وزائغ.. ماذا أفعل يا أمي؟" [١].

وبعد تتبع المصير الذي آل إليه هذا المناضل الفلسطيني علمنا علم اليقين " أن ذلك يُعدّ مؤشراً على تقهقر العمل السياسي الفلسطيني في الفترة التي شهدت توقف الانتفاضة الأولى والدخول في التسوية من خلال اتفاق أوسلو.

وحقيقةً فقد دخل الشعب الفلسطيني في نفق المفاوضات التي لم تقدم أي جوانب إيجابية للقضية الفلسطينية، وعلى العكس من ذلك فقد قضم الاحتلال مزيداً من الأراضي وأقام مستوطنات جديدة وطرق التفافية مزقت الوطن الفلسطيني وجعلت من القرى والمدن الفلسطينية جزراً معزولة عن بعضها البعض"[٢].

وذلك يعطي صورة واقعية وواضحة لتلك المرحلة من حياة الشعب الفلسطيني ،ورغم كل تلك السلبيات والمفارقات الكثيرة إلّا أنها تجلي لنا الحقيقة بمرارتها دون مجاملة .

---

[١] أحمد رفيق عوض: آخر القرن ، ص٢٤١.

[٢] علي الخواجا: جوائز الفحم، ص١٦٥.

٢- شخصية الضابط الفاسد :

رواية العذراء والقرية

أبو فيصل

يقدم لنا الراوي العليم شخصية أبي فيصل على أنه قائد المخفر، وقد شكلت شخصيته رمزاً للسلطة الحاكمة والمهيمنة ؛ فهو قائد مخفر شرطة يعبد كما ويمثل السلطة السياسية الحاكمة في ذلك الوقت، وهي سلطة الحكم الأردني بعد نكبة عام ١٩٤٨م، وهو صاحب مكانة عظيمة، وله علاقات واسعة وصلاحيات مطلقة جعلت منه حاكماً وقاضياً وجلاداً في آن واحد ، ويحدثنا الراوي العليم عن شخصية أبي فيصل يقول : "مثلوا جميعاً أمام أبي فيصل المسؤول الأكبر ضرب هذا على جانبي بطنه العريضة وقال: وأنتم أهل الخليل مشاغبون.

وأدخل الجميع إلى غرفة ضيقة وأطلق عليهم أفراداً بأيديهم سياط مجدولة، وظلت تلك السياط تلعلع على أجسادهم بألسنة طوال، فاحتضنوا بعضهم البعض ليتحاشوا لسع السياط، ولما خرجوا قابلهم أبو فيصل مرة أخرى وقال لهم، وهو يضرب على جانبي بطنه العريض: وإذا عدتم عدنا"(١).

لقد أظهر لنا الخطاب الروائي شخصية أبي فيصل متجبرة وقاسية لها مهابة وخوف فالكل يحسب له ألف حساب حتى بعد ضربه لبعض المواطنين يذهب إلى ديوانهم ويستقبلوه استقبال الضيف الكريم وليس الجلاد اللئيم يقول الراوي: "وأخيراً قدم أبو فيصل مع ثلة من ضباط المخفر، فقام الديوان كله يرحب، وجلس أبو فيصل في الوسط"(٢).

ويصف لنا الراوي الشكل الخارجي لأبي فيصل ، والذي لا يتناسب مع هيبته ليعطينا صورة كاملة عن ذلك الرجل يقول: "كان مضحكاً ببطنه العريض وشاربه الكث وعينيه الجاحظتين الواسعتين، ولكنه يحكم البلد"(٣).

هذا الوصف يتناسب مع استصغار بعض الناس له، ولكنه رغم سخافة شكله إلّا أنه يحكم البلد بقوة.

وقد أدخلانا الراوي العليم لمناطق لا يستطيع أحد أن يدخلها غيره إنه عالم أبي فيصل الداخلي حيث إنه كان "عنيناً"(١) أي يعاني من العجز الجنسي ؛ فهو لم يدخل عالم النساء منذ

---

(١) أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية ، اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة والقطاع ، ط١ –القدس– ١٩٩٢م، ص١٢.

(٢) السابق : ص٣٤.

(٣) السابق: ص٩١.

زمن بعيد، ويظهر ذلك من خلال حديث النفس "المونولوج الداخلي" عندما أمسك بيد رسمية في أول لقاء لهما في بيت رسمية "وقال أبو فيصل لنفسه هل يمكن أن يعود إلى العالم المحرم عليه منذ زمن على يد هذه الأنثى الكريمة، وهل يمكن للجسد أن يستيقظ كما تستيقظ الشهوات"(٢).

لقد أعلن السارد منذ بداية الرواية حقه في التدخل في مجريات الأحداث وبذلك يكون عارفاً بمجريات الأمور لا يخفى عليه شيء، ولقد أدخلنا إلى مناطق محرمة ، وغاية في السرية، وبذلك يكون السارد قد احتلّ مكاناً واضحاً في الرواية من خلال عملية السرد.

وتتلخص مهمة أبي فيصل التي أوكلت له بحفظ الأمن والدفاع عن البلاد ولكنه استغلّ نفوذه وسلطانه للثراء الفاحش غير المشروع من خلال سرقة تموين المخفر ، ومخصصات الجنود، وتخزينها عند السائس " غندور" بمساعدة بعض الضباط الفاسدين أمثاله، ثم يبيعها " لسليمان الهراوات " وعندما اكتشف بعض الموظفين حقيقة ذلك قام أبو فيصل بنقل بعضهم مباشرة إلى أماكن أخرى وهذا ما حدث بالفعل مع "خالد " زوج رسمية حينما استغل غضب الأهالي منه بسبب شدته الزائدة في قمعه لإحدى المظاهرات فسعى لنقله ويخبرنا الراوي العليم عما في نفس أبي فيصل في تلك اللحظة : " فقد كان لا يرغب في أن يفتح المسؤولون ملفه ويسألوه عن التجاوزات الوظيفية التي تحصل في مخفره ، كل ما هنالك أنه ينفذ الأوامر ويتحرك بالحدود التي يستطيع التحرك بها ، ونقل خالد إلى القلم السياسي معناه أشياء كثيرة المستفيد الوحيد فيها هو أبو فيصل"(٣).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل سعى أبو فيصل للثراء أكثر وبأشكال أشد قذارة فهو لا يمانع أن يهرب البضائع لليهود، وأن ينقل لهم بعض الأخبار من خلال المنطقة الحدودية في (الخلجان) بالتعاون مع الإقطاعي " سليمان الهراوات " مستغلاً بذلك حاجة الناس للأموال ويشغّلهم لصالحه في التهريب، فقد كان يهرب لليهود البضائع والرسائل المختومة بالشمع الأحمر حتى لا يفتحها أحد المهربين وهناك جانباً آخر لفساد أبي فيصل كشف عنه الخطاب الروائي ويتمثل في مساعدة المسؤولين في الانتخابات النيابية ويدعم مرشحهم "مازن ص" ولكنه يرسب رسوباً مريعاً خلافاً لكل توقع لكن "مازن ص" كان فرحاً لا يبدو عليه أي تأثر ، ويؤكد بأن ما حدث لا يشكل

---

(١) رَجُلٌ عِنِّين:إذا كان لا يأتي النِّساءَ ، انظر أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي : معجم ديوان الأدب ، تحقيق: أحمد مختار عمر ،مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس ،مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة ،٢٠٠٣، ٥٧/٣ .

(٢) أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية، ص٩٢.

(٣) السابق: ص٩٣.

عقبة لدخول البرلمان، وتندلع المظاهرات مدعومة من الأعضاء الجدد لكن أبا فيصل لها بالمرصاد فيرسل التعزيزات لقمع تلك المظاهرات الداعية للإصلاح[١].

لقد مثل أبو فيصل القوة الضاربة لمؤسسة الفساد بكافة أشكالها وأسمائها فهو سيف مسلط على رقاب الناس يعاقب كل من تسول له نفسه أن ثور على الفساد .

كما و يكشف الخطاب الروائي عن عيوب شخصية ضابط الشرطة المتمثلة في أبي فيصل وهي لم تقف عند الفساد والسرقة من المخفر والتهريب لليهود بل وصلت إلى إهمال كبير في توفير الحماية والأمن لسكان القرية الآمنين من اليهود المعتدين ؛ فقد دخلوا قرية يعبد ليلاً عدة مرات دون أن يواجهوا أي عقبات أو صعوبات فلم يكن هناك حراسة أو مقاومة مما أدى إلى استياء الأهالي من ذلك الوضع المزري حتى " وصل الأمر بخطيب الجامع إلى أن يصرخ بأعلى صوته أنه آن الأوان لحماية العرض والأرض وأن من العار أن نترك اليهود يحتلون يعبد بالليل بينما رجالها في أحضان النساء" [٢].

وكما كان أبو فيصل خائن لوطنه وعمله وشعبه فقد خان صديقه "سليمان الهراوات" في علاقته مع "رسمية" زوجة ابنه خالد الذي يعمل في نفس المخفر مع أبي فيصل فليس هناك خطوط حمراء للعملاء فكل شيء عندهم مباح والخيانة متأصلة في شخصيتهم .

يذهب أبو فيصل لكي يطمئن على خالد زوج " رسمية " بحجة السؤال عنه ويطرق الباب وتفتح له رسمية ويتبعها أبو فيصل وهو يتأمل جسدها وتدخل لتوقظ زوجها فوجدته نائماً فلم تشأ إيقاظه وأخذت تتجاذب الحديث مع أبي فيصل فهي خائنة مثله " انّحنى نحو الكف البض وقبله قبلة طويلة رقيقة صامتة، فسمعت رسمية صوت الدماء تركض في شرايينها، الشارب العظيم وحاكم البلد يركع في حضنها، وأنها تخون زوجها لأول مرة. رفع أبو فيصل رأسه، نظر إليها نظرة ممتنة وقال ببطء: أنا خادمك منذ اليوم " [٣].

وتستمر العلاقة بينهما فأبو فيصل رجل مغامر يحب الخطر ويرتكب الشر، ولكن رسمية تكتشف أنه عاجز عن أن يكون رجلاً عادياً، ولكنها لسبب ما تشفق عليه بل ساعدته كثيراً على تجاوز تلك اللحظة، ويصر أبو فيصل على ممارسة الخطر مع امرأة خطرة متزوجة من رجل عنين.

---

[١] أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية، ص٨٩-٩٠.

[٢] السابق: ص١٦٥.

[٣] السابق: ص٩٢.

ويعلم أبو فيصل أنه يمضي في طريق خطر نهايته الموت ، ورغم ذلك يصر على استمراره ، وقد وضعنا الراوي أمام تلك النهاية المتوقعة لأبي فيصل أثناء حديثه مع نفسه فيلجأ الراوي إلى تقنية الاستباق الزمني للأحداث، يقول أبو فيصل محدثاً نفسه : "وفي النهاية لن أخسر شيئاً إطلاقاً، كل ما هناك أن أوجه مسدسي إلى صدغي وأطلق، ما أتفه هذه الخسارة، وما أتفه هذه الحياة، أعيش على حافة البركان ثم أقفز فيه " (١).

لقد هيّأ الكاتب القارئ نفسياً لتلك النهاية التي رسمها الكاتب لأبي فيصل، وتتوالى لقاءات أبو فيصل مع رسمية ليضعها معه في نفس النهاية المتوقعة والمرتقبة له.

وتتعرف رسمية على فريحة صاحبة البيت الذي تلتقي فيه رسمية وأبو فيصل وهو بيت غندور سائس في المخفر عند أبي فيصل الذي تحولّ إلى قواد مهمته توفير النساء والمكان لسيده وتخبر فريحة رسمية بأن أبا فيصل عنين لا ينفع للنساء : " ألم أقل لك أن أبا فيصل سيكون مثل الأخ... سنرى بعضنا البعض يا حبيبتي فحاولي أن تتصادقي معي"(٢).

لقد جعل الكاتب من غندور السائس خادماً لأهواء أبي فيصل فهو الذي يبيع له المؤن المسروقة من مخفر الشرطة ويعمل له في نفس الوقت قواداً جعل بيته ماخوراً لأبي فيصل.

وتتعمق علاقة أبي فيصل مع رسمية لدرجة أنها تدفعه للجنون، وهي تجعله أيضاً يرى أفعاله القبيحة ، يقول أبو فيصل: "كيف أقول لهذه المرأة التي تجعلني أرى أفعالي القبيحة، إنها امرأة أزني بها فيزداد قرفي من لحمي ودنياي ، ولكني أحبها، الحب هذا هو أكبر حقيقة أعيشها، لماذا جاء هذا الحب متأخراً؟ لماذا جاء وأنا أقذر خلق الله على الأرض؟ كيف لجاسوس أن يتطهر؟ وكيف للحب أن يطهّره " (٣).

ويحاول أن يوجد لنفسه مبرراً لكل أفعاله ، وأن الظروف هي التي أجبرته لأن يصبح عميلاً خائناً لوطنه ، وسارقاً ، ويأتي ذلك من خلال المونولوج الداخلي " أصبحت قذراً لأن الناس قذرون، كلام جميل لا يتعب، لا، أصبحت قذراً لأن الظرف أجبرني، كلام أحلى يجعلني ضحية ودمية، أصبحت قذراً لأن روحي قذرة لا تعيش إلّا في القذارة، هذا أحلى بكثير، أنا قذر لأني قذر وكفى" (٤).

---

(١) أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية، ص١٢٨.

(٢) السابق: ص١٣٢.

(٣) السابق: ص١٧١.

(٤) السابق: ص١٧٢.

نلاحظ أن الكاتب قد أكثر من استخدم تقنية المونولوج الداخلي أو الحوار الذاتي وهي تقنية حديثة تستخدم للكشف عن المكونات النفسية للشخصيات ،والتعرف على مشاعرها ووجدانها كما تمكن الكاتب من تعرية أعماق الشخصية وإبراز أحاديثها الصامتة .

لقد جعل حب أبي فيصل لرسمية ضميره يصحو ولكن الصحوة جاءت متأخرة جداً حيث إن أبا فيصل كان غارقاً في وحل العمالة والسرقة ودماء المواطنين، وكان الدافع لتلك الصحوة هو كره رسمية للذين يتعاملون مع اليهود وأنه قد يفقدها إذا صارحها أو عرفت الحقيقة، وبذلك يكون الكاتب قد تماهى مع الواقع حيث إن التنظيمات تقبل توبة العميل ما لم يقترف دماً، فكيف بمن أوغلت يداه في دماء كثير من المواطنين فشخصية أبي فيصل لا تترك للقارئ أن يتعاطف معها أو يساندها، وقد حكم أبو فيصل على نفسه بتلك النهاية وكأنه يعلم بأن توبته أصبحت مستحيلة لأفعاله وأنه لا مخرج من ذلك الوحل سوى الموت وبطريقة غير مشرفة حيث يموت منتحراً بعد أن ضبطه خالد مع زوجته رسمية بتخطيط انتقامي من "غندور السائس" الذي أراد أن ينتقم من الجميع.

لقد أصدر الكاتب حكماً صارماً على شخصية أبي فيصل ومن شابهها في كل زمان وهي أنّ الطغاة لا بد منهارون وأن نهاياتهم ستكون غير مشرفة كما أن شخصية الضابط الفاسد بأي شكل من أشكال الفساد هي شخصية واقعية وحقيقية ليست بسماتها الشخصية بل بأفعالها وأقوالها، فهي موجودة في كل نظام مستبد قامع للحريات.

٣- شخصية المرأة البغي

رسمية رمز الشهوة :

وهي من الشخصيات المحورية في رواية (العذراء والقرية)، التي تمحورت البطولة حولها، وتتميز شخصية "رسمية" بالتقاء معظم الشخصيات عندها فهي محور رئيس في الرواية حيث يدور حولها معظم الشخصيات وخصوصاً الشخصيات الفاسدة أمثال زوجها العنين " خالد " الذي يعمل في القلم السياسي لقمع المظاهرات الشعبية " وأبي فيصل " عشيقها وقائد المخفر ذلك العميل الفاسد المتسلط على رقاب المواطنين وحموها " سليمان الهراوات " العميل المرابي الذي يستغل فاقة وحاجة الناس ويبيعهم ديناً بالفائدة ، وأخو زوجها ذلك الشاذ اللوطي وصديقتها " فريحة " التي تهيئ بيتها للقاء أبي فيصل معها " وغندور " السائس القواد الذي جعل من بيته ماخوراً لملذات أبي فيصل.

"لقد اتصلت هذه العذراء بالمقلوب مع أقطاب الفساد... ولعبت بينهم دور الضحية والجلاد معاً، ثم دور الضحّية الرئيسية في النهاية... فهي شخصية مركبة ذات أبعاد عديدة. فقد كانت سوطاً على أرباب الفساد حين تعلق الأمر بأهلها أهل الخلجان" (١).

يضعنا الكاتب من خلال الراوي العليم والذي يظهر بقوة في معظم حلقات السرد في الرواية أمام شخصية رسمية مباشرة، حيث يظهرها لنا من بداية السرد على أنها ذات علاقات مشبوهة فهي تلتقي مع رعاة القيسية وراء صخور سنام الجمل يقول الراوي العليم "وقد قالت رسمية بنت صبري لصديقتها أن رعاة القيسية يتميزون بالجهامة والخشونة وقلة الذوق، فردت الصديقة عليها بأنه إذا كان ذلك صحيحاً فلماذا اختفت بعد العصر وراء صخور سنام الجمل " (٢).

كما ويظهرها الخطاب لنا أنها شبقه ذات شهوة عارمة حيث نظرت إلى المصارعين وكان أبرزهم سالم "ولما تمزق قميصه في إحدى المسابقات ظهر صدره المغطى بالشعر القصير الخشن، خفق قلب رسمية واشتهت سالم، ولم تمض عدة أيام حتى استطاعا أن يختليا " (٣).

إنَّ أحداً لا يستطيع أن يقف أمام سطوة شهوة رسمية العارمة فهي عندما أعجبت بسالم لم تمض أيام حتى نالت منه، قلنا نالت منه لأن لها غرضاً آخر غير الجنس تريده من وراء تلك اللقاءات مع الرجال، فهي تود إذلالهم كما يظهر لنا الخطاب وهي تشعر بسطوتها وقوتها كامرأة ويظهر ذلك في نفس لقائها مع سالم فحين التقيا وأظهرت له جمالها فقال لها أنها أجمل فتاة في فلسطين وظهر عليه علامات الخوف والرجفة الشديدة وأنفاسه المتقطعة " فشعرت بسطوتها الشديدة، كان هذا المصارع الشديد لا يستطيع أن يضبط نفسه أمامها، فوقر في نفسها أن الرجال ليسوا كما يبدون في الظاهر، وأنهم ضعفاء متهافتون، فضحكت " (٤).

إنّ أحلام رسمية ليست كأحلام أي فتاة ريفية بأن تتزوج ابن الحلال وتتستر في بيت الزوجية، فهذا الأمر لا يعني لها شيئاً ، وهذا ما أكد عليها الخطاب حين تساءلت أمها وهي ترى ملامح الأنوثة قد غمرتها ومن سيساعدها بعد زواجها ورسمية لا تلقى بالاً لحديثها؟؟
"ولما رأتها أمها قالت لها: لا أعرف من سيساعدني في البيت عندما تتزوجين، لم يدق قلبها لأول مرة عند سماعها كلمة الزواج"(٥).

---

(١) صحبي شحرور : العذراء والقرية بين الإكراهات الواقعية والاستعانة بالسحري والغرائبي، مقاربات نقدية، ص٢١.
(٢) أحمد رفيق عوض: العذراء والقرية، ص١٥.
(٣) السابق: ص١٦.
(٤) السابق: ص١٦.
(٥) السابق: ص١٦.

إن رسمية لها أحلامها الخاصة بها فهي لا تحلم بفارس الأحلام الذي يأتي ويطلبها من أبيها كما هو حال كل البنات ، وحينما تقوم بعلاقة تكون تلك العلاقة بها شذوذ عن الواقع فسالم متزوج فما هو نهاية تلك العلاقة المرتكزة أساساً على الجنس الشبق لا غير...

كما ويشير الكاتب إلى أن رسمية هي أجمل بنات الخلجان ورغم ذلك لا ينتبه لها أحد ، وهذا قد أدى لاحتقارها لأهل الخلجان لأنهم لا يلقون بالاً لجمالها، ولقد سُرَّت حين جاء الفرسان الجدد وقال أحدهم: " انظر إلى تلك الحمامة البيضاء"(١).

فقد استمتعت رسمية بنظرات الغرباء إلى جسدها الملفوف قائلة بأنها لوت أعناق الفرسان الذين يحملون البنادق وهم ينظرون لها، وبذلك تظهر ملامح شخصيتها السادية منذ بداية السرد فهي تستمتع بعذابات الآخرين... وهي لم تر تلك النظرات في عيون أهل بلدها ؛ فهي في نظرهم معتوهة رغم محاولاتها العديدة للفت نظرهم بإظهار شعرها من تحت المنديل أو لبس زنار يظهر دقة خصرها واستدارة ردفيها فلم تجد رغم ذلك سوى تعليقات العجائز اللاذعة، لأنها تحاول أن تظهر جمالها بطريقة لم تعهدها بنات الريف لذلك علقت عليها سلمى حينما رأت نفسها أحسن من رسمية "لأن رسمية تتعمد أن تقول للناس أنها جميلة بطريقة تخجل العذارى منها"(٢).

كما أن تصرفاتها غريبة تثير الدهشة فهي لم تلب دعوة بنت محمد الزهراني في حضور عرسها بل تجلس بعيداً عن الضجيج وتتثاقل في الذهاب وتجلس تحت البطمة تستمع للزجل وتشعر برغبتها العارمة في أن يلمس جسدها شيء ما، فتعرت مرة واحدة وأحست بلمس الأوراق والأغصان لجسدها. (٣)

وفي تلك اللحظة يراها " خالد بن سليمان الهراوات " ويذهل لهذا المنظر ويسألها عن اسمها بتوسل ورجاء راغباً الزواج منها.

لقد وقع " خالد الهراوات " أسيراً لهذا الجسد العاري، ويتم بعدها خطبة رسمية إلى " خالد الهراوات "وفي عصر بارد جاء سليمان الهراوات وابنه خالد مع رهط آخر، وحلوا ضيوفاً على صايل وفوجئ الجميع لسماعهم سليمان نفسه يطلب رسمية بنت صبري زوجة لابنه خالد"(٤).

وبعد زواج رسمية بخالد الهراوات تكتشف رسمية منذ ليلتها الأولى أن زوجها يعاني من عجز جنسي فهو " عنين " كما أنه مريض بمرض غريب ؛ فهو يطلب منها أن تضربه ويكرر

---

(١) أحمد رفيق عوض: العذراء والقرية ، ص١٥.

(٢) السابق : ص٢٠.

(٣) السابق: ص٢٢.

(٤) السابق: ص٢٥.

الطلب منها مراراً " اقتربت منه وقد أغاظها، ألا يريد أحد أن يعترف بهذا الجسد الفذ؟.. وبقوة اكتسبتها من الخلجان هوت بكفها على صدغه، قالت لنفسها سيغضب بعد قليل ويمزق ثيابها، ولكنه كان في عالم آخر... وأخذ يقول اضربي.. اضربي.. أقول لك اضربي... استمرت بضرب هذا الزوج بحقد عنيف"[١].

وبذلك تكون شخصية رسمية قد تطورت نحو السقوط في الهاوية المرتقبة وقد ساهم " سليمان الهراوات " في ذلك، هذا الرجل المهاب صاحب النفوذ والسلطان "عاد إلى البيت بعد منتصف الليل فرأى غرفة ابنه خالد مضاءة وظلالاً تتحرك وراء الشباك، انبثق الجسد الفذ في خاطره، طرد الصورة بسرعة... وقد عانى هذا الشعور، فكان لا يتحدث معها وعيناه في عينيها، وكان يترك المكان إذا خلا بها... وعرفت رسمية ما يلم بعمها الجديد، فلم يعد في نفسها خوف من رجل أو احترام واكتملت في دخيلتها عناصر الثقة والقوة، فحكمت بيت زوجها كله"[٢].

فأصبح الجميع تحت إمرتها وقد منعت أم زوجها من التدخل في إعداد مائدة الإفطار في رمضان أو ترتيب البيت أو في طلب المصروف... أما أخوات زوجها المراهقات فقد جعلتهن يعبدونها، ولم يرفضن سيطرتها وسطوتها"[٣].

وعندما جاء إليها أبوها يشكو الفاقة والعوز قدمت له المال الكثير والدجاج والدقيق والسمن وكيلو تبغ من تبغ سليمان نفسه ليدخنه ولم يحتج أحد ، ولم يجسر أحد على الكلام فقد أصبحت سيدة البيت بلا منازع .

وتزداد قسوة رسمية وعنفها عندما شعرت رسمية تذمر حماتها من عدم إنجابها صارحت الحماة بما يعاني منه زوجها لكن الحماة لم تقبل ذلك " فذهب الجميع لطبيب مشهور في نابلس، وظهرت النتيجة قاطعة، إن خالد لا ينجب إطلاقاً، وأن الزوجة لا عيب فيها، وقع الخبر ثقيلاً على الجميع، ولم تغضب رسمية، ولكن سلوكها اتسم بعد ذلك بالقسوة والعنف، وزادت من تسلطها على الجميع، ولم تتورع بالتحرش بسليمان نفسه"[٤].

لقد بسطت رسمية سيطرتها على عائلة الإقطاعي الذي يرهبه أهل الخلجان تماماً، لكن ذلك لم يرض غرورها ولم يكبح جماح شهوتها العارمة فكثيراً ما كانت تتعرى أمام المرآة وتدغدغ

---

[١] أحمد رفيق عوض: العذراء والقرية، ص٣٥.

[٢] السابق: ص٤١.

[٣] السابق: ص٤١.

[٤] السابق: ص٨٤.

جسدها وحدها لكي تستعيض بعضاً من عجز زوجها ولكن ذلك لم يسعدها " لم تكن سعيدة بعد الانتهاء من ذلك، فقد كانت تبكي وتشد شعرها، ولكن الفراغ وجفاف الأيام كانا يدفعانها إلى ذلك"[١].

إن رسمية تعيش تناقضاً واضحاً فهي تشعر بالقوة والضعف في ذات الحين، فهي قوية في بيت زوجها ولها سطوتها وقوتها على الجميع ، وفي المقابل هي ضعيفة أمام جسدها المتفجر ومتطلباته لذلك تقع سريعاً أمام نظرات أبو فيصل حينما جاء لبيتها لكي يطمئن على زوجها المصاب إثر تفريقه للمظاهرات، وتخون زوجها لأول مرة " حاكم البلد يركع في حضنها، وإنها تخون زوجها لأول مرة " [٢].

إن الخطاب الروائي يمهد الطريق سريعاً لرسمية من أجل السقوط في الهاوية التي رسمها الكاتب لها مسبقاً في خياله، كما ويحاول الكاتب أن يلتمس لها العذر عن أفعالها وخيانتها لزوجها وأهلها لأن زوجها خالد يعاني من أمراض نفسية تمنعه من القيام بواجباته الزوجية ، وكان ذلك دافعاً قوياً لإقامة علاقة غرامية مع " أبي فيصل " قائد المخفر ليخفف عنها شيئاً مما تعانيه .

وتقبل رسمية على لقاء قطب من أقطاب الفساد إنه " أبو فيصل " لتكتمل به دائرة اتصال رسمية بأقطاب الفساد السابقة الذكر، وتلتقي مع " أبي فيصل " في بيت فريحة زوجة " غندور" السائس الذي كان يوفر الخلوة لأبي فيصل في بيته، وللحظة يدور حديث نفسي داخل رسمية يختلط فيه حديثها مع حديث الراوي العليم "كيف جاءت إلى هنا دون أن تحسب حساباً للعواقب أو النتائج، كيف سمحت بأن يطلع على سرها أكثر من شخص واحد ، يا الله، كيف نرتكب الحمق ، وأي حمق أرتكب ، لا زوج لي، لا أهل أقوياء، لا شخص أنتمي إليه أي حمق هذا " [٣].

ورغم تأنيب الضمير وصحوته للحظة إلّا أنها توجد لنفسها المبرر تقول بأن "جسدها وحده يحكم كل شيء إذن لأجرب جسدي " [٤].

لكن رسمية تتفاجأ بأبي فيصل منذ لقاءه الأول لها حيث ركع أمامها وقبّل أطراف ثوبها وقال لها: " أيتها السيدة العظيمة، أنا عبدك، إنّ مجرد مجيئك إلى هنا هو منّة كبيرة أشكرك عليها... وارتمى على الأرض، وجعل رأسه تحت قدميها...، قال: هيا انزلي عن السرير، ومرغي نعلك في جبهتي" .

---

[١] أحمد رفيق عوض: العذراء والقرية ، ص٨٥.

[٢] السابق : ص٩٢.

[٣] السابق : ص١٣١.

[٤] السابق: ص١٣١.

وكانت المفاجأة الثانية أنّ أبا فيصل لا يختلف عن زوجها كثيراً فهو عاجز أن يكون رجلاً، ولكنها لسبب ما أشفقت عليه وتنجح فيما بعد بإرجاع الرجولة لأبي فيصل، وتتكرر اللقاءات بين أبي فيصل وبين رسمية وفي خضم تلك اللقاءات تعلم رسمية من زوجها " خالد " بأن أبا فيصل يهرّب لليهود ويتعامل معهم وتتفاجأ من هول الخبر والعجيب أنّها غير مهتمة بتعامله مع اليهود وأنه قذر لكنّها تغضب لأنه أخفى عليها الخبر وأنّها مخدوعة ثم تحدث نفسها " لماذا تغضبين من أبي فيصل الرجل المخادع وأنت مخادعة، هو يسبب لك الضيق وأنت تسببين الضيق لغيرك... أنت لست أفضل من أبي فيصل، لست أفضل من أي أحد... ماذا يهمني حقاً إذا كان أبو فيصل جاسوساً... أنا الأخرى أمارس قذارتي، لماذا أحزن عندما أرى الآخرين يخطئون، أنا حزينة حقاً، مخدوعة حقاً، ولكن ليكن ما يكون، فأنا مستعدة لكل احتمال..." [١].

لقد ساوى الخطاب الروائي بين خطيئة المتعامل مع اليهود الذي يبيع كرامته ودينه ويرسل الأخبار لليهود وبين التي تبيع جسدها لغير زوجها فكلاهما بائع ، ولكن رسمية تبيع دون ثمن والعميل يقبض ثمن عمالته أما رسمية فإنها تستمتع بخيانتها لزوجها وأهلها وهي تصرح بذلك من خلال كشفها لما يدور في خلدها تقول: " أنا مثل فريحة الزانية، فريحة فتحت بيتها مبغى وقبضت الثمن، أنا زانية بدون ثمن، لا شرف لمن يزني بثمن، ولا شرف لمن يزني بدون ثمن"[٢].

بدأ يصحو ضمير رسمية، ولكنها سرعان ما توجد مبرراً للقائها لأبي فيصل وتحاول أن تقنع نفسها أنها ستكون المرة الأخيرة لذهابها لبيت فريحة فسوف تطلب من " أبي فيصل " أن يفرج عن أبيها وعمها وشابين آخرين اعتقلهما زوجها خالد الذي قال لها أنه هذه المرة ليست كسابقتها فالأمر بيد أبي فيصل ونلاحظ أن رسمية تقع في حيرة من أمرها ويظهر ذلك من خلال تقنية المونولوج الداخلي التي أكثر الكاتب منها مما يوحي بتأزم شخصياته " هل ستذهبين إلى الرجل الكاذب الذي يشترك في ذبح أهلك، هل ستذهبين إلى رجل يكشف عن جسدك ويذبح أهلك، كيف تفعلين هذا... عليك أن تذهبي وتأمري هذا الكلب أن يفرج عن أهلك... يجب أن تذهبي مرة واحدة وأخيرة ثم لن تذهبي إلى الأبد... اذهبي واكشفي جسدك للرجل الكاذب، لن تذهبي بعد ذلك، اقسمي على هذا، اقسمي أنك لن تذهبي مرة أخيرة، مرة أخيرة يا رسمية"[٣].

---

[١] أحمد رفيق عوض: العذراء والقرية، ص٢٢٠.

[٢] السابق: ص٢٢٠.

[٣] السابق: ص٢٣٦.

وتقنع رسمية نفسها مبررةً ذهابها هذه المرة بغاية نبيلة هي الإفراج عن أهلها، و لا تعلم أن غندور السايس زوج فريحة قد نصب لها مصيدة، حيث دبر لقاء لأبي فيصل ورسمية وأعلم بذلك زوج رسمية "خالد" ليحضر ويشاهد هذا اللقاء الحميمي " فتح باب الغرفة الصغيرة المعطرة، وأطل منه خالد الهراوات فشهقت رسمية شهقة مخيفة انتبه لها أبو فيصل، رفع رأسه فرأى خالد، التقت العيون لحظة واحدة خاطفة... وبحركة كأنها البرق سحب أبو فيصل مسدسه من جرابه وضعه على صدغه وأطلق، فانقلب على السرير الناعم كأنه لم يكن"[١].

لقد حدد هذا المشهد مصير الشخصيات الرئيسة في الرواية، فقد مات أبو فيصل، وفُضحت رسمية، ويخبر غندور السائس " سليمان الهراوات " بما حدث ويعمل سليمان الهراوات على طلاق رسمية وإبلاغ أهلها داعياً إياهم لقتلها، والمفاجأة أن خالد يصر على عدم تطليقها ويقول لها بأنه سيحارب الدنيا لأجلها، وتكشف له رسمية عن خبايا المتع التي لا تمنحها المرأة إلّا لمن تعشق "فكشفت له عما في الأنثى من طرائف وعجائب، وأثبتت له أن وراء اللحم والدم أشياء أخرى يدفع الرجل حياته ثمناً لها"[٢].

ويعلم صبري بما حدث في بيت فريحة الخياطة، ويقرر صبري قتل ابنته رسمية " أمسك صبري ذراع رسمية، رفعها عن الأرض، قال بصوت لم تسمعه رسمية إطلاقاً: تعالي معي"[٣].

تذهب رسمية معهم إلى مصيرها المحتوم الذي علمته مسبقاً واستعدت له، تسير وراءهم وهم لا ينطقون بكلمة واحدة، وهي تنادي عليهم بأن ينتظروها ، ولكن لا أحد يرد عليها وبعد عناء يرد عليها صبري بصوت جامد " ماذا دهاك؟ أريد أن أستريح يا أبي، رد صبري بالصوت الجامد نفسه: بعد قليل سترتاحين"[٤].

وعندما وصلوا إلى مكان موحش قال صبري: من يفضل البقاء فليبق، وتعرف رسمية أنها ستقتل " قال صبري بصوته الجامد: استديري، قالت مبتسمة: لماذا يا أبي؟ دعني أمت وأنا أراك... قال صبري: استديري قلت لك.. لا ..أريد أن أرى وجهك.

- دعني يا أبي أراكم قبل أن أموت.. أنا أحبكم... تناولت رسمية حجراً وأعطته لأبيها وقالت:
- هيا يا أبي.. هيا يا أبي.. دعني أمت بينكم.

---

[١] أحمد رفيق عوض: العذراء والقرية، ص٢٤١.

[٢] السابق : ص٣٠٨.

[٣] السابق: ص٣١٢.

[٤] السابق : ص٣١٣.

لم يحتمل صبري هذا، فتناول حجراً كبيراً، ورفعه بسرعة وقذفه بعنف شديد على رأس المرأة الجميل، فانفلق مرة واحدة، وظهر الدماغ رمادياً يرتجف"(١).

لم يغفر لرسمية فعلتها ولم يقبلها أحد سوى زوجها " خالد الهراوات " حيث رغب في العيش معها رغم كل ما حدث، تُقتل رسمية وتوضع في العراء ، وقبل دفنها تبدأ إسرائيل حربها الغادرة ضد العرب سنة ١٩٦٧م ، واكتمل بذلك احتلال كل أرض فلسطين، ولم يستطع أحد أن يدفن رسمية وكأن الخطاب الروائي أراد أن يعري رسمية حية وميتة فلم يظهر تعاطفاً معها فقد كشف سترها بالفضيحة ثم القتل، ولم تكّرم بعد موتها بدفنها فهي لم تحظ بتكريم حية وميتة سوى الكلمات والنظرات التي كانت تخرج من الذين ينظرون لها بشهوانية، لم يتعاطف أحد مع رسمية حتى الذين ساعدتهم ووقفت بجانبهم وأخرجتهم من السجن، لقد نسى الجميع كل شيء ولم يتذكروا سوى خطيئة الزنا التي عوقبت عليها وماذا بعد العقاب هل هناك عقاب آخر؟؟

"إن مقتل رسمية في الوقت الذي اندلعت فيه الحرب، وبقاء جثتها مكشوفة في العراء في الوقت الذي وقعت فيه الهزيمة، يمثل الربط العضوي بين النسيج الاجتماعي المتفسخ، وما ينتجه هذا النسيج من فضائح وهزائم تتبادل الأدوار فيما بينها، بحيث تؤدي هذه إلى تلك"(٢).

لقد ظلم المجتمع رسمية بل وساهم مَنْ حولها في صنع تلك الشخصية الزّانية، فأين كانت أمها عندما أخبرتها بأمر زوجها " العنين " الذي تكرهه؟، لم تحرك ساكناً لأنها رأت مظاهر العز والغنى على ابنتها فسكتت ولم تخبر زوجها.

وبذلك يكون أحمد عوض قد حمّل المجتمع مسئولية ما فعلته رسمية فهي مثل أي امرأة "حين تكبت رغبتها أو تُكره على الزواج الأبدي من صنم ميت لا حياة فيه وإن كان أهلها وعشيرتها يطمعون بكنوزه ومفاتيح خزائنها، لأن المال لا يمكن أن يكون ضماناً لحياة زوجية لا أساس لها... إن المرأة قنبلة موقوتة، إذ لم نحسن استخدامها انفجرت بنا وقطعتنا أشلاء، وإذا أحسنا فهمها ملكنا مفاتيح الحياة"(٣).

لقد جاء موت رسمية مع وقوع حرب ١٩٦٧، أو ما نسميه بالنكسة ليقول لنا أن ضياع القيم المتمثل في خطيئة رسمية وطمع وجشع سليمان الهراوات ، وتعامله مع اليهود وتسلط خالد الهراوات ضابط الأمن على أبناء شعبه وقمعه للمظاهرات، وتواطؤ غندور السائس مع أبي فيصل

---

(١) أحمد رفيق عوض: العذراء والقرية، ص٣١٤.

(٢) علي الخواجا: جوائز الفحم ، ص٣٤.

(٣) أحمد رفيق عوض: العذراء والقرية، ص٦١.

وسرقة المال العام –تموين المخفر– وتهيأت الجو لأبي فيصل وجعل بيته مكاناً للزنا، وفساد وقسوة أبي فيصل وعمليات التهريب التي يقوم بها الفلسطينيون لصالح اليهود، وفساد عضو البرلمان المنتخب... كل تلك القيم التي ضاعت أدت إلى نتيجة واحدة مؤكدة وهي ضياع الوطن سنة ١٩٦٧م، لقد انشغل أحمد رفيق عوض كعادته بالهزيمة والفساد، فقدم لنا رواية "العذراء والقرية" " والتي جاءت لتجيب عن السؤال المرعب، ألا وهو لماذا انكسرنا في حرب العام (١٩٦٧)؟!

إنّ هذه الهزيمة الماحقة كانت رداً على مرحلة خاصة من مراحل تطور النظام العربي والمجتمع العربي " قالت الرواية" أنّ الهزيمة أية هزيمة لا تأتي من فراغ ولا تصدر عن خواء، الهزيمة ذات خصائص معينة يتميز بها المجتمع المقبل على هزيمة"[١].

وفي رواية " بلاد البحر " نلاحظ ما يؤكد على هذه الفكرة ؛ فقد كان العرب منشغلين بتفاهات أخرى ترتب عليها الهزيمة ، ويظهر ذلك من خلال حوار ساخر بين أحمد بن مسعود و أبي الفداء عن راقصتين عربيتين " أما الفنانة تحية كاريوكا فقد تميزت باختراع رقصة الشمعدان، وهناك من المحققين والباحثين والعلماء الثقات من يذكر أن مخترعة هذه الرقصة ما هي إلا الراقصة دلال ، وهناك من يقول أنها شفيقة القبطية ، ولكن هذا الاختراع لم يسجل في كتاب جينيس للأرقام القياسية والاختراعات ذلك أن اسماً عربياً واحدا لم يذكر في باب الاختراعات منذ خمسمئة عام " [٢] .

من الواضح أن الهزيمة لم تأت من فراغ فلها مقدمات وأسباب وإرهاصات ، فالفساد الذي سيطر على العقلية العربية والخمول والتسليم بعقم العقلية العربية ،والجري وراء الأمور التافهة وانشغالهم بفسافس الأمور ونسوا العدو الذي يرقبهم كل ذلك أدى إلى نتيجة واضحة وهي الهزيمة .

وبالرجوع إلى رواية "العذراء والقرية" نلاحظ وجود تماهى بين عنوان الرواية مع شخصية رسمية فهي "العذراء" "لأنها رغم اشتهاء الجميع لجسدها المفعم بالشهوة، ورغم محاولاتها المتعددة والمتكررة لإشباع رغباتها خلف صخور سنام الجمل، ورغم زواجها بخالد، ورغم خيانتها المتكررة مع أبي فيصل إلّا أنها لم تكن تُشبع رغباتها فقد كانت أول علاقاتها مع سالم المصارع ذو الجسم المفتول العضلات لكنه ضعف أمام سطوتها الشديدة وسرعان ما هرب، ثم زوجها ذلك "العنين" المسلوب الرجولة ثم أبي فيصل الذي لم يختلف عن زوجها، فيا لحظها السيئ فلمّا أرادت أن تخون

---

[١] أحمد رفيق عوض: العذراء والقرية، ص٦٨.

[٢] أحمد رفيق عوض : بلاد البحر، الاتحاد العام للكتاب والأدباء ، الطبعة الأولى : فلسطين ٢٠٠٦ ، ص٨٠ .

زوجها خانته مع رجل نسي رجولته منذ زمن بعيد، ونلاحظ أن جميع العلاقات الجنسية التي قامت بها رسمية تنحصر بين الفشل والشذوذ، كما نلاحظ أن علاقاتها اقتصرت على الطغاة أقطاب الفساد ؛فماذا أراد الكاتب أن يقول لنا من خلال تلك الإشكالية الجنسية، ويرى صبحي شحرور أن ذلك " يتساوق مع حكم صارم بيته الكاتب، هو أن الطغاة شاذون، وهم لا بد منهارون"(١).

ويرى "يوسف الشحادة" أن الرواية تلجأ إلى تصوير بعض الشخصيات في حالة نفسية مريضة، فرسمية تظهر عارية داخل شجرة كما أن زوجها خالد يطلب من زوجته أن تضربه بشدة، وهو يعتبر ذلك مبالغة وسبب ذلك أن تلك العقد النفسية لم تكن معروفة في بيئة الريف في تلك الفترة الزمنية. (٢)

ويرى الباحث أن المبالغة في السرد الروائي هو جزء من الأدبية والروائية وإلّا أصبحت الرواية عبارة عن سرد تاريخي محض، والكاتب يهدف من تلك الروائية إيصال فكرة معينة للقارئ بطرق متعددة ، وأعتقد أن الكاتب أراد أن يتحدث عن الفساد المستشري في المجتمع الفلسطيني قبيل الهزيمة والذي أدى لوقوع الهزيمة المرة، فلم تكن المبالغة اعتباطية بل جاءت لإيصال هدف معين وفكرة ما.

---

(١) صبحي شحرور : العذراء والقرية بين الإكراهات الواقعية والاستعانة بالسحري والغرائبي، ص٢٣.

(٢) يوسف محمد الشحادة : الرواية الفلسطينية في الضفة وقطاع غزة، ١٩٦٧-١٩٩٣، رسالة ماجستير، إشراف: د/عادل الأسطة، ٢٠٠٠م، ص١٤٤.

٤- شخصية العميل

رواية قدرون

أ- علي

تُعد ظاهرة العملاء من الظواهر القديمة قدم الحروب ؛ فهي ملازمة لوجود أي احتلال في أي مكان ، وقد عانى الشعب الفلسطيني كثيراً وما يزال يعني من تلك الظاهرة ، وقد اتخذت هذه الظاهرة أشكالاً متعددة بحسب الحقب الزمنية التي مرت بها، فقبل الاحتلال عام ١٩٦٧م كانت تأتي على شكل عمليات تهريب البضائع لليهود ، ويتم من خلال تلك العمليات إرسال المعلومات لهم من خلال المهربين بهدف الحصول على المال، وقد تأتي العمالة على شكل ضابط في القلم السياسي كما هو الحال مع " خالد الهراوات " الذي ينفذ الأوامر معتقداً أنه يخدم الوطن ؛ فهو عميل غير مباشر يخدم مصالح الاحتلال دون أن يعلم، ويأتي أيضاً على شكل تاجر غني مرابي يستغل حاجة أبناء شعبه ثم يقوم بمداينتهم بالفائدة الربوية التي لا يحتملها المواطن الريفي البسيط مما يضطره في النهاية إلى بيع أرضه ، أو جزء منها كما في شخصية "سليمان الهراوات"، وقد تأتي على شكل ضابط المخفر وهو المسئول الأول والأخير كما هو الحال مع "أبي فيصل" وهو عميل حذر جداً يخدم اليهود، ويتواصل معهم من خلال المهربين هو وشريكه "سليمان الهراوات" حيث يكملان بعضهما البعض، فسليمان يقرض الناس ويضع عليهم الفائدة ، وأبي فيصل يجبرهم بالقوة على سد الدين الذي لا يستطيعون سداده ، وبالتالي يقوم بإجبارهم على التوقيع على أوراق تملّكهم بموجبها نصف الأرض ونصف خراجها.

لقد تكاملت صورة العميل في رواية "العذراء والقرية" حيث يظهر من خلالها تفسخ النسيج الاجتماعي الذي أدى في نهاية الرواية إلى حقيقة هزيمة الـ (٦٧) أو (النكسة) بحسب ما تعارف على تسميتها ؛ فالفساد والعمالة المتمثلة في "خالد الهراوات" و"أبو فيصل" قائد المخفر و"سليمان الهراوات" الإقطاعي واللذان يمارسان مهنة التهريب لليهود لتحقيق مآربهم، وبذلك تكون اكتملت خيوط "المؤسسة الفاسدة" كما أنّ المواطن المتمثل في أهل الخلجان يتحمل جزءاً من مسئوليته تجاه الهزيمة حيث برر بعضهم لمشاركته في عمليات التهريب هذه بالفاقة والفقر، والآخرين وقفوا موقف المتفرج ولم يحرك أحدهما ساكناً إزاء ما حلّ بهم ، وسنفرد الحديث لكل هذه الشخصيات المتهمة في الرواية بالعمالة كلٌ على حدا ، ولنحاول أن نلقي الضوء على حياتهم الشخصية من أجل معرفة الأسباب والدوافع التي ساهمت في تشكيل شخصية العميل ، ومحاولة تصحيح المسار ووضع الحلول .

ومن الجدير ذكره أن العميل لا يصبح عميلاً فجأة، أو أنه يقوم بتقديم طلباً في مكتب العمل لكي يصبح عميلاً، بل إنّ هناك ظروف وعوامل تحيط به تَدفعه إلى السقوط في الهاوية، ولعل من أهم هذه العوامل طبيعة العلاقات الاجتماعية المحيطة بهذا الفرد أو ذاك كما هو الحال في رواية "قدرون" .

ويعد الظرف الاجتماعي الصعب الذي عاشه "عليّ" ابن الشهيد هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لفظ المجتمع له من خلال رفض "لبنى" ابنة عمه الزواج منه مما يشعره بالنقص بالإضافة إلى أنَّ عمه هو الذي يقوم بالإنفاق عليهم لاستشهاد أبيه وشعوره باليتم ، كل ذلك أدى لجعل "علي" تربة خصبة للوقوع في العمالة رغم أننا لا نلتمس له عذراً على الإطلاق لتشابه ظروفه مع كثير من الفلسطينيين الذين لم يتعاملوا مثله لكننا نحاول أن نتعرف على الظروف والمسببات التي توصل الفلسطيني لوحل العمالة وطرق علاجها من خلال الرواية الأدبية .

ويحدد لنا "أحمد رفيق عوض" مسببات ظاهرة العملاء على لسان الجد "عثمان العظيم" في حواره مع "زياد" حينما سأله عن صنّاع التاريخ، فرد الجد قائلاً: "إنّ صنّاع التاريخ هم الأبطال والخونة معاً، لا أحد يفضل أحداً، فمن له الميزة إذن؟ سأل زياد. قال الجد : إن البطل هو الخير في الأمة، وهو القيم والروح والنتيجة النهائية الآمال، ولذلك فهي الأنموذج العالي والمثال السامي وهذه ميزته، أما الخائن فهو انتكاسة القيم والحرية التي توجه إلى قلب الأمة، وهو الذي لا يحفظ سر أمته ولا قدس أقداسها، فهو مرفوض مدحور مذموم"(١).

والسؤال لماذا يتم رفض العميل في المجتمع؟ أعتقد لأنه صورة المجتمع السيئ ويجيبنا عثمان العظيم في مقطع آخر يقول: "نحن ننفر من المذنب والخاطئ والخائن لأننا لا نرغب برؤية ذنوبنا وخطايانا مجتمعة في إنسان يمش على الأرض"(٢)

لقد أراد الخطاب أن يقول لنا بصراحة أنَّ العميل هو إفراز للمجتمع فإذا ساد في المجتمع القيم والمثل والروح العالية وتحققت الطموحات من خلال الانتصارات فالنتيجة هي خلق للأبطال والرجال العظام، وإذا حدثت انتكاسة في القيم والأخلاق وألمت الهزائم بالأمة نتج عنها عملاء وخونة، فالخائن والعميل هو عبارة عن مجموع ذنوب وأخطاء المجتمع، وفي النهاية البطل يخلده التاريخ والخائن يذهب إلى مزابل التاريخ، لكن كلاهما مكتوب في التاريخ فهما من صنع التاريخ.

---

(١) أحمد رفيق عوض : قدرون، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، ١٩٩٥م ، ص٦٢.

(٢) السابق : ص٦٣.

ونخلصُ من ذلك إلى نتيجة أرادها الكاتب برأيي جاءت من خلال الحوار بين عميلين "توفيق الساري" و "علي" حين يسأل أحدهما الآخر يقول: " لماذا نضعف أمام قاتلينا؟ لماذا نتعاون معهم؟ ولا يتعاون المتعاون إلّا بعد أن يشعر أن المجتمع الذي يحبه قد انهار أمامه... يكثر المتعاونون في الأمة المهزومة"(١).

نعم إن الأمم المهزومة والمنهارة تولد أفراداً مهزومي الروح أيضاً لكن يجب ألّا ننسى أنه هو نفسه "إنسان ضعيف يسقطه طمعه وجشعه إلى الرذيلة بسهولة.. يقضي على ضميره تدريجياً حتى يصبح عبداً لمشتريه"(٢).

ويعترض "جميل السحلوت" على حوار دار بين علي وتوفيق الساري المتعاونين حيث إنه حاسب الكاتب على حوار بين عميلين، وقد اعتبر "السحلوت" أن الكاتب "أحمد عوض" قد أطاح بكل المبادئ والقيم الجميلة والتضحيات والحوار كالتالي: "الوطني متطرف أيضاً كيف؟ وأنه يقف على طرف نقيض من المتعاون... وبدلاً من أن يطعن أمته بأن يخدم قاتليه فإنه يقتل نفسه باختياره ليقول هأنذا يا أمتي أنا أحبك أيضاً"(٣).

ويرى الباحث أنَّ "جميل السحلوت" قد جانبه الصواب في هذا التوصيف لعدة أسباب:

أولاً: عادة لا يحاسب الكاتب على حوار يتم بين شخوص روايته وخصوصاً أن هذا الرأي يمثل وجهة نظر عميل، وبالتأكيد العميل يحاول أن يبرر لنفسه ويحاول أن يبسط الأمور هذا من ناحية.

ثانياً: التطرف يعني التشدد في أمر ما والمبالغة فيه هذا بالمفهوم العام، فكلاهما تطرف فالعميل تطرف بإعلان عداءه وكرهه لأهله ولوطنه ولكل المبادئ التي تربى عليها لذلك فهو متطرف، والوطني تطرف بحبه لوطنه مما يدفعه للتضحيه بروحه في سبيله فكثير هم الذين يحبون الوطن دون تطرف أي دون الاستعداد للموت في سبيله وبذلك يعلن الوطني المتطرف بحبه أن نهايته هو الموت والتضحية بروحه من أجل الوطن.

ثالثاً: لو قلنا ما هو عكس الوطني أو الفدائي سنقول فوراً العميل أو الخائن إذن هما على طرفي نقيض حقيقة، فالخائن يطعن أمته من الخلف ويخدم المحتل، والوطني يدافع عن وطنه وهو يعلم أن نهايته الشهادة.

ونعود مرة أخرى إلى شخصية "علي" ابن الشهيد، وقد نشأ "علي" في بيت يعيله عمه "عبد الهادي"،لاستشهاد أبيه وقد شكل ذلك حالة من التأزم لدى "علي" حيث شعر بالنقص دائماً، وقد

---

(١) أحمد رفيق عوض : قدرون، ص٢٥٥.

(٢) علي الخواجا: جوائز الفحم، ص٨٥.

(٣) أحمد عوض : قدرون، ص٢٥٨.

أخذ هذا الشعور بالتطور شيئاً فشيئاً ليشعره بالنقص خصوصاً أمام ابنة عمه التي يحبها ويتفاقم هذا الشعور عندما بدأ عمه يعمل في إسرائيل ولحظتها كظم عليٌّ غيظه وصارح أمه برغبته في ترك المدرسة وأنه لن يقبل أن ينتحر عمه من أجل إطعام الجميع، لا بد من مساعدته كما أنه لولا جدي لما ساعدنا عمي ولما اهتم بنا "قال عليّ وهو يشعر بالقهر أنه لولا وجود الجد لما اهتم العم عبد الهادي بالأسرة"[١].

لقد تطور الحقد والغيظ عند "عليّ" بحيث وصل إلى مرحلة كره جميع من حوله . لقد كره نظرات الشفقة، ولن يسمح بأن يعيِّره أحد من أبناء عمه بإنفاق أبيهم وتصدقه عليهم، لقد عذبه كثيراً هذا الشعور خصوصاً أن لبنى –والتي يحبها– تعرف بالمأساة التي يعيشها.

وعندما جاء عمه إليهم يحمل اللحم والفاكهة قابله بوجوم، ولمّا سمع عليّ بأن ابني عمه تركا المدرسة وانطلقا إلى العمل مع أبيهما قال لأمه بهدوء: "إنه ليس هناك قوة في الأرض تمنعه من ترك المدرسة"[٢].

ويسجل "علي" في مكتب العمل الحكومي من أجل الحصول على عمل فهو لم يرغب أن بعمل مع عمه ليخرج من دائرة السيطرة والولاية التي تسيطر عليه ، وبعد أسبوع قُبل كعامل في ورشة بناء في "قيسارية"، ويذهب على وهو في الطريق قرب البحر رأى الإناث البيضاوات عاريات إلّا ما يتوجب ستره "رأى الغامض المحبوب مكشوفاً أمام الشمس ورأى أن كل الأسرار التي تخيلها وتاق إليها عارية بموضوعية حادة، فدار رأسه ألف دورة، وثار جسده بكل ما فيه من طاقة ورغبة جبارة"[٣].

ويلاحظ العمال انشغاله بالعاريات فقالوا له أنّ هناك عاهرات كثيرات ونصحوه بالالتفات إلى العمل، وقد كان عمله قاسياً جداً فهو عامل يخلط الأسمنت بالرمل، ولكنه لم يهتم بهذا التعب طالما أنه يرى الكنوز البيضاء التي تدفئ الخيال، ولما رأى رجل يعانق امرأة لم يستطع السيطرة على نفسه، وأخذ هذا الشعور الضاغط والرغبة التي لم تجد لها متنفساً تطغى على سلوكه سلباً في البيت حيث أصبح عنيفاً قاسياً مع أمه وأخوته، مما اضطر الأم أن تشكو ذلك للجد ويأتي ليرى أن الشاب الوديع قد تحول إلى رجل خشن لا يهمه أحد حتى الجد فقد جاوز معه حدود الأدب أثناء حديثهما.

---

[١] أحمد رفيق عوض : قدرون، ص٢٩.

[٢] السابق : ص٣١.

[٣] السابق: ص٣٢.

لقد تساقطت كل القيم والمشاعر عند "علي" فقد تعدى باللفظ على جده رمز الوقار ولم يقف عند هذا الحد فقد تحول مفهوم حبه للبنى ابنة عمه إلى المفهوم الحيواني الممتلئ بالشبق فيحاول الاعتداء عليها، لكن الأمر لم ينجح لأن لبنى قاومته بشراسة وعنف، فملأت وجهه بالخدوش وتتصرف وهي تقول له أنت حيوان.

لم يستطع "علي" إشباع رغباته في الوسط الذي يعيشه ؛ فيتفق "علي" مع زميله في العمل ليذهبا بعد العمل إلى الاستجمام في مستوطنة (مخمورت) وهي مقهى بحري يوجد به عاهرات، فيقول عليّ أن الأخيرة تكفيني، ولكن سرعان ما يشعر "علي" بالقرف والاشمئزاز من تلك العاهرات الإسرائيليات ومن أساليبهن الرخيصة وشعر نفسه كحمار يعلن عن نفسه وعن رغبته فيعرض آلته أمام الجميع ثم يبحث عن أنثى أي أنثى أمام الجميع، ولم يعد بعد ذلك عليّ يرغب أبداً بزيارة هذه الأمكنة فقد تركت الزيارة الأولى أثراً عميقاً في نفسه خصوصاً أن إحدى العاهرات وصمت العرب بكل أنواع السفالات والشتائم، "حتى هذه تشتم العرب وتشعر بالتفوق علينا عاهرة تملكها ببضع ليرات تشعر أنها أحسن من كل العرب"(١).

وتتغير مفاهيم "عليّ" نوعاً ما بعد خوض تلك التجربة التي طالما حلم بها، وشعر بالاشمئزاز والقرف من الطريقة الحيوانية التي تستخدمها النساء الإسرائيليات ولهذا تغير علي وأصبح إنساناً ناجحاً لا يلتفت سوى إلى عمله والنجاح ، وقد لاحظ الآخرون هذا التغيير، لقد أصبح عاملاً مجداً يتعلم كل شيء وبسرعة كما أن أساليب تعامله مع أسرته قد تغيرت، ويطلب من أمه أن تجد له عروساً مناسبة بعدما وصل إلى قناعة أنه لا يوجد أشرف من البنت العربية، وتعرض عليه الأسرة ابنه عمه "لبنى"، ويتفاجأ من العرض الذي أعاد الذكرى المزعجة إلى خاطره حيث إنه حاول الاعتداء عليها قبلاً، ويوافق عليّ رغم قناعته بأنها سوف ترفض.

وهكذا تذهب الأم مع ابنها عليّ لطلب ابنة عمه، ويوافق الجد لكن لبنى ترفض ذلك العرض بشدّة وتخبر جدّها بالحادث المؤلم، ويحضر "علي" داخل الغرفة وتتم المواجهة بينهما وقال الجد: "الآن سننهي هذه المشكلة هوى قلب علي، وحاول أن يستهين بالأمر كله، ولكنه لم يستطع أبداً... عليّ هل حاولت أن تمس طهارة ابنة عمك قبل أكثر من سنتين...؟ اكتسى جلده بالعرق البارد، خف وزنه، وود لو يختفي للأبد، الآن أتعرى أمام جدي... هز الشاب رأسه علامة الموافقة... أعطيك عذراً.. أما الآن.. هل تريد أن تتزوج منها؟ قال الشاب وكأنه وجد طوق النجاة: لا"(٢).

---

(١) أحمد رفيق عوض : قدرون، ص٧٠.

(٢) السابق: ص٩٠-٩١.

يبدو أن هذا الموقف كان الحد الفاصل في حياة عليّ، فرفض ابنة عمه له أشعره بخذلان كبير و شعر بأنه غير مرغوب فيه في هذا المجتمع، لقد جاء "عليّ" بعدما تغير تماماً، وابتعد عن علاقاته المشبوهة مع العاهرات وأصبح لا يهمه غير عمله، وقد علم الجميع بذلك، ولكن المجتمع لا يغفر، وتبقى ذكرى الحادثة تؤرق "لبنى" رغم حدوثها في سن المراهقة فكان يجب عليها أن تغفر له وتسامحه بدل من أن تكون عاملاً مساعداً من العوامل التي أودت به في وحل العمالة .

لكن "علي" لم ييأس فيحاول طلب يد لبنى مرة أخرى لشعوره بأنها رمز الطهارة والعفة فهي بالنسبة له طوق النجاة الذي سيخرجه من وحل الرذيلة ، ولكن ترفض لبنى مرة ثانية لتتوسع الفجوة بينه وبين مجتمعه لفقده الحاضن الرئيس وحبه الأول .

لقد أحس علي أنه غير مرغوب به من مجتمعه ؛ فذهب إلى البارات لكي يبحث عن ذاته وهناك يتعرف على "أوريت "والتي تكون بداية سقوطه في بحر الرذيلة ومن ثم العمالة ،وفي طريقه إلى "أوريت " يُظهر لنا المونولوج الداخلي لومه الشديد لنفسه على طلبه يد لبنى مرة أخرى يقول : "أي شيطان لعين دفعني إلى طلب يدها مرة أخرى... عيب أن تعترف بأنك تحبها"[١].

ويقول في موطن آخر : "أنت تحب... ماذا ستكون عليه حياتك لو تزوجت لبنى ؟

آه ... آه . هل تبكي ؟ اللعنة ... ماذا قلت حتى تبكي ؟

– لبنى من الأمة التي لا تخدمها .

اللعنة ... أين أمتي التي تتحدث عنها ؟ " [٢].

وفي لقاءه الأول مع "غابرئيل" يسترجع "علي" متحسراً ومحملاً جده سبب عدم زواجه "بلبنى" يقول: "لماذا يرفض جدي اللعين تزويجي من لبنى؟"[٣].

يظهر لنا من خلال النصوص الثلاثة والتي جاءت على شكل مونولوج داخلي ما يدور في نفس "علي" من حسرة وألم وتوجع لأنه لم يتزوج لبنى التي أحبها كما ويبكي لحاله الذي وصل إليه من فساد وعمالة ، وهو في ذات الوقت يلقي اللوم على مجتمعه الذي أوصله لهذه الحالة من خلال رفضه للتعايش معه .

---

[١] أحمد عوض : قدرون، ص٢٢٣.

[٢] السابق: ص٢٦١.

[٣] السابق: ص٢٢٤.

فالكاتب لم يفاجئ القارئ بالتغير الذي طرأ على شخصية "علي" لكن جميل السحلوت يقول أن الكاتب فاجأنا بعد عدة صفحات وبشكل غير مبرر بأن علي إنساناً سيئاً .. يصاحب اليهوديات كما أنه متعاون [١].

ويرى الباحث أن الكاتب لم يفاجئنا لأنه من البداية قد مهد لتلك النتيجة المتوقعة حيث رسم لنا شخصية "علي" متمردة على الواقع رافض لإنفاق عمه عليه لشعوره بالعار ، وحاول اغتصاب لبنى ابنة عمه كما أنه يشاهد الإسرائيليات على البحر بشهوة وذهب في إحدى تجاربه لتلك العاهرات، وقد شكّل رفض لبنى له الخط الفاصل بين الصلاح والفساد فكان الانهيار المتوقع.

فقد وجد عليّ عند " أوريت " ما لم يجده في مجتمعه فقد أحبته واحتضنته في الوقت الذي رفضته "لبنى"، وتخلى عنه مجتمعه ولم يحتويه فذهب هارباً يبحث عن حياة هامشية هادئة وجديدة ليلتقي عليّ بـ "أوريت" في إحدى بارات "تل أبيب"، ويعجب بها لدرجة الحب الشديد يقول عليّ عنها: "هل هناك في قدرون مثل "أوريت" ووهج "أوريت" ودلع "أوريت" وفهم "أوريت"[٢].

وبالتالي نرجع إلى ما قلناه آنفاً أن العميل هو إفراز للمجتمع ، وهو لا يتعاون إلّا بعد أن يشعر أن المجتمع الذي يحبه قد انهار، وهو ما حدث مع عليّ فبرفض لبنى له قد انهارت أمامه كل القيم وشعر بعقدة النقص فأراد أن يثبت للجميع أنه محبوب ومرغوب من غيرهم.

وتنتشر الإشاعات حول علاقات "عليّ" المشبوهة مع نساء إسرائيليات حتى قيل أنه قد تزوج يهودية ، وتحت ضغط تلك الإشاعات يستعد "علي" للزواج من بنت "الطواشي" ويتزوج "عليّ" ويترك زوجته عند أمه وشقيقته ويعود لأوريت، وبالتالي يفشل الزواج ويحدث الطلاق، ويتعرف "عليّ" على "غابرئيل" من خلال "أوريت" ويعّرفه "غابرئيل" على "أسعد حمودة" وهو مختار من قرى طولكرم، وهو سمسار أراضي يعمل لصالح اليهود ، ويعرض "غابرئيل " على "علي" أن يساعده في أعماله حيث يكون وكيلاً لشركة العقارات التي يملكها في منطقته كما "أسعد حمودة" الذي يعمل وكيلاً في طولكرم ويلخص له عمله في "أن يقنع أحداً ما يبيع أرضه له، أسعد حمودة يشتري الأرض ثم يبيعها لي... أكمل وهو يضحك: أنت تعرف أن العربي لا يبيع لي مباشرة... هناك حساسيات".[٣]

---

[١] علي الخواجا: جوائز الفحم، ص٨٤.

[٢] أحمد عوض : قدرون، ص١٣٧.

[٣] السابق : ص٢٣٠.

وبذلك يصبح "عليّ" سمسار أراضي يعمل لصالح اليهود وله عمولة كبيرة تصل لعشرين بالمئة، ويبدأ علي عمله بجد ونشاط ، ويخبره " توفيق الساري " بنية اليهود إقامة مستوطنة ستضم أرض جدك لذلك يطلب منك "غابرئيل" إحضار أوراق الأرض –الطابو– من أجل بيعها له .

ويوافق علي مباشر ، فقد شعر أنه آن الأوان للانتقام من الجد الذي كان عائقاً لزواجه من محبوبته ، ويحاول عليّ سرقة الطابو من أخته بثينة ويخبرها عليّ بأنه ستقام عليها مستوطنة لذلك فهي مصادرة حتماً ولو بعناها نكسب ثمنها ويعدها بمبلغ جيد يقول لها: "إذا سرقت طابو الأرض وقيود المالية وخرائط المساحة وعقود الإيجار والمزارعة الخاصة بأرض جدي فلك مني خمسة آلاف دينار ولزوجك مثلها"(١).

وتوافق بثينة وتحضر له الأوراق بالاتفاق مع زوجها، وينكشف عليّ لأخته بثينة فتعلم بأنه يعمل مع اليهود فهو "عميل"، ولكن المال يعميها ويأخذ عليّ الورق ويعطيه "لغابرئيل" ومن ثم إلى "الراب شليطا" وهو رئيس جماعة استيطانية أمريكية نشطة جماعة تسمي نفسها "بيونيرز" أي "الرواد"، ويرحب "الراب شليطا" بعلي ويوهمه بأنه يفهم مصلحة العرب لأن المستوطنة ستكون علامة حضارية يستفيد منها الفلسطينيون يقول: "المستوطنة والاستيطان يا سيد علي مفيد لكم في " يهودا والسامرة".

سأل علي وهو ينظر إلى الراب حتى يتبين ملامحه: كيف؟

المستوطنة توفر لكم عملاً وتزيد من رفاهيتكم وترفع من مستواكم الحضاري، هذا عدا أنها تقرب بين الشعبين المتحاربين، فالجوار يخلق علامات حسنة"(٢).

هكذا هم اليهود دائماً يحاولون أن يقنعوا الآخر أنهم يعملون ذلك لمصلحته فالاستيطان والاحتلال لصالح الفلسطيني وهدم البيوت والقتل أيضاً في صالح الفلسطيني.

يفاجأ عثمان وزياد بوجود آليات ثقيلة ورجالاً في أرضهم ويحدث شجار ينتهي بمعرفتهم بأن "علي" قد باع أرضهم لليهود وأعطاهم ورق الأرض كله، وتقرر العائلة بقيادة زياد قتل ابن عمهم "علي" ويقوم بالمهمة "زياد ولبنى وجواد " بمباركة من الجد، ويطرق زياد الباب وتنادي لبنى على "عليّ" بأن جدها مريض جداً ونريد منك أن تأخذه بسيارتك إلى الطبيب "أقفل الباب بسرعة وقال : توفيق... انتهت سهرتنا إذن، سأذهب مع لبنى... طلب لبنى أمر. تراجعت لبنى إلى الخلف تبعها علي ثم توفيق، شاهدهم زياد من مكمنه، لم يعد يحتمل أبداً... أخرج ما في جيبه، رفعه إلى فوق، صوب نحو علي، وأطلق ثم أطلق، سمع صرخة علي التي لا تشبه صرخة البشر، ذعر

---

(١) أحمد عوض : قدرون، ص٣٠٢.

(٢) السابق : ص٣١١.

توفيق، مد يده وبصورة تلقائية إلى مسدسه، أطلق عشوائياً، لم يتردد زياد، صوب مرة أخرى وأطلق، سقط مرتطماً بقوة بشجرة ما"[١].

وهكذا تكون نهاية العملاء والخونة ،وبتلك النهاية يقول لنا الكاتب أنَّ الانتصار على الأعداء يجب أن يبدأ من الداخل بتطهير العملاء والخونة، ومن ثم الارتقاء بالمجتمع ليصبح مهيئاً لمرحلة الانتصار، كما نلاحظ أنّ الخطاب الروائي قد حمّل المجتمع الهزيمة بشكل واضح وجعلها مترتبة على فساده ، فالمجتمع الفاسد يُنتج ظواهر فاسدة كالعملاء .

إن المجتمع بحسب الرواية هو الذي أوجد شخصية العميل "علي" فقد كان باستطاعته أن يحتوي "علي" ولكن المجتمع رفضه ولفظه ؛ فكانت النتيجة أنّه بحث عن حضن آمن يستوعب طاقاته وعواطفه.

وبذلك يكون "عوض" قد استطاع "أن يصور المجتمع الفلسطيني كما هو بإيجابياته وسلبياته، لم يتعصب، ولم يبالغ، ولو قدر لهذا الإبداع الروائي أن يصور سينمائياً، لوجدنا أنفسنا عراة أمام أعينا، نحن كما هي حقيقتنا، شعب كبقية الشعوب، فينا المناضل ومنا العميل، فينا التقي الورع، وفينا الداعر الزاني الذي يتعاطى المخدرات والخمور... فينا الصادق الأمين، وفينا الكاذب السارق المخادع المحتال"[٢].

لقد ترك الكاتب "عليّ" يتحرك وحده دون قيد لرسم حياته التي يعيشها بحقيقتها وواقعيتها ولم يتدخل فيه، ولم يقم بدور من أدواره، وبذلك يكون "عوض" قد قدم شخصية واقعية تمس واقع الفلسطيني المعاش بشكل إبداعي روائي محترف فرض نفسه على القراء بقوة تشويقية رائعة كما أنه طرح بشكل جريء لمشكلة مهمة من الجدير الإشارة إليها من خلال أدبنا الفلسطيني لمعرفة الأسباب والدوافع من ورائها، كما استطاع "عوض" أن يجمع بين أقطاب ثلاثة هي سبب ويلات ونكبات الشعب الفلسطيني "علي" الفلسطيني والأمريكي والإسرائيلي فالأمريكي المتمثل في الدعم الأمريكي وفي الشركة الأمريكية التي ستقيم مصنع في المستوطنة للاستثمار والسبب المباشر في جمع هؤلاء هو علي الفلسطيني، مما يوحي لنا أنّ الهزيمة تبدأ من أنفسنا كما أن النصر يبدأ من عندنا.

كما وأظهر لنا الخطاب الروائي خللاً واضحاً لآلية التعامل مع العملاء فقتل " علي " قد أخذ منحى شخصي وعائلي من حيث دافع القتل والمنفذين ، ولعلنا ننظر لهذا الأمر من جانبه الإيجابي حيث إن العائلة تعاقب ابنها العميل وتقتله لعمالته في المقابل هناك عائلات تقف بجانب

---

[١] أحمد عوض : قدرون، ص٣٢١.

[٢] علي الخواجا: جوائز الفحم، ص٧٢.

ابنها العميل وتسانده لمكانته الاجتماعية التي تعود على العائلة بالفائدة من ناحية ، وخوفاً على سمعة العائلة من ناحية أخرى وهذه الصورة تظهر لنا المفارقة في آلية تعامل التنظيمات والسلطة الفلسطينية بعد مجيئها مع العملاء بحسب الحمولة ، وعائلته الكبيرة ويظهر ذلك في رواية " آخر القرن " حين يصف لنا الخطاب سيرة الخائن "لطفي سويلم" الذي بدأ مخبر للإنجليز في الثلاثينات من هذا القرن، حيث لاحق ثوار منطقة جنين ونابلس، ثم شارك في فصيل الجواسيس المسلح الذي أنشئ بتمويل ودعم من القوات المحتلة، وبعد خروج الإنجليز من البلاد، هرب إلى مصر ثم إلى العراق فالأردن، وهناك عمل في الجيش البريطاني وتدرج في المناصب إلى أن وصل إلى رتبة ملازم، وفي الستينيات عاد إلى فلسطين بهذه الرتبة العسكرية " [١].

وعندما عاد تحتفل به حمولته الكبيرة وعندما دخل اليهود نابلس واحتلوها التحق لطفي في الشرطة الإسرائيلية برتبة كبيرة أيضاً وأصبح معروفاً ويجلي لنا الخطاب الروائي المفارقة ويكشف الحقيقة "المرة" دون محاباة لأحد " وتجدر الإشارة هنا إلى أن الجاسوس الذي يخص عائلة كبيرة ومحترمة لا يعامل معاملة الجاسوس الذي لا عائلة له ولا سند، خيانة ابن العائلة تصبح مسألة فيها نظر وأخذ ورد، أما الجاسوس الصغير فهو ملعون إلى يوم الدين" [٢].

لقد كان "أبو سويلم" عميلاً مكشوفاً يعمل بشكل علني مع حكومة العدو حيث كان يبيع الأراضي للمستوطنين مما جعل ابنته تنتحر بسبب أفعال أبيها.

وبعد عودة السلطة الوطنية تصبح المفارقة أعظم وأكبر حيث ظن البعض أنه سوف يتم محاسبته لكن على العكس "استدعته الأجهزة الأمنية الفلسطينية عدة مرات، وبعدها، التزم بيته الفاخر ولم يعد يخرج أو يزور أحد... وفي الواقع أن لطفي سويلم مات قبل عدة أيام فقط، وقد امتلأت الصحف المحلية بعشرات إعلانات التعزية!" [٣].

يظهر من خلال ما سبق أنّ الكاتب أظهر نقداً واضحاً نحو آلية تعامل العائلات من جهة والتنظيمات من جهة أخرى ، والسلطة الفلسطينية من جهة ثالثة مع ملف العملاء ، وبذلك يكون عوض قد وضع يده على جرح عميق ، وسبب قوي يضم إلى قائمة أسباب الهزيمة الطويلة .

---

[١] أحمد عوض : آخر القرن، ص٢٢٠.

[٢] السابق : ص٢٢٠.

[٣] السابق : ص٢٢١.

ب- سليمان الهراوات:

رواية العذراء والقرية

وهو رجل غني يتعامل بالربا عن طريق تقديم الأموال والبضاعة على شكل قرض من دكانه لبعض المواطنين من قرية الخلجان بمن فيهم صهره صبري مستغلاً حالة الفاقة التي يعيشونها، وعندما يعجزون عن سداد الديون بفوائدها يأتي دور أبي فيصل حيث يزجهم في السجن وإجبارهم على السداد – والذي بطبيعة الحال لا يستطيعونه – أو التوقيع على بيع نصف الأرض لسليمان الهراوات بالإضافة لنصف محصولها، فأبو فيصل وسليمان الهراوات شخصيتان متناغمتان مع بعضهما البعض هذا إذا قمنا بإضافة عمليات التهريب التي يقومان بها لصالح اليهود، والمعلومات التي يقومان بإيصالهما لليهود من خلال المهربين.

وتبدأ الحكاية بمواسم الجفاف المتتالية التي أصابت أهل قرية الخلجان مما أدى لضيق العيش بهم حيث لم يجدوا شيئاً ليقتاتوا به لدرجة أنه قد مات بعض الناس جوعاً، ولم يبق لديهم وسيلة للعيش سوى دكان "سليمان الهراوات" ويصف لنا الراوي العليم قائلاً : " فأخذوا كل ما يحتاجون إليه وكل ما لا يحتاجون إليه ما دام كل ذلك بالدين، ومن يشتر بالدين لا يسأل عن الثمن، ولا يسأل عن الحساب أو السداد ثم إنّ سليمان الهراوات هو صهرهم فلا يمكن أن يغلبهم أو يغشهم بالسعر أو يضغط عليهم في موعد تسديد الحساب... وهكذا تضخمت دفاتر سليمان السوداء"[١].

وهكذا ظن الريفيون السذج حُسن النية لدى صهرهم "سليمان الهراوات" وأنه رجل كريم متسامح يعطي كل شيء بالدين على حساب موسم السنة المقبلة، ولم يتوقف الناس عن شراء ما يحتاجونه من بقالة سليمان الهراوات وقد "باعهم الرطل بخمسة وأربعين قرشاً بحجة أنهم يشترون بالدين، فلو دفعوا فوراً لأخذوا الدقيق بسعر السوق"[٢].

والغريب أن الكثيرين من أهل القرية أعطوه مبرراً لذلك بأنه لا أحد غير "سليمان الهراوات" يعطي بالدين ويصبر للموسم القادم في مثل هذا الجفاف والفقر، وقد كان "سليمان الهراوات" يعطيهم دون إبداء أي تذمر خصوصاً عندما يطلبون أن يقرضهم مالاً ولكنه يجعلهم يوقعون أو يبصمون على إيصال القبض، ويمر الموسم تلو الآخر والأرض جدباء ، والأمطار قليلة جداً ويأتي العيد ويذهب صبري وسعود وصايل وأبناء محمد الزهراء لزيارة رسمية في بيت "سليمان الهراوات" ويستغل الفرصة سليمان الهراوات ليذكرهم بديونهم وأنه صبر على دينهم أكثر من اللازم، فالدين

---

[١] أحمد عوض : العذراء والقرية ، ص٦٢.

[٢] السابق: ص٦٤.

يجب أن يسد قبل موسمين على الأقل وأنه يحتاج لسيولة نقدية لتجارته، ولولا أنه يعرف ظروفهم جيداً لتصرف بشكل آخر ولحظتها " دقت قلوب القوم فهم لا يعرفون كم استدانوا بالضبط... وفي طريق العودة تناقشوا مسألة الدين هذه وأنّ أحداً لا يعرف كم استدان فتركوا الأمر لأمانة سليمان وضميره " [١].

ويخبرهم صايل بأن "سليمان الهراوات" قد صبر عليهم كثيراً وهو يطلب نقوده، فادّعى كل واحد منهم أنه لم يأخذ من البقالة ما يدعو إلى القلق فهي بضع دنانير قليلة، لكن سعود يذهب ليسأل عن دينه ويعدد له المشتريات لأن المبلغ كبير ومن بين المشتريات مذياع ببطاريتين لكن سعود ينكر ذلك وأنه لا يوجد عنده مذياع لكن سليمان يقول له : " إنه الدفتر، هل يكذب الدفتر؟... استبد الغضب بسعود... فقال بعنف: وما نهاية هذا الأمر.. كم تريد؟
فرك سليمان يديه وأخذ يقول إن ثمن المشتريات يصل إلى ثلاثين ديناراً وما أعطاه نقداً يصل إلى عشرة دنانير... صاح سعود: أربعون ديناراًً.. مستحيل... ليس هذا هو الموضوع يا سعود.

- وما الموضوع إذن؟
- تصور معي لو أنّي أملك المبلغ في يدي منذ سنين.
- لا أفهم ماذا تعني.
- أقصد لو أني رميت هذا المبلغ في التجارة، ألا يتضاعف هذا المبلغ؟
- وما شأني أنا بهذا؟... أنا لا أفهم. أفهم فقط أن الأربعين كثير.
- لا.. لا.. نحن متفقون على دفع هذا المبلغ بالإضافة إلى ما يربحه هذا المبلغ في سنتين " [٢].

هكذا يُظهر "سليمان الهراوات" حقيقة نواياه الخبيثة من وراء إقراض الناس وهو بذلك يتشابه مع شخصية اليهودي المرابي الجشع كيف لا وهو يتعامل مع اليهود ويهرب لهم البضائع ويرسل لهم المعلومات.

ويخرج سعود من بيت سليمان رافضاً أن يدفع له شيء حتى لو قطّعه ألف قطعة، ويخبر الخلجان بأنّ سليمان يتعاطى الربا ويهرّب البضائع لليهود ويتعامل معهم أيضاً، وهنا يأتي دور قائد المخفر " أبي فيصل" حيث يرسل الفرسان ويربط يديه بحبل ويشد إلى أحد الخيول ويحضره للسجن "يتكوم سعود ممزق الثياب دامي الوجه أمام أبي فيصل، ركله هذا في صدره ركلة قوية جعلت العجوز يصطدم بالجدار بقوة، ألا تريد أن تدفع الدين المستحق عليك؟... أخذ يكيل الركلات القوية

---

[١] أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية ، ص٩٦.

[٢] السابق: ص٩٩.

إلى صدر العجوز حتى تدفق الدم من فمه... وظل سعود أياماً في المخفر، أجبر في أثنائها على أن تصبح أرضه الوعرة الصغيرة ملكاً لسليمان الهراوات ما دام الدين قائماً " [١].

ثم تأتي المفارقة العجيبة أن يُجبر سعود على قبوله العمل في أرضه كما كان في السابق، ولكن نصف إنتاج الأرض يكون " لسليمان الهراوات " فهو يعمل في أرضه أجيراً حتى يسدد ديونه ولن يستطيع تسديدها وبذلك يتملك سليمان أرضه وإنتاجه في نفس الوقت، ويخرج سعود من السجن ولا يستطيع الحراك ويبقى رقيد الفراش حتى موته، وقد كان هذا درساً قاسياً لأهل الخلجان فأخذ سليمان بعد ذلك يملي ما يحلو له من شروط على المدانين بقوة ورهبة المخفر المتمثلة في أبي فيصل، هكذا بسط الهراوات سيطرته على أهل القرية وأصبح له نفوذ وقوة وسيطرة على القرويين كما استغل "سليمان الهراوات" حاجة وفقر أهل الخلجان في التهريب حيث كانت طريقة أخرى للرزق تحت حماية ودعم قائد المخفر أبي فيصل، وقد انقسم الناس على أنفسهم في مسألة التهريب فمنهم من رأى أنّها حلال ومنهم من رأى أنّها حرام.
ويكتشف "أحمد بن سعود" أن المهربين يهربون لليهود عندما ذهب في مرّته الأولى ليهرب مع خلدون ابن محمد الزهرا وطرغوت واعدينه بدينار كامل، ويتفاجأ أحمد بإيصالهم البضائع المهربة لإحدى المستوطنات القريبة " قال أحمد بصوت عال كأنما يعاقب نفسه" إذن نحن نهرب لليهود.
- وماذا كنت تعتقد؟
- اعتقدت أنك تبيع للعرب هنا.. اعتقدت أنك تغامر بحياتك لا أن تبيعها " [٢].

ويعلم المهربون في قرارة أنفسهم أنهم يقترفون إثماً كبيراً من خلال تهريبهم البضائع لليهود لكن الفقر هو السبب، وأصبح الفقر هو الشماعة التي يوضع عليها سلسلة أخطائنا فهو المبرر لكل شيء حتى العميل تعامل مع اليهود بسبب الفقر ونسوا أو تناسوا أنَّ الحرة تموت ولا تأكل من ثدييها "بصق خلدون وقال: الفقر.. الحاجة.. اللعنة على هذا المصير.. اللعنة على كل شيء.. هل تحس بالحاجة أيها الغبي.. قل لي ماذا حدث للخلجان.. التهريب لليهود غلط كبير" [٣].

نعم قد يصحو ضمير العميل فيشعر بالألم لما وصل إليه حاله لكنها صحوة عابرة. والمفارقة العجيبة أنهم يهربون لليهود وفي طريق عودتهم تطلق عليهم النار دورية يهودية كانت تمر أثناء عودتهم للخلجان ويموت إثر ذلك "طرغوت المهرب"، وما كان منهم إلّا أن أخذوا المال الذي

---

(١) أحمد عوض : العذراء والقرية ، ص١٠٠.

(٢) السابق: ص٦٩.

(٣) السابق: ص٧٢.

في جيبه ثم تركوه في العراء لتأكله الكلاب والسباع.. هكذا هو مصير المهرب يعيش في نظر الناس خائن مكشوف الستر ويموت كذلك دون أن يدفن ، ويُترك في العراء لتأكله الحيوانات .

لقد تساوت نهاية "طرغوت" مع نهاية "رسمية" حيث تقاطع كل منهم في حياتهم وموتهم فكما أن خلدون مات مكشوفاً دون أن يكرّم بالدفن ماتت رسمية مكشوفة ولم تكرّم بالدفن، وكأن الكاتب يريد أن يقول لنا أنّ هذه النهاية هي نهاية كل خسيس ونذل باع نفسه من أجل دنانير، فخلدون قبل أن يهرب لليهود من أجل المال ورسمية قبلت أن تخون زوجها دون مقابل ، وتزني مع أبي فيصل رمز الفساد الأكبر فكلاهما سواء في محياهم ومماتهم.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إنّ "سليمان الهراوات" كان يعطي المهربين أوراقاً أخرى مع البضائع المهربة ليوصلوها لليهود، فما هذه الأوراق التي يرسلها لهم "سليمان" ربما تكون معلومات عن أهل القرية، وعن المظاهرات التي تحدث في يعبد، وربما تكون الوصولات التي بمقتضاها بيعت أراضي القرويين المدينين لسليمان ومن ثَمّ باعها لليهود ربما، بأي حال من الأحوال هذا الخبر الذي نقله "أحمد بن مسعود" عما حدث في "وادي عارة" من مشاركته في عملية التهريب لليهود قد هرب الناس وجعلهم غير قادرين على التصديق للوهلة الأولى " لكن أبناء محمد الزهراء وأبناء حمد الله قالا أن ذلك أقل ما يقال عن الكلب " سليمان الهراوات "، وصرخوا في بيت صايل أنهم يشعرون بأنفسهم كأقذر خلق الله، لأنهم نقلوا أوراقاً أيضاً مع البقر والغنم والبضائع الأخرى، وسألوهم عن هذا الورق فقالوا إنهم لا يقرأون ولا يكتبون حتى يعرفوا ما المكتوب، بالإضافة إلى هذا فإن المظروف مختوم بالشمع الأحمر فلو فُتح لعرف اليهود بذلك، وبصراحة نحن أضعف من أن نفعل ذلك، وما الذي يهمني لأعرف ماذا أنقل ما دمت أقبض نقوداً أشتري بها الخلجان كلها"[١].

وهكذا يشعر المهرب بحقارة عمله الدوني لكنه في ذات الوقت لا يهمه الوسيلة طالما غايته المال ويصر أبو فيصل على الاتصال بالجماعة –اليهود– في الجهة الغربية لآخر مرة في هذه المرحلة على الأقل وذلك للحراسة الصارمة من قبل الحرس الوطني فيطلب من خلدون ومحمد الزهرا وعامر بن حمد الله تسليم مظروف صغير إلى الجماعة في الجهة الغربية واعداً إياهم بمبلغ كبير عند العودة.

---

[١] أحمد عوض : العذراء والقرية ، ص٩٧.

إن شخصية " سليمان الهراوات " الداهية الخبيث الذي يتقن فن النفاق والتملق الاجتماعي ليتستر خلفها لسرقة عرق البسطاء من الريفيين وتسخيرهم في عمليات التهريب والتخابر مع اليهود من أجل بناء ثروته المادية الطائلة.

ذلك يعكس لنا ما كان يعيشه الناس من حالة التناقض بالإضافة للفقر المدقع والقمع السياسي والقليل من الثراء المادي لبعض المستفيدين ونفاق وخيانة، كل ذلك كان مقدمة لنتيجة محتومة نؤكد عليها خلال دراستنا لتلك الشخصيات ،وهي أن الفساد بكل أشكاله المادية والجنسية والاجتماعية والروحية والسياسية يؤدي إلى النتيجة المتوقعة ، وهي الهزيمة التي حلت على شعبنا الفلسطيني عام ١٩٦٧م، فالرواية بدأت أحداثها عام ١٩٤٨م وهو عام النكبة فإن أحداثها تنتهي بسقوط عربي كلي عام (٦٧)، فالسقوط بدأ من فلسطين وانتهى بسقوط كل العرب.

فالكاتب أراد أن يصف لنا الفساد الاجتماعي داخل الكيان الفلسطيني معتبراً إياه مقدمة منطقية للهزيمة، فالهزيمة لم تأت فجأة وإذا كان النصر يحتاج إلى حاضن اجتماعي يدعمه ويوصله للحظة الانتصار المنشودة فإن الهزيمة من مكوناتها نفس ذلك الحاضن المؤدي إلى الهزيمة كما يؤدي إلى النصر.

ج- خالد الهراوات:

رواية العذراء والقرية

وهو شاب من أسرة غنية، تزوج من فتاة ريفية ذات جمال عظيم وهو شخصية طابعها العام الضعف ويظهر ذلك من خلال سيطرة والده على مجريات حياته، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فهو يعاني من الضعف الجنسي يصل إلى وصفه بأنه (عنّين)، بالإضافة إلى أنه يستمتع ويتلذذ حين تضربه زوجته بل ويصر عليها ويستجديها بأن تضربه وحين تصر والدته التوجه لطبيب بعدما أخبرتها زوجته بأن عدم الإنجاب من ابنها، لحظتها تنكشف الحقيقة ويعلن الطبيب أنه لا ينجب ورغم ذلك تبقى زوجته على الزواج المفرغ من محتواه الحقيقي فلا يوجد بينهما أولاد ولا هناك علاقة حميمية بل علاقة مرضية قائمة على استمتاع الزوج بضرب زوجته له.

وتدفعه رسمية للعمل ، وقالت له بأنّ من العيب أن يطلب الرجل مصروفاً من أبيه، ويطلب من أبيه "سليمان الهراوات" بأن يوجد له عمل ، ويستشير سليمان أبا فيصل في هذا ويخبره أبو فيصل بأنه سيقبله في الشرطة، ويرجع بعد شهر من التدريب بالزي العسكري، حيث يكشف لنا عمله الجديد عن صفات وطبائع جديدة في شخصيته، فينزل خالد لتفريق المظاهرات المحتجة على الفساد المستشري وينادوه بزوج رسمية فيطلق عليهم النار ويصاب بكسر في ذراعه وتمزق سترته

وينتف شاربه، وعلى إثر هذا الحادث نقل خالد إلى القلم السياسي، ويحاول أبو فيصل إقناع خالد بأن عمله الجديد هو عمل وطني تخدم من خلاله الوطن بملاحقة العملاء فهي مهمة صعبة لكنها مقدسة، يقول أبو فيصل: "إنه بذلك يمكن حل المسألة، فيعبد بلد حدودية ومهمة ملاحقة المتعاملين مع اليهود مهمة صعبة ولكنها مقدسة " [١].

لقد أسقط أبو فيصل خالد في وحل العمالة دون أن يشعر خالد بشيء ويقبل خالد ذلك العرض بدافع الوطنية رغم أنه كان يرغب بسؤال المسؤولين له قبل نقله عن التجاوزات والسرقات والبضائع المهربة والمواد التموينية التي تذهب لبيوت الضباط حيث إن أبا فيصل هو المسئول عن كل ذلك.

وفي يعبد يمارس خالد دوره بجد واهتمام فقد أحب هذا العمل الجديد، وتحدث مظاهرات في يعبد وتلاحقهم الشرطة ويهرب أربعة من الشبان في بيت "سليمان الهراوات" وتستقبلهم رسمية وتقدم لهم الطعام وحين يأتي خالد يقابلهم بوجه حسن وأخذ يستفسر منهم عن المظاهرة ومن الذي أخرجهم من المدرسة وأوصافهم، فأخبره " واصف " بذلك وحاول خالد أن يجعل من واصف متعاوناً مع القلم السياسي.

والجدير ذكره أن الشرطة كانت تتعامل مع المساجين على أنهم عملاء وخونة فكانوا يقولون لهم "اسكت يا خائن كلنا خونة يا بيك.. كلكم خونة، ألا تسعف أحد الخونة بكأس من الشاي، لا أوامر عندي... تأدب يا خائن في الحديث... جاء شرطيان أسودان طويلان، تناولاه... ثم انهالا عليه بالضرب المبرح، لم يحتمل كثيراً، فقد أغمى عليه"[٢].

هكذا كان حال الشرطة والقائمين عليها فالحقيقة مغيبة عنهم تماماً فقد تم تسخيرهم لخدمة اليهود تحت دافع وطني وكأن التاريخ يعيد نفسه مراراً ... .

ويزدهر عمل "خالد الهراوات" إزاء هذه الشدة حتى أصبح الكل يخافه ويرهبه فهو يستطيع أن يعتقل من يريد وهو لا يرحم أحد فقد سبق أن اعتقل أهل رسمية "وللإنصاف فلم يكن خالد الهراوات يفرق بين أبناء الهراوات أو أبناء الرواحين، فمن يحرض يعتقل، ومن يوزع منشورات يعتقل، ومن يستمع إلى إذاعة معادية يعتقل"[٣].

---

[١] أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية، ص٩٣.

[٢] السابق : ص٢٧٨.

[٣] السابق: ص١٦٢.

وبذلك يعمل خالد على استتباب الأمر وملاحقة الخارجين عن القانون وتخرج الأمور عن تلك الرتابة حينما أخبر صبري بأن المهربين من أبناء محمد الزهرا وأبناء حمد الله يعملون لحساب أبيه، وأنهم يقطعون الحدود عن طريق وادي عارة ويبيعون البضائع والمعلومات لليهود، وأن قائد المخفر أبو فيصل يشترك مع أبيه في التهريب " ذُهل خالد؛ فقد جاء إلى الخلجان وفي نيته أن يكشف سر أبي فيصل، فإذا به يكشف سر أبيه، صاح بعنف شديد: أنت تكذب، أبي يكره أبا فيصل، وأبو فيصل يكره أبي"[١].

ويبدأ خالد في صراع نفسي مرير حيث يعاتب نفسه فأين كان هو والقلم السياسي من تلك المعلومات الخطرة ويصارح زوجته مستشيراً إياها بأن أباه يهرب لليهود ويتعامل معهم هو ، وأبو فيصل، ويتذكر المظاهرة التي اصطدمت بالشرطة قبل عدة شهور حيث يرى عمله قبيحاً " كان المتظاهرون يقولون أن يعبد مليئة بجواسيس اليهود، أما الشرطة فقد انهالت على الناس بالعصي والسياط.. كم أرى ذلك بشعاً الآن.." [٢].

ويفكر خالد مع رسمية كيف يعمل في هذا الأمر فتقول له بأن يعتقل أباه فيرفض ذلك فتقول له كيف يعاقب أبا فيصل دون المساس بأبيه فهما شركاء في الجريمة.

ويستبعد خالد معاقبة أبيه بل ويفكر له في مخرج كأن يسفّره خارج البلاد، هكذا إذن أصبح خالد يعمل لصالح اليهود بشكل غير مباشر ودون أن يعلم أنه يتعامل معهم فقد أوهمه أبو فيصل بوطنية عمله ضد الخارجين عن القانون موهماً إياه بأنهم عملاء ويجب اعتقالهم، وبهذا الدافع الوطني انطلق خالد في عمله، ولكنه حينما اكتشف تعامل والده مع اليهود لم يتصرف بشكل وطني ويعتقل أبيه بل حاول إيجاد مخرجاً له، وهذا متوقع من شخصية منحرفة منذ بداية السرد، فهو شخصية دونية يطلب من زوجته أن تضربه لتشعره بالمتعة.

٥- شخصية اللاجئ :

بمجرد إعلان الكيان الصهيوني قيام دولته عام ١٩٤٨م، تم تهجير المواطنين الآمنين من بيوتهم، وبذلك انهارت طبقات وشرائح المجتمع الفلسطيني وأصبحوا شتاتاً ولاجئين مشردين تجمعوا في مخيمات أقامتها لهم وكالة الغوث في فلسطين أو في بعض البلدان العربية، وقد تكرس هذا التشرد مريراً علقماً في نفوس الفلسطينيين الذين غادروا ديارهم، وبدأوا يحاولون الانسجام مع

---

[١] أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية، ص٢١٥.

[٢] السابق : ص٢٢١.

المجتمعات التي هاجروا إليها معذبين يجب الشفقة عليهم ، ومنهم من رآهم أقوياء مجدين لا تثنيهم الصعاب، ومنهم من رآهم فقراء ينتظرون هِبَات الأمم المتحدة.

"هذا النزوح أدى إلى ذوبان الفوارق بين الفلسطينيين... فمارس الفلسطينيون الأعمال الشاقة والوضيعة في منافيهم، ولولا أن وكالة الغوث قامت بفتح المدارس لما استطاع اللاجئون تعليم أبنائهم ولكانت حالتهم قد ساءت بصورة لا يتصورها عقل إنسان"(١).

وقد انعكست معاناة اللاجئ الفلسطيني في روايات أحمد رفيق عوض، حيث بينت معاناته والاضطهاد الذي تعرض له إثر تهجيره من أرضه، وتعرض لنا رواية (العذراء والقرية) مأساة اللاجئين من بداية الرواية حيث اعتبر أهل القرية مَنْ قدم إلى الخلجان بعد ١٩٤٨م وهو عام النكبة -الذي قامت فيه دولة اليهود- اعتبروهم " لاجئون ".

لقد قام "أحمد رفيق عوض" بمعالجة ظاهرة اللاجئين من خلال رواياته بجرأة عالية وشكل أدبي راقٍ بحيث بيّن من خلال رواياته معاناة اللاجئين الفلسطينيين والتي لا يزالون يعانون من آثارها النفسية العظيمة، حيث إنّ اللاجئ شعر بالضعف والانهيار الشديد مما جعلهم يتكاثفون فيما بينهم ويكونون جسماً واحداً ضد التكتلات العائلية التي كانت سائدة آنذاك، وهذا ما سنوضحه ونبينه فيما يلي، كما وركز الخطاب الروائي على إبراز الحنين والشوق واللوعة لتراب الوطن الذي يلازم خيال اللاجئ الفلسطيني طوال حياته إلى مماته، وسنخصص هذا الحديث عن عدّة شخصيات تمثل ظاهرة اللجوء منها (الشيخ عثمان وزوجته، وعبد الرزاق، وحسن أبو شامة) .

أ- الشيخ عثمان وزوجته :

رواية العذراء والقرية

فقد كانا أول القادمين إلى الخلجان هو وأبناؤه وزوجاتهم وقد جاء من قرية " أم الزينات" بحيفا، وكان رجلاً غنياً يطعم كل ليلة في ديوانه ستين مسكيناً، ولمّا هُجّر من أرضه لم يستوعب هول الصدمة ،فجُنّ وساح في وهاد الخلجان يصيح في وجوه أناس غير معروفين، أما زوجته " أم حلمي" فقد كان يضرب بها المثل بالكرم والجود فكانت امرأة كريمة يضرب بها المثل في الكرم والجود فهي تفرق الخروب والزيت والسمسم على الفقراء، وقد حاول أحد أصحاب الأراضي في يعبد أن ينتهزها مرتين مستغلاً حاجتها وفاقتها ؛ فبكت كثيراً ، وصاحت في وجهه أنها كانت توزع الزيت ، والسمسم والخروب على المحتاجين والذي لو بيع لاشترت بثمنه يعبد بمن فيها، وترفض

---

(١) محمد أيوب : الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة في الضفة الغربية وقطاع غزة، ١٩٩٦م، ص٤٩.

الاعتراف بأنها لاجئة هذه السيدة العظيمة التي حُرمت الأولاد ولكن زوجها أنجب أولاداً من زوجة أخرى فاعتبرتهم أولادها فغيرة النساء لم تكن عندها فأصبح الأولاد أولادها.

ومهما ابتعد اللاجئ عن أرضه التي نشأ فيها وترعرع تبقى ذكرياته الجميلة في خياله هي الدافع نحو استمرار الحياة ، ويتذكر الشيخ عثمان أم الزيات التي لم تغادر خياله فبالرغم من انتقال اللاجئين من فلسطين (٤٨) إلى فلسطين (٦٧) إلّا أنهم قد أحسّوا بلوعة الغربة داخل الوطن الواحد " رأى جرن القهوة الذي يدق كل مساء ورأى حوله أصحاب العمر، انحدر عن الجبل وهو يصيح صياحاً عظيماً، يا رب الكون.. تلك أم الزينات"[١].

وبعد تلك الكلمات التي نطق بها "الشيخ عثمان" يرى أم الزينات التي لم تفارق خياله وتكون آخر ما يرى في هذا الكون ويسقط على الأرض لا ينهض بعدها، في تلك اللحظة التي لم يعلم أحد بموت "الشيخ عثمان" تتذكر زوجته "أم حلمي" الأيام الجميلة التي عاشتها في "أم الزينات" كرماً وعطاءً وإحساناً، ويصرخ أحد الرجال الذي تعثر بجثة "الشيخ عثمان" بأنه قد مات ولكن أم حلمي في عالم آخر " أما السيدة الجليلة أم حلمي فقد سمعت الصراخ هي أيضاً... فلما تأكدت انهارت كل الجدران والمسافات والمساحات، برزت أم الزينات أولاً ثم برزت دار بيضاء فيها أب وأم وأخوات وأخوة... وتعثرت السيدة الجليلة فسقطت على جبهتها فلم تنهض مرة أخرى إلى الأبد"[٢].

وهكذا وكأنها على موعد مع الوفاء لزوجها حتى في الموت وتدفن هي وزوجها في غير أرضهما في قبرين متجاورين تحت شجرة زيتون برية ليست ملكاً لأحد، وفتح بيت عزاء ليتقبل التعزية أمثالهم من اللاجئين، هكذا كتب على اللاجئ أن يموت في غير أرضه، وقد كان الشيخ عثمان وزوجته أول من مات من اللاجئين في قرية الخلجان.

ب- عبد الرزاق اللاجئ :

عبد الرزاق وزوجته وأولاده، وهو من " قاقون" وكان حرّاثاً في أرض أحد الإقطاعيين في حيفا، ولما رأى أرض الخلجان جرداء استطاع أن يثبت مهارته في حراثة الأرض، وكما أنه كسب احترام أهل الخلجان فقد كان رجلاً مكافحاً رغم المحن التي ألمت به وقد كان حريصاً على تعليم أبنائه في المدرسة كما كان صاحب نخوة حيث آوى في بيته الذي استأجره الشيخ عثمان وزوجته، وكغيره من اللاجئين يسجل عبد الرازق اسمه في وكالة الغوث ليحصل على إعانة.

---

[١] أحمد رفيق عوض :العذراء والقرية، ص٥٨.

[٢] السابق : ص٦٠.

ويهاجر مرة أخرى عبد الرازق إلى إحدى قرى طولكرم بسبب القحط الذي حلّ بالخلجان، وكأنه كتب على الفلسطيني أن يبقى مرتحلاً طوال حياته فما إن تنتهي هجرة إلّا وتأتي أخرى، ويعود عبد الرزاق إلى الخلجان ومعه عرض من أبي جميل بأن يستصلح أربعين دونماً وعراً ، ويعمّرها ويقوم بزراعتها لوزاً وتيناً ثم تصبح نصفها له بعد عشر سنوات، وكتب له عقداً وأشهد عليه شهود، ويحدث صايل بما حصل معه وهو يكاد يطير عن الأرض من شدة الفرح فأخيراً سيصبح له أرض بعدما كان يخدم في أرض الآخرين.

لقد استطاع الخطاب الروائي أن يخلق حياة جديدة للاجئ بحيث يصبح موطناً بديلاً وبذلك يندمج اللاجئون في المجتمع الجديد أكثر، وهذا قد أفرز علاقة أكثر تركيزاً مع المكان، وأمكنهم من التفاعل المكاني ، والتفاعل الاجتماعي مع ساكني المكان... لذا فالوطن بالنسبة للأبطال الشخوص هو المكان الذي يحس الإنسان فيه بالملك ، إنه يمتلك في المكان ويشارك فيه ، وهذا ما دفع عبد الرزاق لإصلاح أرض " زاهري" للشعور أنه يشارك في المكان الذي هو في نهاية المطاف تحقيق لغريزة حب البقاء. (١)

لكن الفرحة لا تكتمل؛ فقد كانت الأرض منحدرة شديدة الوعورة صخرية ، ولكن عبد الرزاق يصمم على تعمير الأرض ويستعين " بحسن أبو شامة " وهو لاجئ آخر سنتحدث عنه فيما بعد، وقد استطاع " عبد الرزاق " يساعده حسن أبو شامة، أن يصنعا أعجوبة خلال ثلاثة أشهر فقط حيث تحولت أرض زاهري إلى شيء آخر فقد اختفت الصخور ولما رأى أبو جميل الأرض "حلف بالطلاق أن الجن هي التي ساعدت عبد الرزاق، فقال عبد الرزاق بحياء إنه يحلم يوماً بامتلاك أرض له، أرض تكون ملكاً له... وقال إنَّ أمثاله لا يرون لحياتهم معنى دون أن يخدموا التربة"(٢).

إن الأرض تمثل للاجئ ما تمثله الماء للسمك، فهو دون أرض يموت ويتلاشى، لقد أظهر الخطاب مدى تمسك اللاجئ بأرضه وأظهر استبسال عبد الرزاق في استصلاح الأرض لكي يصبح الحلم حقيقة ، ويعطي أبو جميل عبد الرزاق نقوداً ليشتري بذور لوز وعقل تين.

كما ويظهر لنا الخطاب مفارقة بين شخصية لاجئين في تعاطيهما مع الواقع الجديد "عبد الرزاق" المجد والمثابر والمجتهد والذي استصلح أرضاً صخرية بمعجزة أذهلت الجميع وبين الشيخ "سعد الدين" المستكين ، والمستسلم للحياة والذي يستعين بالخرافات من السحر ، والشعوذة والأساطير واستحضار الأرواح وهو غير مهتم بما يحدث حوله ، ولا يسعى لكسب رزقه لأن الله يطعمه ويسقيه فهو مثال للمواطن السلبي الاتكالي ويظهر ذلك من خلال حوار بين "حسن أبو

---

(١) علي الخواجا: جوائز الفحم، ص٤٦-٤٧.

(٢) أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية، ص١٨٢.

شامة" وبين تلميذ الشيخ "أحمد بن سعود" المنبهر بالشيخ يقول حسن أبو شامة: "إن عبد الرزاق استطاع أن يحول أرضاً قاحلة إلى أرض ترابها كأنه الحناء.. فماذا فعل شيخك؟، الشيخ سعد الدين.. كيف أقول ذلك؟ إنه وليّ من أولياء الله الصالحين نعم إنه وليّ.. هل اشتكى الفقر يوماً.. هل اشتكي قلة المال.. إن الله يطعمه ويسقيه.. إنه رجل لا تهمه دنيانا ولا مشاكلنا"[١].

لقد أصرّ "عبد الرزاق" على استصلاح أرض جرداء وفي اللوحة المقابلة ظهرت شخصية دينية مستسلمة مستكينة خالفت بذلك المنهج الإسلامي الداعي إلى عدم الاستسلام وإلى العمل لأفضلية العامل على القاعد المستكين الذي يتعامل مع الخرافات والجن واستحضار الأرواح وكل تلك الخزعبلات والتي لجأ إليها لتبرير ضعفه وهوانه.

ولم يقف الأمر عند الشيخ سعد عند هذا الحد بل بدأ ينشر مرضه ليصاب بتلك اللوثة "أحمد بن سعود" الذي أصبح طالباً عنده وخادماً له فعندما سأله خالد عن عمليات التهريب في الخلجان وقام بصفعه على وجهه لم يحرك ساكناً بل قال له أنه يستطيع أن يحوله إلى حجر أو إلى أي حيوان آخر ، وينتدبه أهل الخلجان "أحمد بن سعود" ليتحدث مع "سليمان الهراوات" ويطلب منه سندات الدين والأوراق التي يستعملها حجة له في الأرض، ووقف أمامه متلعثماً ضعيفاً لم يستطع الكلام بثقة واعتداد وبعد عناء يفهم سليمان طلب أحمد ومن ثمّ يطرده بكل صلف وغرور وأحمد لا يحرك ساكناً ويحدث عبد الرزاق عن هذا الموقف قائلاً له بأنه قد عمل عملاً عظيماً يقول: "لقد التقطت أثراً من سليمان الكلب خلسة سأستعملها في سحري.. سأحوله إلى كلب.. لا.. سأحوله إلى حجر يتطيب به من يقضي حاجته في العراء"[٢].

هكذا بدا أحمد ضعيفاً لا يقوى على شيء فيلجأ إلى الأساطير والخزعبلات لعلها تفعل شيئاً بديلاً عن ضعفه وهوانه، ويقلل عبد الرزاق اللاجئ من أمره وأنه يجب أن يعتمد على يده لا على السحر والشعوذة يقول له: "أنت لا تؤمن بما نفعله.. أعني أنا والشيخ سعد الدين.. تعودت يا شيخ أحمد أن أرى جهد يدي..." [٣].

ويصر أحمد على ضعفه وهوانه فعندما سأله عبد الرزاق ماذا ترى في الغرب قال: "أجد اليهود ودولتهم، فما قولك، أقول.. سأنتظر عباداً لله ذوي بأس شديد، وفي أثناء ذلك نحني رقابنا ونمد يدا سفلى لأبي جميل وسليمان الهراوات"[٤].

---

[١] أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية، ص١٨٤

[٢] السابق : ص٢٧٣.

[٣] السابق ص٢٧٣.

[٤] السابق: ص٢٧٤.

لقد أظهر لنا الخطاب درجة الاستسلام الكبيرة التي عاشتها فئة من المجتمع الفلسطيني والذي كانت نتيجته الهزيمة الأكيدة فبدل انتظار عباد الله أصحاب البأس الشديد والارتكان على ذلك، كان واجباً أن نصنع المجد بأيدينا وأن نعجل النصر بالعمل الفاعل والمثابرة ؛ فالنصر لا يتم بأمثال أحمد إطلاقاً، إنّ النصر بحاجة لأيدي كأيدي عبد الرزاق وحسن أبو شامة.

ويملأ الطمع عين "أبي جميل" عندما رأى معجزة عبد الرزاق التي حققها بعرقه وجهده حيث صار يطالب بأرض "زاهري" بعد أن رأى أنها أصبحت أرضاً مفتلحة "إذ قال لعبد الرزاق أنه على استعداد لإعطائه خمسة عشر ديناراً مقابل تمزيق العقد المكتوب بينهما، رفض عبد الرزاق العرض قطعياً، فأغرى أبو جميل بعض شبان من عائلته لمضايقة عبد الرزاق، ولكن عبد الرزاق حلف بالطلاق أمام كل الناس أنه سيقتل كل من يتلف شجرة... فهو على استعداد لأن يدمر الدنيا مقابل أن يصبح له شبر من الأرض"(١).

لم يكن هناك ثمة شيء يخسره "عبد الرزاق" لذلك فهو على استعداد لأن يموت في سبيل أرضه، فقد خسرها مرة وهو غير مستعد لخسارتها مرة أخرى بعدما استصلحها وشجّرها، وهذا يدلل على مدى تجذُّر اللاجئ الفلسطيني بأرضه وانتمائه لها.

وفي وسط هذا الجو المشحون بالعنف والتحدي تطل ذكرى "قاقون" إلى خيال عبد الرزاق اللاجئ فهو يعيش على تلك الذكرى التي تمثل له إكسير الحياة ويظهر ذلك من خلال المونولوج الداخلي الذي يظهر لنا مكنوناته الداخلية " قاقون، لا تذكرني أرجوك، لا تذكرني، إن الذكرى تحرق قلبي، قاقون لم تعد لي أبداً، قاقون امتلكها اليهود أما أنا فقد أصبحت لاجئاً أبحث عن عائلة كبيرة تحميني"(٢).

ويشعر عبد الرزاق باليأس والإحباط لأن مساعي إقناع أبي جميل بالعدول عن طمعه وتنفيذ ما اتفق عليه مع عبد الرزاق قد باءت بالفشل الذريع، ويشترط عليه أبو جميل إقناع اللاجئين بعدم مناصرة أعداءه الرواحين مقابل تنفيذ الاتفاق، وهنا يشعر عبد الرزاق بخيبة الأمل لأن أبا جميل يطلب منه المستحيل لذلك يستحضر عبد الرزاق صورة الموت ويصوره على أنه لذيذ ومدهش جاعلاً من الموت مفراً من كل تلك الأمور ولحظتها يشعر عبد الرزاق بمرارة ضياع البلاد التي تعني الموت، يقول عبد الرزاق: " الآن أدرك معنى ضياع البلاد. ضياع البلاد؟ نعم.. ضياع.. لا.. ليس ضياع.. بل هو الموت.. أتدري أني فكرت اليوم بالموت..." (٣).

---

(١) أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية، ص٢٢٣.

(٢) السابق : ص٢٧١.

(٣) السابق : ص٢٧٣.

وتظل فكرة الموت مهيمنة على ذهن عبد الرزاق لشعوره بأنه الحل لكل تلك الأزمات التي يعيشها ففي الموت تكون الراحة والطمأنينة بالنسبة للاجئ الذي يرتحل من مكان إلى آخر وما إن يبدأ بالتأقلم في مكان ما إلا وتأتى هجرة أخرى لكن الموت لا هجرة بعده .

وتنتهي هذه المأساة بمشهد مؤلم مليء بالتساؤلات المحيرة يقول عبد الرزاق: " لماذا نقتل ونشرد وتصادر أرضنا وأثمارنا؟ هل تعرف الإجابة؟ لا أعرف الإجابة.. ولكني أحزن.. أحزن كثيراً..." [١].

لم تحل قضية عبد الرزاق مع أبي جميل فالكاتب أبقى نهايتها مفتوحة رامزاً بذلك للقضية الفلسطينية فعبد الرزاق رمز لمعاناة اللاجئ الفلسطيني الذي هُجّر من أرضه ولم تُحل قضيته بعد .

ج- حسن أبو شامة:

وهو من "قيسارية" وقد اشترك في الدفاع عن حيفا إبان حرب الـ (٤٨)، وأصيب بالخبل الخفيف حيث فقد الاهتمام بكل شيء وذهب الحماس الذي جعله يشترك في عصابة "الكف الأسود" التي دوخت البوليس البريطاني وعملاءه في شوارع حيفا، وعندما مات اللاجئ الشيخ عثمان وزوجته وقف على قبرهما متسائلاً " أطرق كثيراً عند القبر وسأل نفسه عن شعور الإنسان يموت في غير أرضه ويدفن بالقرب من غرباء، لم يعرف الجواب فبحث عن حجر ودق به رأسه مرة، فلم يحس بألم كثير، فكرر ذلك حتى سال منه الدم، رأته زوجته فأخذت منه الحجر دون مقاومة وارتمى على كتفها وقال: كيف طعم البحر في قيسارية؟"[٢].

إن مرارة البعد عن الوطن رغم أنه انتقل من وطنه إلى وطنه لكن هذا الانتقال جاء قسراً فأصبح في يوم وليلة في عداد اللاجئين، ينظر إلى القبر وهو يرى أنه ذاهب لنفس هذا المصير "الموت بعيداً عن الوطن" إنها مرارة ما بعدها مرارة.

وتبقى ذكريات قيسارية الجميلة هي الوقود الذي يجعل حسن باقياً على قيد الحياة، وهو قوي صاحب نخوة عُرف بها عند اللاجئين حيث ساعد عبد الرزاق في استصلاح أرض زاهري الصخرية وتكون مهمته تحطيم الصخر، وهناك يصدّع رأس عبد الرزاق بالحديث عن حيفا وأيام حيفا.

وقد عدّ أهل الخلجان البسطاء "حسن أبو شامة" مرجعاً لهم فقد كان يفهم ويعرف في السياسة، وفي حوار معهم يوضح لهم ما الذي حدث في فلسطين وما الذي نتج عن حرب (٤٨)

---

[١] أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية، ص٢٧٤.

[٢] السابق: ص٦٠.

بشكل مبسط لكي يفهمه البسطاء منهم يقول: "كانت فلسطين مثل هذه الخروبة تماماً، يحق لكل عربي أن يجلس تحت ظلها، وعندما جاء اليهود أصبح الظل المسموح به للجلوس لا يتجاوز راحة اليد.

- لماذا نجلس كلنا تحت ظل الخروبة؟
- لو قبلنا نحن لما قبلوا هم"(١).

ويخرج "حسن أبو شامة" عن صمته الطويل عندما جاء "سليمان الهراوات" ذلك المرابي يهدد آل ذيبان بأن عليهم أن يسددوا الديون المستحقة عليهم فصاح "حسن أبو شامة" قائلاً لسليمان الهراوات: " أنت مرابٍ أيها السيد... اقترب سليمان من حسن، ثم صفعه بجماع يده، فما كان من حسن إلّا أن هوى بلكمة صاعقة على بطن الرجل، فطار سليمان عن الأرض بمقدار قدم أو قدمين، وتكوم بعيداً بالقرب من حوافر فرسه المزينة"(٢).

وهكذا يتحدى حسن أكبر عائلة ويخرج عن خبله الذي يخفي تحته قوة هائلة وينصح "صبري" "حسن" بأن لا يذهب لتسلم المعونة الشهرية من الوكالة هذا الشهر ويجعل زوجته تذهب وحدها، فرفض ذلك وقال لولا المخاطر التي ألمت بي ما أصبحت هكذا، وأنكم لا تعرفون حسن بعد، ويصر حسن على الذهاب لأخذ معونة الوكالة، وتحدث هناك معركة كبيرة ويلتف حوله شبان صغار غلاظ يحملون هراوات غليظة فضحك حسن بصوت مرتفع وقال: "إذن أنتم الهراوات، سيريكم لاجئ... وانقضوا عليه، وكانت المفاجأة التي لم يحسب حسابها، فقد انتبه اللاجئون إلى حسن في وسط المعركة، صحيح أنه كان يصرع الرجال ولكنه لاجئ، لاجئ مثلنا، إذن ليرى الناس من نحن" .

وتنتهي المعركة لصالح اللاجئين، وتدخل الشرطة وينالها ما نال الهراوات من اللاجئين. وينتشر الخبر بأن اللاجئين غيلان فالشرطة لم تخيفهم فقد قاتلوهم كما قاتلوا الهراوات.

لقد كان لتهجير اللاجئين من أرضهم قسراً دوراً كبيراً في صقل شخصيتهم والتأثير فيها حيث شعر اللاجئون أن الكل يستضعفهم فاليهود شردوهم من أرضهم وها هم أبناء شعبهم " الهراوات " يستقوون على أخيهم " حسن " لذلك هبّ اللاجئون ليعلنوا للجميع أننا لسنا ضعفاء وسنريكم ماذا سيفعل اللاجئون .. لقد ترك تهجير اللاجئين من أرضهم أثراً سلبياً على شخصية اللاجئ وصل لوصفهم بأنهم غيلان لا يحسبون حساباً لأحد .

---

(١) أحمد عوض : العذراء والقرية ، ص١٤٧.

(٢) السابق: ص١٩٥.

وبعد هجرة الـ (٤٨) يُهجّر اللاجئون مرة أخرى في الـ (٦٧) فقد كُتب على الفلسطيني الترحال دائماً، وتبقى الذكرى زاده الذي يتزود به ويمنعه من الموت هذا حديث اللاجئين دوماً.. الذكريات ولما رأت وردة فاروق "صاحت بفرح حقيقي لاكتشافها الرجل بغتة: فاروق.. ما الذي جعلك عجوزاً؟ ضحك فقال: نعم.. ضحكة أيام حيفا.. يا ربي كيف تعود الأيام؟"(١).

لقد أصبح فاروق عجوزاً وهو لم يبلغ الأربعين بعد بسبب الهموم التي ارتسمت على جبهته فصنعت خريطة من التجاعيد والطرق التي توحي بالهرم والشيخوخة مما يؤكد مدى قبح الهزيمة التي ألمت بالفلسطيني فالهزيمة مرة لا يستساغ طعمها أبداً فالحسرة والهزيمة هما رفيقان ملازمان للفلسطيني على مدى الزمان .

وتبقى حرقة فراق "عثليث" علقماً في فم "سعود" وتلازمه إلى لحظة وفاته، وحين أراد أن يموت طلب من ابنه أن يخرجه إلى فناء الدار ليشم هواء عثليث، ويخرجه ابنه ليستقبل برد الشتاء القارس لاعتقاده أن هذه الريح تهب من "عثليث " ويبقى سعود يلتفح الهواء البارد وابنه مشفق عليه ثم ينزل المطر خفيفاً ثم يزداد والأب مصر على بقاءه ليكون آخر عهده بالدنيا هواء ومطر عثليث حيث عاش أحلى أيام عمره إلى أن أجبر على الهجرة منها عام النكبة، وعندما عاد به ابنه إلى داخل البيت بدا سعود فرحاً مسروراً وطلب من ابنه أن يحضر له الطعام لأن شهيته قد رجعت إليه بعد فراق طويل لها يقول: "الحمد لله أنهم لم يمنعوا ريحها عنا، ألا تشعر بالبرد يا أبي؟ لا.. لا أيها الأحمق.. هذه آخر مرة تلمسني فيها هذه الريح"(٢).

بقي أن نقول أنّ الخطاب الروائي في رواية "العذراء والقرية" قد أظهر حضوراً فاعلاً لشخصية اللاجئ، ويظهر ذلك جلياً من خلال تفاعل "عبد الرزاق" مع المكان الجديد واستصلاحه للأرض، وعدم استسلامه واستكانته لواقع التهجير المر، وكذلك تفاعل "حسن أبو شامة" من خلال مشاركته للأعمال الوطنية الذي وصل حد ضرب رأس الفساد "سليمان الهراوات "، فلم يوظف الكاتب حضور اللاجئين للاسترجاع والبكاء على اللبن المسكوب بل كان حضوراً فاعلاً أدى للمشاركة والبناء والتعمير والانسجام مع المكان الجديد.

كما وأظهرت الرواية تعاطفاً ملموساً مع اللاجئ حيث كانت حياتهم في الخلجان حياة جيدة وكريمة مما يؤكد على استيعاب أهالي الخلجان ، وانسجامهم معهم بل واعتبروهم جزءاً مهماً منهم،

(١) أحمد عوض : العذراء والقرية ، ص٢٩٨.

(٢) السابق: ص١١٨.

وقد كان ذلك بعكس ما حصل في يعبد حيث واجه اللاجئ فيها حالة من الاستعداء من بعض الأهالي وخصوصاً عائلة الهراوات التي حدثت معها معركة كبيرة بينها وبين اللاجئين عدما أرادوا ضرب "حسن أبو شامة" فآزره اللاجئون وقاموا بضرب الهراوات، فأشاع أبناء الهراوات أسماء لاجئات يتعاملن بالزنا ووصفوهن بالعهر، ووصفوا اللاجئين بأنهم ضيعوا أوطانهم لفسقهم وفجورهم وابتعادهم عن الدين الحنيف. (١)

لقد قدم لنا الكاتب شخصية اللاجئ بشكل راقٍ حيث نقف أمام رسام بارع يرسم لنا لوحة فنية متداخلة الألوان أعطت جمالاً وحسناً بحيث إن القارئ ما أن يمسك الرواية ليقرأها فلا يكاد يفلتها إلّا وقد أنهى قراءتها.

"ولقد تميز الكاتب بإبداع حقيقي في تحريك كم هائل من الشخوص والأحداث داخل أداة قص رائعة، فقد ظل متمسكاً بخيوط الأحداث والشخوص حتى بلغ قمة التأزيم والتشابك"(٢).

وقد أظهر لنا الكاتب مدى بشاعة وظلم الاحتلال للشعب الفلسطيني من خلال إبرازه لقضية اللاجئين المشردين الذين حرموا من أوطانهم، كما وأظهر عدم الاستقرار الذي عاشه الفلسطيني اللاجئ فما إن حاول الاستقرار في بلد ما إلّا ويجد اللاجئ نفسه مضطراً لهجرة أخرى فهو من شتاتٍ إلى شتات.

---

(١) أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية، ص ١٩٩.

(٢) علي الخواجا: جوائز الفحم، ص ٩٩.

٦- شخصية المغترب العائد

رواية العذراء والقرية

زهدي

وقد تطرقت الرواية إلى شخصية "المغترب العائد" من خلال " زهدي " ابن صبري، حيث أظهرت الرواية عدم انتماء "زهدي" لأرضه فهو يريد تركها غير مكترث بمن سيحرث أرضه فصبري كبير في السن وأبناءه صغار وليس له غير زهدي يقوم برعاية الأرض، ولكنه لا يفكر إلّا في نفسه ويصر على السفر إلى الكويت حتى وإن أغضب أباه قائلاً له أن أبناء الشيخ عثمان اللاجئ قد ذهبوا لغور الأردن فيرد أباه أنهم لا أرض لهم، أما أنت فأنت لك أرض يجب أن تتمسك فيها وترعاها، فيرد بكل استهانة أنه قد قرف الخلجان. [١]

وينتهي النقاش بذهاب زهدي إلى الكويت ويترك بيته وأهله ويغيب سنوات دون أن يسأل عنهم أو حتى يبعث بدينار أو حتى برسالة ويتزوج دون أن يشعر أباه وتمر الأيام والسنين ويرجع فجأة "زهدي" إلى الخلجان، ومعه زوجته التي تلبس ثوباً قصيراً يكشف عن ساقيها وذراعيها، وهو يلبس بدلة بيضاء ويلتقي زهدي بأبيه ويرغب الأب في معانقة أو تقبيل ابنه لكن زهدي "صافح أباه مصافحة فقط والتفت إلى المرأة وقال لأبيه إنها زوجته، فسلمت المرأة بأطراف أصابعها أيضاً"[٢].

ويخبرهم "زهدي" بأنه كان يعمل في شركة نفط كبيرة، وقد لاحظ الجميع تغيراً ملحوظاً في لهجته، وشرح لهم بعض الأمور التي تعلمها من الشركة، وعن الكويت وأهلها ولباسهم وطعامهم...

وفجأة يخترق صبري هذا الحديث و يسأل ابنه عن المال الذي أحضره والثروة التي جمعها من عمله في الكويت ، وقد أراد صبري بذلك أن يختبر ابنه الذي لم يتذكر أهله بدينار واحد طوال تلك السنوات فقال له ألف دينار ويشهق القوم لأن المبلغ كبير فيقول صبري: "اشهدوا أيها الناس أني أضع هذه الألف تحت تصرفكم لنرفع يد سليمان عن الأرض"[٣].

لقد عرف الناس كرم صبري الذي ليس له حدود فهو دائما معطاء منتمي لأهل قريته ولكن زهدي يصرخ في وجه أبيه ويرفض بشكل كبير قائلاً بأن هذا ثمرة جهد سنوات طوال ولن أفرط بدينار واحد مهما كان السبب .

فما كان من صبري إلّا أن أصرّ على موقفه وحلف بالطلاق أن يدفع الألف هذه وإلّا فلن يسمح له بأن يقترب من الخلجان وطرده من بيته ويذهب إلى بيت أخته رسمية وتستقبله أحسن

---

[١] أحمد عوض : العذراء والقرية، ص ٣٣.

[٢] السابق : ص ٢٠٤.

[٣] السابق : ص ٢٠٧.

استقبال ويستغل الموقف المرابي " سليمان الهراوات " والذي سبب لأهله العذاب بسبب أعماله الربوية معهم مما أدى لمشاركته لأرضهم وقوتهم، فأراد صبري أن يسد تلك الديون من مال ابنه زهدي، والمفارقة العجيبة أن زهدي يقبل مشاركة "سليمان الهراوات" في معصرة زيتون رغم علمه بما فعل مع أهله.

لقد أراد صبري أن يضع ابنه زهدي مباشرة أمام اختبار صعب لعلمه المسبق أن لا خير في هذا الولد العاق الذي لم يتذكر أهله سنين طويلة ولم يسأل عنهم ولم يشاور أباه في زواجه ، فأراد بذلك كشفه أمام الناس حتى لا يخدعهم ماله ومظهره .

وبذلك تكون رواية "العذراء والقرية " قد أظهرت أنموذجاً سلبياً للمغترب العائد الذي همه جمع المال ويعود لأهله متعجرفاً متكبراً حتى على أبيه الذي رغب في احتضانه لكن الابن يخاف على بدلته البيضاء من الاتساخ، وهذا نموذج مستقى من واقع الشعب الفلسطيني، فالكاتب قد جسد الواقع بطريقة أدبية راقية جداً أظهر فيها الجشع الذي ملأ قلوب البعض وأن المال يغير نفوس كثير من الناس.

٧- شخصية العامل الفلسطيني

رواية قدرون

عبد الهادي

بعد حزيران عام ١٩٦٧م دخل اليهود البلدة بسهولة تدعو للضحك ولم يكن هناك مقاومة تذكر سوى من بعض الشبان ولكن سرعان ما انتهت محاولاتهم باستشهادهم جميعاً، وأصبحت قبورهم مزاراً "ولما استتب الأمر للمحتلين الجدد عادت الحياة إلى وتيرتها، فانطلق الناس يعملون داخل إسرائيل، عملوا في كل شيء، عملوا في الحقول وبيارات البرتقال كمزارعين وعملوا في ورشات البناء كبنائين وفعلة، وعملوا في مصانع الحديد والغذاء والنسيج كعمال مهرة، وبلحظة واحدة، اكتشفوا أنهم يملكون نقوداً كثيرة"[١].

وبذلك يكون المحتل قد نجح في تحويل الفلاحين والمزارعين إلى عمال بل وعبيداً له، يعملون في الورش والمصانع والمزارع الإسرائيلية، وذلك من أجل "تدمير البنية التحتية للاقتصاد الفلسطيني والمتمثلة بالثروة الزراعية"[٢].

---

[١] أحمد رفيق عوض : قدرون، ص٧.

[٢] علي الخواجا: جوائز الفحم، ص٧١.

*يتحفظ الباحث على لفظ (إسرائيل) ويستخدم (الأراضي المحتلة ٤٨)

قلّة من الروايات الفلسطينية أظهرت قضية العامل، ومن ذكرها مرّ عليها مروراً عابراً، ويبرز الكاتب "أحمد رفيق عوض" هذه القضية مناقشاً أوضاع العامل الفلسطيني قبل وبعد الاحتلال كما ويظهر معاناته والاضطهاد الذي تعرض له والأسباب التي دفعته للعمل في الداخل، والأعمال القذرة والدونية التي كان يمارسها بينما الآخر (الإسرائيلي) يعمل الأعمال البسيطة ، كما وتظهر شخصية العامل الإسرائيلي غالباً على أنه (المعلم) الذي يشرف على العمال العرب ،والعربي دائماً ينفذ أوامره دون نقاش.

ويرسم لنا "أحمد رفيق عوض" ذلك الواقع من خلال شخصية "عبد الهادي" المزارع الفلسطيني الذي يعمل في أرضه ليل نهار لكي يطعم عائلته وعائلة أخيه الشهيد ولكن الأرض لم تعد تنتج كما في السابق أو حتى تسد رمق الجائعين فيعرض على أبيه "عثمان العظيم" أن يبيع جزء من الأرض لكن عثمان رفض رفضاً قاطعاً فقد كان "عثمان العظيم" متمسك بأرضه رغم كل المحن.

لم يجد "عبد الهادي" بداً من العمل في "الأراضي المحتلة (٤٨)" (إسرائيل) *خصوصاً وأن الناس قد حدّثوا الأعاجيب عن النقود التي تبعثر مثل الأرز وأن العمل مريح جداً، ويتردد "عبد الهادي" كثيراً لكنه يرضخ في النهاية لأنه يعيل أسرتين ويذهب "عبد الهادي" في تجربته الأولى للعمل في إسرائيل ويصل مع زملاءه إلى إحدى قرى "المثلث" حيث يأتي من يريد عمالاً إلى هذا المكان الذي تعارف عليه الطرفان ، سيحضر إلى هنا وينتقي العدد الذي يريد، ويأتي رجل يتفحص العمال عن بعد ويصف لنا الراوي هذا المشهد المؤلم : "تنحنح ثم بصق وقال: أريد رجلين قويين لحفر حفرة امتصاص... "بعيد عنكم". ثم بصق ومسح فمه بكفه، ادعى كل منهم أنه الرجل القوي المطلوب، عندئذ ود عبد الهادي لو اختفى، واجتاحه خليط من الحياء والخجل والإحساس بعدم القيمة، ولم يستطع كبح ما أحس به، فأخذت ركبتيه ترتجف، تصور نفسه أنه بهيمة في سوق الخميس، قارن بذهول أنه من عائلة معروفة كبيرة في قدرون يباع ويشرى هنا لحفر حفرة امتصاص، كان هذا أكبر من كل احتمال أو تخيل، قال لزميل له أنه سيعود إلى قدرون"(١).

لقد نجح الكاتب في إبراز شعور العامل المرير والمليء بالإهانة والتي يعانيها اللاجئون من الحاجة والعوز ومن ثم الرضوخ والتسليم لضرورات الحياة، وبذلك جعل القارئ يشعر بشعور العامل وبمرارته وألمه الذي وصل حد القنوط و اليأس ومن ثم الانهيار.

---

(١) أحمد رفيق عوض : قدرون، ص٢٥.

لم يستطع "عبد الهادي" أن يتحمل هذا الموقف فلقد كان أكبر من كل قدراته العقلية، فقد أحس نفسه كأنه في سوق نخاسة وأنه يعرض للبيع مثل أي شيء ليس له معنى، لقد أحس بأنه يفقد نفسه، لذلك يعود عبد الهادي مثقلاً بالأحزان والمرارة "ولما دخل على أبيه رمى رأسه بالقرب منه وبكى كما لم يبك من قبل، قال لعثمان العظيم من خلال دموعه إنه لم يستطع أن يتحول إلى بهيمة بسرعة هكذا"(١).

لقد استطاع الكاتب من خلال السارد العليم أن يصف لنا مشاعر العامل الفلسطيني في تجربته الأولى من خلال "عبد الهادي" بدقة بارعة حيث أظهر لنا مكنوناته الداخلية وما يدور في خياله وإحساسه، فهو لم يستطع أن يتحمل هذا المشهد ؛ فثارت عليه كرامته وعاد يبكي على كتف والده ، وهو ناقم على إسرائيل ، وإذلالهم للعرب.. .

لكنّ الحاجة تدفعه لخوض تجربة أخرى لعل أحاسيسه وكرامته تكون قد هدأت بدافع الفقر وإعالة أسرته وأسرة أخيه الشهيد، وبالفعل يتوجه إلى حيث يتوجه العمال مرة أخرى وهو مطأطئ الرأس من شدة الخجل وفجأة يدفعه صديقاً إلى سيارة زرقاء تابعة ليهودي، ويصعق "عبد الهادي" عندما علم بأنه سيعمل عند يهودي، ولكن سرعان ما يذهب هذا الشعور سريعاً عندما يتذكر حاجته وفقره .

يرى "عبد الهادي" جمال الشوارع ونظافتها وقد أحس بالغيرة لما يشاهده من مناظر البنايات وجمالها ونظافة الشوارع ..، وتتوقف السيارة بالقرب من الدفيئات البلاستيكية والتي تثير الدهشة والغيرة عند عبد الهادي "فتح إسرائيل باب الدفيئة ودخلوا، وكان الجو حاراً والهواء ثقيلاً، ولدهشته فقد رأى عبد الهادي المئات من نباتات الخيار معلقة بخيوط مشدودة إلى سقف الدفيئة، خيار في عز الشتاء"(٢).

هكذا بدأ العمل في اليوم الأول لعبد الهادي ويطلب منهم "إسرائيل" – اسم صاحب العمل – أن يشدوا نباتات الخيار للأعلى ويربطها بالخيط فهكذا تنمو النباتات إلى أعلى ، ويغادر إسرائيل تاركاً العمال ويبقى رأس عبد الهادي يضج بالأسئلة والاستفسارات لكنه شعر ببعض الارتياح فقد حصل على عمل وهذا العمل بسيط "وسأل أين هذا العمل من الذي نمارسه في أرضنا، تذكر قرفه واشمئزازه، صارح نفسه بأنه سعيد، ولم يشعر بالحرج قال لنفسه: العمل هنا ينقذ أسرتين كبيرتين... لم لا نقبل التضحية بسهولة لا بد من إعالة الجميع، أنا سأفعل ذلك"(٣).

---

(١) أحمد رفيق عوض : قدرون، ص٢٥.

(٢) السابق : ص٢٧.

(٣) السابق: ص٢٨.

لقد أظهر لنا "المونولوج الداخلي" الدافع من وراء عمل "عبد الهادي" في "الأراضي المحتلة" وتركه لأرضه التي لم تعد تفي بحاجاتهم ، وهو إنقاذه لأسرته وأسرة أخيه الشهيد، ويعلم أن هذا هو المصير النهائي له ولكن ليس ثمة مشكلة لأنه لا سبيل آخر ويحمل "عبد الهادي" الهزيمة نتيجة العمل في "الأراضي المحتلة" وبما أن العرب قد هزموا في (٦٧) إذن نحن عبيد لهم.. يقول عبد الهادي من خلال المونولوج الداخلي: "أصبحت عبداً لإسرائيل... أصبحت عبداً بسبب الهزيمة، هذا ليس جديداً، ألم نتعلم قديماً أن المسلمين كانوا يأخذون أسراهم عبيداً ونساءهم سبايا، لم يتغير الموقف، الآن نحن العبيد والسبايا، أنا عبد "لإسرائيل" وعبد للظروف وعبد للهزيمة وعبد للعائلة"[١].

واضح أن شخصية "عبد الهادي" تعيش أزمة روحية حادة قد مرّ بها المجتمع الفلسطيني عامة وهذه الحالة جاءت نتيجة للهزيمة المرة وبذلك يكون "أحمد رفيق عوض" قد طرح الواقع الفلسطيني في تلك الحقبة بشكل جريء وموضوعي كما هو بعيداً عن المجاملات والإطراءات "فهي ملحمة فنية واقعية تتكلم عن واقع تعيس يعيشه الشعب الفلسطيني في الأراضي الفلسطينية المحتلة"[٢].

ويمضي "عبد الهادي" لا يعبأ بهذا المصير فليس ثمة سبيل غيره فهو الأضمن والأسلم، ويحدث أسرته عن يومه الأول وهن الشوارع الجميلة والبيوت الجميلة والبيت البلاستيكي... ويذهب عبد الهادي لزيارة بيت أخيه جاء ضاحكاً يحمل في يديه أكياساً فيها فواكه ولحم.

ويظهر عبد الهادي تفوقاً في عمله يجعل "إسرائيل" يطمئن إليه ويعتمد عليه في كل شيء، فقد طلب منه إحضار عمال، وهكذا فقد أصبح عبد الهادي بين ليلة وضحاها معروفاً محترماً في قدرون، فتسابق الكل إلى رضاه وأخذ يشرف على العمال فقط دون أن يعمل وأصبح يتكلم العبرية وغاصت مشاعره الأولى بين الأعماق فنجاحه يغطي آلامه التي أحس بها، ولما رسب ابنه عمر صحبه معه إلى العمل ثم صحب الآخر "جواد" دون أدنى تردد فلم يعد يهمه التعليم لأن العامل يكسب أكثر وأحسن من وظيفة.

هكذا بدت صورة الحياة بعد هزيمة (٦٧) في هذه اللوحة فقد سارت الحياة إلى وتيرة أخرى كأن شيئاً لم يتغير،توحي وتدلل بإمكانية التعايش مع الآخر – المحتل –، وأصبحت صورة اليهودي تتلخص في "المعلم" الذي يشغل العمال، وكأن القضية الفلسطينية قد اختزلت في العمل والمال والثروة ويتضح ذلك من خلال حديث الجميع اليومي بما فيهم النساء فكل واحدة تتحدث عن عمل

---

[١] أحمد رفيق عوض : قدرون، ص٢٩.

[٢] علي الخواجا: جوائز الفحم، ص٧٠.

زوجها والمعلم اليهودي "كل النساء يتحدثن عن أزواجهن وعن أعمال أزواجهن... يتحدثن عن اليهودي الذي يعمل عنده زوج هذه أو تلك"(١).

وفي المقابل هناك لوحة أخرى ترى استحالة التعايش مع الاحتلال من خلال اختزال القضية في العمل داخل أراضي (٤٨) متمثلة في شخصية المثقف "زياد" الذي يصاب بالحزن كل صباح عندما يرى العمال يذهبون غرباً كالعبيد، فالاحتلال يمنع تكوّن الأمة ويقهر أفرادها الاحتلال هو السد المانع الذي يعيق حركة الأمة نحو تحقيق ذاتها الواحدة ومن ثم يحول الأفراد إلى كتل حيوانية تتصرف بغرائزها الأولية(٢).

ويلتقي موقف زياد مع صديقه الجديد الجامعي(هشام) الذي يحمل الاحتلال كل المشاكل وأنه العقبة الرئيسية أمام الجميع لتحقيق الحلم بمستقبل أفضل فهو يدس يده في كل شيء فلو تخلصنا منه فقد تخلصنا من كل شيء(٣).

لقد عمل المحتل على تغريب المزارعين والفلاحين من المدن والقرى الفلسطينية بشتى الطرق والوسائل من خلال تسخيرهم إلى عبيد للعمل داخل أراضيهم الأولى التي احتلها العدو الصهيوني وهُجّروا منها، مما يشكل لدى العمال صدمة قوية حيث إنه بعدما طرد من أرضه ها هو يعود من جديد لكنه بلا كرامة يعود ليعمل ويأخذ أجره من المحتل الذي اغتصب أرضه.

لقد دأب المحتل على فرض سياسة "رغيف العيش" والتي يتربى عليها الأجيال الفلسطينية جيلاً بعد جيل تنذر بقدوم خطر كبير حيث يعزل الجيل عن موطنه الأصلي ويجعله يقبل سياسة الأمر الواقع مما يؤثر عليه فكرياً ونفسياً كما و يسهل عليه السيطرة الكاملة على كل الأجيال وبذلك لا يهتم ولا يعبأ بقضيته.

لقد تسببت الهزيمة في أمراض نفسية واجتماعية تفشت في المجتمع الفلسطيني مما يجعل من الصعوبة معالجتها على المدى القريب أو البعيد، وها هو عمر يصف لنا لحظة استيقاظه من النوم للذهاب إلى العمل في إسرائيل "انطلقوا جميعاً إلى حيث باص العمال، رآهم من خلال العتمة والضباب كأشباح مريضة، كانت تُسْمَعُ بين الحين والآخر أصوات سعال أو بصق وبين هذا وذاك تسبيحه هادئة أو شتيمة بذيئة... جاء الباص الإسرائيلي يتقدمه خواره كثور في فصل "السناد"

---

(١) أحمد عوض : قدرون ، ص٢٠٣.

(٢) السابق: ص٢٤٤.

(٣) السابق : ص٢٤٦.

تراكموا فيه كيفما اتفق، وانطلق غرباً، هناك حيث نعمل جميعاً بأعمال ليست لنا ولا نشعر بتعاطف معها"[١].

لقد أبرز "أحمد رفيق عوض" فترة مهمة جداً عاشها الشعب الفلسطيني منذ بداية السبعينات وحتى نهاية التسعينات، وقد سلط الضوء على تلك الفترة التي لم تكن طبيعية بالمطلق فهي مرفوضة ومنكرة لدى الكثير من الناس كما أنها جلبت سلبيات عظيمة وكبيرة للشعب الفلسطيني مثل العمالة كما في شخصية "عليّ" والتي سنتحدث عنها بعد قليل، هذا بالإضافة إلى العادات والتقاليد والألفاظ التي استقيناها من الآخر.

لقد وصل الأمر بأن يقوم أحد المواطنين بدعوة صاحب عمله (اليهودي) على بعض المناسبات ويتفاخر بذلك أمام الناس، هذا غير التفات كثير من العمال إلى الزنا وشرب الخمر، وهذا ما أظهره الخطاب الروائي في شخصية "عليّ" وهذا يدلل على حدوث انهيار ثقافي وأخلاقي وديني عند الكثير من العمال.

لقد وصمت هذه الفترة بالذل والقهر لأنها نتجت عن ظروف قهرية ألمت مرت بالفلسطيني حيث شعر بمرارة الهزيمة عندما أصبح لاجئاً تخلى عنه الجميع وأصبح ينتظر إعانة "الوكالة".

لقد استقى "أحمد رفيق عوض" شخصية العامل من الواقع الفلسطيني المحض فهو ليس خيال إطلاقاً ولعل تجربة الكاتب الشخصية قد انعكست في الرواية حيث إنه قد عمل مدرساً في إحدى المدارس الخاصة ليعيل أسرته ، ولكن لقلة الراتب فقد عمل في مطاعم وورش ومزارع أراضي الـ (٤٨) ومكث هناك عامان[٢].

وبذلك يكون "أحمد رفيق عوض" قد كتب رواية ليست محض خيال كما قال في مقدمته بل هي "ملحمة فنية واقعية، تتكلم عن واقع معيش"[٣].

وقد عكست هذه الرواية وبينت حجم الكارثة التي مُني بها الشعب الفلسطيني كما وبينت عدالة قضيته، وقد شكلت تلك الأحداث الواقعية ومشاهدها التاريخية ، والدرامية عملاً فنياً راقياً أيقظ الذاكرة ووضح الرؤى، وجعل النهاية مفتوحة من خلال التمسك بالأرض ، وأومأ إلى أن الحل السلمي والتعايش مع الآخر فاشل بلا شك وأن الحل يأتي بداية من الداخل.

---

[١] أحمد رفيق عوض : قدرون، ص٥٥.

[٢] مقابلة مع الكاتب أحمد رفيق عوض : عبر الهاتف، ٢٠١٤/٤/١٦م.

[٣] جميل السحلوت: مقاربات نقدية، ص٧٠.

٨- شخصية المثقف المقاوم

رواية قدرون

زياد

المثقف أول من يقاوم وآخر من ينكسر، جاءت شخصية "زياد" لتؤكد على هذا المبدأ، كما أن المقاوم هو نقيض العميل "وقد قدمت الرواية الفلسطينية المناضل على عدة صور، فهو تارة يعمل في الكفاح المسلح السري ويدعو إليه، ويعمل في المجال الفكري تارة أخرى، أو في المجال السياسي تارة ثالثة، وقد شكل الكفاح المسلح هاجساً دائماً لكافة الشباب المنخرطين في التنظيمات الموجودة على الساحة"(١).

ويجسد "أحمد رفيق عوض" شخصية المقاوم في شخصية مثقفة محبة للعلم معتبراً من خلالها أن الكفاح المسلح هو بداية الطريق للتحرير ولا بد أن تبدأ المعركة من الداخل من خلال منع العمال العمل في إسرائيل، ومن خلال ملاحقة العملاء والمندسين وسماسرة الأراضي.

وتأتي شخصية زياد وهو شاب ذكي طموح محب للعلم والثورة وهو أقرب الأحفاد إلى جده "عثمان العظيم" وقد كان لهذا القرب دوراً كبيراً في تشكيل شخصية "زياد" منذ نعومة أظافره فيسأله ذات مرة "ماذا يعني الاحتلال يا جدي؟ هو بالضبط أن تسرق تمر تينه جارنا فيغضب عليك ويشكوك إلي"(٢).

ويوضح الجد لزياد معنى البطولة قائلاً: "البطل يبقى والخائن يذهب... البطل يصنع صواباً والخائن يصنع خطأ"(٣).

كما كان يحدثه عن تاريخه وكيف انتمى للجيش التركي وكيف انضم لثورة ٣٦ وكيف كانت حرب ٤٨ وكيف طورد في بداية الخمسينات وكيف تحول لمزارع وكيف أخذت إسرائيل البلاد، كما ويخبره عن تاريخ عائلته، وبذلك يكون الجد قد مثل الأب الروحي والقدوة الحسنة "لزياد" مما أدى إلى تطور شخصيته عبر السنين، ويتحمس زياد لفكرة العمل النضالي انطلاقاً من رؤيته لخطورة العملاء على الوطن ويتعاهد مع "سليمان ورشدي الطواشي" على صداقة بالدم ويقوم بحرق بيت العميل الذي أشهر مسدساً أثناء الشجار العائلي، وسرعان ما يعتقل "زياد" بتلك التهمة ويوضع في زنزانة "كان زياد محشوراً في زنزانة صغيرة ذات باب حديدي عال، تلمس الأشياء بيديه اصطدم بدلو معدني كبير وسمع صوت دحرجته، فاحت رائحة كريهة جداً، تحسس الأرض فشعر بأن

---

(١) محمد أيوب : الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة، ص٥٢.

(٢) أحمد رفيق عوض : قدرون، ص١٩.

(٣) السابق: ص٦٣.

أصابعه تغوص في شيء رطب... وفجأة سمع صوت المفاتيح... فتح الباب وأطل شخص أقرع له شوارب غليظة مبرومة، وما أن رأى هذا الزنزانة حتى صاح بغضب شديد: يلعن أبوك.. هل قضيت ليلتك هذه تسبح في برازك؟"[١]

وتبدأ مرحلة التعذيب حيث يتعرض "زياد" للضرب الشديد من أحد الحراس يأتي بعده رجل آخر وسيم بدا أنيقاً ويبدأ يمارس دور مختلف عن دور الحارس بل ويلوم على الحارس ضربه لزياد: "لماذا ضربته يا سليمان... كيف تضرب شاباً صغيراً مثل زياد. إنه طيب ولطيف... أنت مخطئ جداً... تعال يا زياد... تعال معي"[٢].

هكذا يبدو دور رجل المخابرات لطيفاً ودوداً بشكل زائد، ويأخذه إلى مكتبه لكي يشرب معه شاي، ويبدأ الحوار مع زياد يقول له أنا اسمي "أبو ماهر" أخبرني لماذا اعتقلوك؟

وقبل أن يجيب يشعره المحقق بأنه يعلم كل شيء عن قرية قدرون، ويسأله عن عميل تم طعنه فيقول له: "لا أدري، حقيقة لا أدري، لا.. هذا لا ينفع يجب أن نتعاون، فأنا أملك عنك معلومات قد تضرك، قال زياد وهو يشعر ببرود ما في جسمه: معلومات: نعم. إذا تعاونت معي لن أستعمل هذه المعلومات"[٣].

وينكر زياد ذلك ويعود إلى عفونة الزنزانة مرة أخرى، وتزداد مخاوفه "عاد إلى الرطوبة والعتمة والرائحة الكريهة، كم أنا وحيد يا ربي! هل يعرف أبو ماهر شيئاً؟ مستحيل أن يعرف، لقد كتبنا وثيقة بالدم، مستحيل أن يعرف ومستحيل أن أعترف له، كيف لم أتذكر الوثيقة... اللعنة... اللعنة... إنه لا يعرف شيئاً إنها تمثيلية سخيفة، إنه لا يملك شيئاً ضدي وكل ما في الأمر أنه يحاول استدراجي لأقول له شيئاً يفيد"[٤].

وتأتي موجة أخرى مع المحقق "أبي ماهر" متوعداً إياه بكسر عظامه إن لم يخبره بكل شيء، ولكن زياد يصر على موقفه فينهال عليه أبو ماهر ضرباً ولكماً بكل قوة وعنف لكن زياد لم يعد يشعر بشيء فهو لا زال على موقفه ثم يرجع مرة أخرى إلى الزنزانة التي شكلت كابوساً لزياد.

وفي اليوم التالي، سيق زياد لنفس المكتب ولكنه وجد رجلاً آخر غير أبي ماهر بادره بالقول: "أهلاً بالسيد زياد، الحقيقة إنك أثبت رجولتك، لقد كان أبو ماهر عصبياً ومتسرعاً ولهذا أقصيته عن التحقيق... أنا لست مثل أبي ماهر، أنا أبو علي"[٥].

---

[١] أحمد عوض : قدرون، ص١٦١.

[٢] السابق: ص١٦٣.

[٣] السابق: ص١٦٦.

[٤] السابق: ص١٦٧.

[٥] السابق: ص١٧٠.

لقد دأب رجال المخابرات على تبادل الأدوار بينهم فتارة يظهر بوجه عنيف وأخرى بوجه مسالم كأنه صديق وهكذا، ويباغت أبو علي زياد بسؤاله عن حرق بيت أحد العملاء من حمولتك، وينكر زياد ولكن أبا عليّ يريه ورقة بها اعتراف صديقه زكي عليه مكتوب فيها "وقام زياد عبد الهادي الرمحي بحرق بيت السيد قاسم الرمحي واستعمل في ذلك خلطة كيماوية يعرفها هو وحده وذلك إثر اتفاق سابق"(١).

ولكن زياد يصر على إنكاره، ويخرج من السجن بعد أن حوكم على فعلته لأن هناك قانون لدى اليهود يُدين السجين دون الحاجة لاعترافه طالما اعترف عليه آخر.

يحزن زياد كل صباح لأنه يرى رجال الحي وهم يصعدون الباص متوجهين للعمل في أراضي الـ (٤٨) "وتساءل فيما إذا كان رجال الحي عمالاً كلهم، يا الله، كلهم يذهبون إلى "إسرائيل"، من يبقى هنا، هل من المعقول أن نتحول كلنا إلى عبيد هناك؟ أليس لنا أرض وبيوتاً وأعمالاً نمارسها؟"(٢).

لقد نظر زياد بنظرة المثقف أن بداية الانهيار كانت من هنا، فلا بد من إيقاف هذا النزيف اليومي المتدفق من العمال لخدمة اليهود الذين استعبدونا، ويحدث صديقه هشام بأنه حزين لتحول الناس إلى عبيد في النهار وفي الليل إلى أسود تتقاتل فيما بينها، وبعد نقاش طويل بينهما يصلان إلى نتيجة مفادها أن الاحتلال هو سبب كل شيء فهو الذي سلب أرضنا ونهب خيراتنا "إن الاحتلال يمنع تكون الأمة ويقهر أفرادها... الاحتلال هو السد المانع الذي يعيق حركة الأمة نحو تحقيق ذاتها الواحد، وهو يُحوّل الأفراد إلى كتل حيوانية تتصرف بغرائزها الأولية"(٣).

وهكذا يلتقي موقف زياد بموقف هشام ويعطي هشام لزياد كتباً صغيرة دون اسم مؤلفين وتفتح أمامه أبواب واسعة رحبة فهذه الكتب تختصر كل الأشياء في كلمة واحدة رائعة، وتكون تلك الكتب بداية لدخول زياد للعمل التنظيمي السرّي ويطلب منه بعض الأعمال التي يقوم بها مثل تعليق علم على عمود الكهرباء أو يقذف زجاجة على بيت متعاون.

ويسافر هشام إلى دراسته ويعرفه على مسئوله الجديد ويتفاجأ أن المسئول الجديد مدرس معروف في مدرسة حكومية، ويطلب منه تكوين خلية صغيرة لا تزيد عن خمسة أفراد متماثلون في العمر والطبقة والتفكير تجمعهم هوايات واحدة.

---

(١) أحمد عوض : قدرون، ص١٧٠.

(٢) السابق: ص٢٠٠.

(٣) السابق: ص٢٤٤.

في ذلك الوقت يقنع "عليّ" المتعامل مع اليهود أخته "بثينة" بسرقة أوراق الأرض لكي يبيعها لجبرائيل حيث سيقام مستوطنة على أرض الجد لذلك يجب أن نستفيد من الأرض هذا ما حاول أن يقنع به "عليّ" أخته بثينة ويتحقق مأربه، وتحدث الكارثة ويفاجأ زياد والجد بوجود آليات ورجال على أرضهم ويتعارك معهم ويخبروه بأنهم اشتروا الأرض من "علي" ومعهم طابو الأرض، ولحظتها يقرر "زياد" قتل "علي" ويذهب للأستاذ كي يساعده في قتل ابن عمه "علي" المتعاون مع الاحتلال ولكن الأستاذ يرفض ذلك ويقول له أن تشكيل الخلية أهم لكن زياد يصر على موقفه ويقول له بأنه سيقوم بالعملية وحده وتحت وطأة ضغط زياد يوافق الأستاذ ويعطيه سلاحاً لكي ينفذ العملية، وبالفعل يقتل "زياد" "علي" بمساعدة أخويه لبنى وجواد بمباركة من الجد.

ويتضح من خلال الخطاب الروائي أن مسألة قتل "علي" قد أخذت منحى شخصي من خلال دافع القتل والمنفذين، كما يبين الخطاب الخلل الواضح في العمل التنظيمي من خلال عدم استماع "زياد" للأستاذ الذي يرى أن تشكيل الخلية أولى لكن "زياد" يرفض ويشخصن الأمور ويصر على قتل "علي" ويرفض أوامر مسئوله المباشر "الأستاذ" مما يبين بروز الأعمال الارتجالية في الانتفاضة الأولى .

وبالتالي يكون "أحمد رفيق عوض" قد نجح في رسم ملامح المجتمع الفلسطيني بكل تجاذباته السياسية، فصور لنا واقعنا المعاش بحلوه ومره من خلال رؤيته ومعايشته للظروف والأحداث في تلك الفترة في ظل الاحتلال، كما وأوضح لنا الخطاب السبيل إلى عملية التحرير والتي تبدأ بعملية الوعي التي يقودها المثقفون، وقد رأينا أنّ دفة المقاومة والشخوص الذين تدور حولهم حلقات النضال هم متعلمون فزياد طالب مجد ومجتهد ومميز وهشام يدرس في الخارج يقودهم مدرس في المدارس الحكومية، ومن هنا يبدأ التغيير ، وهذا ما توصل له زياد حيث إن حرق الباصات لن ينفع في ظل عدم قناعة العمال بعدم الذهاب للعمل في إسرائيل والانتباه لأرضهم، فنفوس العمال مهزومة ويظهر ذلك عندما علق "علي" علماً ليرى ردة فعل العمال العفوية على ذلك ، وكم كانت دهشته عندما قوبل الأمر بسخرية ظاهرة أو صمت مطبق وتجاهل تام وتعليقات ساخرة يقول أحدهم: "علم... يعلقون علماً في حيفا... ما تزال الناس تحلم بدولة، أجاب سليمان... إنهم يتقاتلون في لبنان... العرب جنس وسخ... تدخل فتحي وقال: كل شيء بيد إسرائيل... العلم لن يغير شيئاً... قال أحد ما: نحن كالأسرى هنا في الضفة... لن نستطيع تغيير شيء... إسرائيل سيدة الموقف الآن... إسرائيل هي الآمرة والناهية"[١].

---

[١] أحمد عوض : قدرون، ص٢٩٥-٢٩٦.

لقد شكّلت الهزيمة التي مُني بها الشعب الفلسطيني خاصة والعرب عامة شخصية الفلسطيني في تلك الفترة فنتج عنها استسلاماً واضحاً لعبودية اليهود وانساق الجميع للعمل في الأراضي المحتلة بصمت مخيف دفعته الهزيمة إلى الهاوية فليس هناك ما يبكى عليه .. الهزيمة مرة.

ومن خلال تلك القناعات وصل زياد إلى قناعة استقاها من مسئوله الأستاذ أن المحتل أفقدنا كل مقومات الاستقلال فقد عمد الاحتلال إلى تحطيم المؤسسات وبالتالي يتوجه العمال للعمل في أراضي المحتلة عام (٤٨) ولذلك فإن الحل يكمن في نشر الوعي وذلك "سيسهل علينا أن نقول لمجتمعنا وعمالنا: لا تذهبوا في تلك اللحظة سنقود الناس إلى ما فيه صالح الوطن"(١).

وبذلك تكون رؤية العمل النضالي قد اتضحت في تلك الفترة فوعي المواطن بخطورة العمل في الأراضي المحتلة والعمل في أرضه من أجل الإنتاج الداخلي والتنمية هي بداية الطريق، ومن ثم الكفاح المسلح الذي يبدأ بقتل العملاء هذا ما أراد أن يقوله الخطاب الروائي.

وبعد هذا العرض المفصّل لأنواع متعددة من الشخصية الفلسطينية والتي كان لها حضوراً بارزاً في روايات "أحمد رفيق عوض" نستطيع القول أنّ الواقع الفلسطيني قد فرض نفسه على الكاتب بحضوره الفاعل والقوي ؛ فنجد أنّ الكاتب لم يبتعد كثيراً عن الواقع الفلسطيني ؛ بل قدّم نماذج لشخصيات فلسطينية واقعية بدرجة كبيرة رغم أنها شخصيات ورقية وليست فيزيائية ؛ فهي لا تملك اسماً في السجلات المدنية إلا أنّها تتشابه إلى حد كبير بصفاتها وسماتها وتصرفاتها وأنواعها مع شخصيات ذات سجل مدني .

لقد مثّلت هذه الشخصيات الواقع الفلسطيني بأحزانه وأفراحه وهزائمه، وقد ركز الكاتب في حضور شخصياته على فترة زمنية مهمة جداً في تاريخ الشعب الفلسطيني هي الحقبة مابين النكبة والنكسة حيث شكلّت تلك الفترات شخصية الفلسطيني ،وأضفت عليها سمات جديدة لم تكن موجودة من ذي قبل ، فشخصية العامل في الأراضي المحتلة (٤٨) ، واللاجئ الفلسطيني ، والمقاوم ، والعميل ، والمفاوض الفلسطيني ... كل تلك الشخصيات كانت نتيجة للواقع السياسي الفلسطيني المر الذي عاشه الشعب الفلسطيني على مدار قرابة السبعين عام .

---

(١) أحمد عوض : قدرون، ص٢٩٧.

وقد كان للاحتلال دوراً بارزاً في تشكيل تلك الشخصيات ، فترك أثراً عميقا في نفسياتهم انعكس بالتالي على تصرفاتهم وسلوكياتهم ، وقد تحدث الكاتب عن تلك النماذج من الشخصيات بكل صراحة ووضوح فالمجتمع الفلسطيني ليس مجتمعاً مثالياً ولا ملائكياً فهو مثل باقي المجتمعات فيه الخائن والعميل والفاسد ، وفيه المناضل والوطني .

كما ويلاحظ الباحث أنّ الشخصيات الفاسدة كان حضورها طاغياً وفاعلاً بالقياس مع الشخصيات المنتمية للوطن ، وقد كان لهذا الطغيان انعكاسه على المجتمع حيث حمّل الكاتب نتيجة هذا الفساد للمجتمع الذي أفرز تلك الفئة وأنتجها ؛ فالمجتمع الفاسد ينتج عنه شخصيات مهزومة وقذرة فالهزيمة لا تأتي من فراغ .

الفصل الثاني

شخصيات تراثية

الفصل الثاني

شخصيات تراثية

تعريف بالتراث

المدلول اللغوي:

التراث في اللغة مشتق من مادة (ورث)، وقد ورد في المعاجم القديمة بمعانٍ متعددة كالإرث والورث والميراث، وهو في المال والحسب.

ورثهم مالَه ومجده، ورث فلان أباه يرثُه وراثةً وميراثاً وقيراثاً إذا مات مُروَرِّثُكَ، فصار ميراثُه لك [١].

وقد يشير المدلول اللغوي إلى الوراثة المعنوية حيث وردت في بعض المعاجم نحو قوله تعالى: " **فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ**" [٢].

ومعروف أن الأنبياء لا يورثون المال قال ابن سيدة: " إنما أراد يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة، ولا يجوز أن يكون خاف أن يَرِثَهُ أقرباؤه المال، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقه " [٣] ، وفي قوله تعالى: " **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ** " [٤]، قال الزجاج : " جاء في التفسير أنه ورثه نبوته وملكه. وروي أنه كان لداود عليه السلام تسعة عشر ولداً، فورثه سليمان عليه السلام من بينهم، النبوة والملك " [٥].

وقد ورد في الشعر العربي هذا المفهوم المعنوي، حيث جاء في معلقة عمرو بن كلثوم قوله:

ورثنا المجد قد علمت معد ... نطا عن دونه حتى يبينا
ورثنا مجد علقمة بن سيف ... أباح لنا حصون المجد دينا
ورثت مهلهلاً والخير منه ... زهيراً نعم ذخر الذاخرينا
وعتاباً وكلثوماً جميعاً ... بهم نلنا تراث الأكرمينا[٦]

---

[١] أبو الفضل جمال الدين ابن منظور : لسان العرب، بيروت: دار صادر، ١٩٩٠، مجلد ٢، مادة (ورث).

[٢] مريم: ٦/٥.

[٣] لسان العرب : مادة (ورث).

[٤] النمل: ١٦/٢٧ .

[٥] لسان العرب : مجلد ٢، ص٢٠٠.

[٦] أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني : شرح المعلقات السبع، تحقيق: لجنة التحقيق في الدار العالمية، بيروت: الدار العالمية، ١٩٩٣، ص١٢٢.

ويقول ابن الرومي:

وما الحسب الموروث لا درَّ دَرُّه ... بمحتسبٍ إلا بآخر مكتسب

فالفضائل التي يرثها الأبناء عن الآباء لا قيمة لها إلّا إذا أضيفت إليها فضائل أخرى يكتسبها الإنسان في حياته [١].

ولا ينحصر المعنى اللغوي لكلمة تراث في الجانب المادي والمعنوي فقط ، بل يمتد لدلالات أوسع فهو " الأصل والأمر القديم، توارثه الآخر عن الأول، والبقية من الشيء" [٢].

ونلاحظ هنا أن الدلالة أشمل وأعم لأنها شملت كل ورثه الآخر من الأول جامعة ما بين الجانب المادي والمعنوي.

ثم يتطور المصطلح حديثاً ليدل على الجانب الفكري والثقافي حيث أصبح بمعنى "ورث منه علماً: استفاد" [٣].

ونلاحظ مما سبق أنه لا خلاف على المعنى اللغوي لكلمة تراث بين علماء اللغة بمفهومه العام، لكن الخلاف في استعمالات هذا المفهوم وما يحتويه هذا التراث أي مضمونه.

"ولم تستخدم كلمة تراث بالمعنى الاصطلاحي إلّا في العصر الحديث، حيث يتباين مفهوم التراث في الثقافة العربية المعاصرة من باحث إلى آخر، تبعاً لاختلاف إيديولوجيا الباحثين وتعدد مواقفهم[٤].

المدلول الاصطلاحي :

اتفق الباحثون على أن التراث يعني الزمن الماضي ولكنهم اختلفوا في تحديد هذا الزمن فيرى بعضهم أن التراث هو " كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة، فهو إذاً قضية موروث وفي نفس الوقت قضية معطى حاضر على عديد من المستويات " [٥].

ويرى آخرون أن التراث هو " ما جاءنا من الماضي البعيد والقريب أيضاً " [٦].

وظاهر هنا أن الخلاف في تحديد هذا الزمن الماضي

---

[١] ابن الرومي : الديوان، شرح وتحقيق: عبد الأمير مهنا، بيروت: دار الهلال، ١٩٩١،ج١.

[٢] أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني اللغوي : اللكيات – معجم في المصطلحات والفروق اللغوية – قابلة ووضع فهارسه: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢، مادة (ورث).

[٣] أحمد رضا : معجم متن اللغة، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠، مجلد ٥، ص٧٣٥.

[٤] محمد رياض وتار : توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٢، ص٢٠.

[٥] حسن حنفي : التراث والتجديد، القاهرة: المركز العربي للبحث والنشر، ١٩٨٠، ص٩.

[٦] محمد عابد الجابري : التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩١، ج ١، ص٤٥.

واختلف الباحثون حول تحديد مقومات التراث، كما اختلفوا حول تحديد الفترة الزمنية التي ينتمي إليها، فالدكتور محمد عابد الجابري يعرف التراث بأنه: " الجانب الفكري في الحضارة الإسلامية: العقيدة، الشريعة، واللغة والأدب والفن ... " والدكتور فهمي جدعان يوسع مفهوم التراث ليضم إلى الجانب الفكري الجانبين الاجتماعي كالعادات والتقاليد، والمادي كالعمران[١].

ويرى الباحث أن التراث لا يتحدد بفترة زمنية محددة فهو يصل للماضي السحيق ويمتد للحاضر وقد اختار الباحث تعريفاً ومفهوماً للتراث لكي ينطلق من خلاله إلى دراسة موضوع هذا الفصل فإنني أختار التعريف التالي: " التراث هو الموروث الثقافي والاجتماعي والمادي، المكتوب والشفوي، الرسمي والشعبي، اللغوي وغير اللغوي، الذي وصل إلينا من الماضي البعيد والقريب"[٢].

والتراث الأدبي يبتعد كثيراً عن تعريف التراث بمفهومه العام، فهو كل ما وصل إلينا من نتاج شعري ونثري مكتوب شفاهي فصيح وشعبي، وقد استطاع كتَّاب الرواية من استثمار ذلك التراث الأدبي بكافة أشكاله في البناء الروائي الحديث حتى يكون لها دور في السرد الروائي.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الاستثمار لا ينبغي أن يكون بتسجيل وإحياء التراث من جديد بل ليعبر عن الواقع ، فالعملية ليست نقلاً للتراث بل هي توظيف له ، وهذا يخضع لمدى إتقان المبدع والكاتب لهذا الفن وهذا الاستلهام وتوظيف التراث " مرحلة متقدمة من مراحل تعامل الكاتب معه، وهي مرحلة تتجاوز أنماط إحيائه واستلهامه إلى التعامل معه فنياً، فتنقل رؤية الكاتب المعاصرة إلى العناصر التراثية التي يعيد خلقها وتأليفها دفعاً لواقعه الجديد"[٣].

فعملية التمازج التي يقوم بها الكاتب بين ما يأخذه من التراث والواقع المعين هي التي تبرز الفرق بين مجرد النقل والتوظيف [٤].

فلذلك فالتعامل مع التراث تعاملاً علمياً يجب أن يكون على مستويين: مستوى الفهم ومستوى التوظيف أو الاستثمار[٥].

---

[١] محمد رياض وتار : توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، ص٢١.

[٢] السابق: ص٢٢.

[٣] حسن علي المخلف : توظيف التراث في المسرح – دراسة تطبيقية في مسرح سعد الله ونوس، دمشق: دار الأوائل، ٢٠٠٠، ص٤٦.

[٤] السابق: ص٤٢.

[٥] محمد الجابري : نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، ط٦، ١٩٩٣، بيروت ص٤٧.

ومن خلال هذا الفهم فإن توظيف التراث يعني " الاستفادة من الخامات التراثية في الأعمال الأدبية وشحنها برؤى فكرية جديدة لم تكن موجودة في نصوصها الأصلية[١].

وفي إطار هذا الفهم، أصبح الأديب يمارس مع تراثه نوعاً جديداً من العلاقة التي كان التراث فيها غاية في ذاته، وأصبح في المرحلة الجديدة ينطلق الأديب في رحلة جديدة مع تراثه، مزوداً بالقيم الباقية والخالدة في هذا التراث، بعد أن تجرد من ارتباطها بعصر معين، لتصبح رموزاً تدل على كل عصر. كما أن المعطيات التراثية في هذه المرحلة تأخذ ملامح جديدة، باختيار الأديب منها ما يوافق تجربته، ويتراسل مع همومه وقضاياه، وتوظيفها بعد ذلك للتعبير عن هذه القضايا ؛ فيتحقق بذلك هدف مزدوج ، بحيث يمنح تجربته نوعاً من الأصالة والشمول عن طريق ربطها بالتجربة الإنسانية في معناها الشامل، ومن ناحية أخرى يثري هذه المعطيات بما يضيفه عليها من دلالات جديدة، ويكسبها حياة جديدة [٢].

وعند تناول الشخصية التراثية، لا ينقل الأديب هذه الشخصية نقلاً فوتوغرافياً بل يجعلها شخصية تراثية معاصرة في الوقت نفسه . ويتم ذلك باختيار الأديب من بين ملامح الشخصية التي يتناولها ما يتناسب وتجربته المعاصرة ثم يسقط أبعاد تجربته على هذه الملامح التي اختارها.

كما أن الأديب لا يسرد الحكاية الشعبية الموظفة سرداً، لأنه لا يحكي قصة بل يجعل القصة تتحول إلى الرمز الكلي الذي يوحد بين مشاعره الذاتية والمشاعر العامة [٣].

فالكاتب ليس مؤرخاً يسجل الأحداث التاريخية المنصرمة، إنما يقدم " رواية تتخذ من أحداث تاريخية مختارة منطلقاً لما هو أعم وأشمل من دائرة التاريخ واهتماماته ، وهو ما تكشف عنه عمليات التركيب والترهين والتخطيب التي يقوم بها خطاب المبدع " [٤].

ولقد بدأت علاقة الرواية بالتراث منذ نشأتها، وقد كانت البدايات وتحديداً في القرن التاسع عشر تتوجه إلى استلهام التراث شكلاً ومضموناً، وقد كان الهدف منها هو مواجهة الغرب واستنهاض الهمم لمواجهة الاستعمار، مما جعل المبدع أسيراً لتلك التجارب.

---

[١] الرشيد أبو شعير : دراسات في المسرح العربي، دمشق: دار الأهالي، ١٩٩٧، ص ٤٥-٤٦.

[٢] علي عشري زايد : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٧، ص ٥٨-٥٩.

[٣] على عزي زايد : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص ٦٠-٦١.

[٤] على الخواجة : مقاربات نقدية، دراسة في روايات أحمد رفيق عوض، دار الماجد للنشر والتوزيع، البيرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص٨٩.

ثم بدأ يتبلور الوعي بأهمية التراث وضرورة البحث عن أفق جديد للرواية خصوصاً بعد هزيمة ١٩٦٧م ، حيث لم تكن هزيمة سياسية فحسب، فكانت العودة إلى التراث ولكن بشكل جديد حيث تفاعلوا مع التراث لخدمة أهداف نصوصهم الروائية الفكرية والجمالية، ونتيجة لذلك ظهرت أسماء كتَّاب ومبدعين كان من أشهرهم في فلسطين الروائي أحمد رفيق عوض وذلك من خلال رواياته (عكا والملوك والقرمطي وبلاد البحر).

وتمثل الشخصية التراثية رمزاً ملائماً بحيث يقوم الكاتب بإنتاج دلالات جديدة تلائم مختلف العصور " لأن الشخصية المتحققة على نحو مستقل عن شروط عصرنا يمكن أن تتخذ شاهداً ندين به ما يعتور عصرنا من أخطاء، وهي وجهة نظر تشي بموازنة خفية تتعقد ما بين التجربتين، التجربة المعروفة للشخصية والمرتبطة بشروط زمنية منتهية؛ والتجربة المعاصرة التي استدعت هذه الشخصية للتعبير عنها " [١].

وتضيف الشخصيات التراثية بحسب نظرة بعض النقاد إلى فئة الشخصيات المرجعية وهي "الشخصية التي تحيل على معنى ثابت تفرضه الثقافة التي تنتمي إليها. ويدخل ضمن هذه الفئة الشخصيات التاريخية، والأسطورية، والمجازفة كالحب والكراهية، والاجتماعية كالمحتال. وهذه الشخصيات عندما تدرج في عمل أدبي فإن وظيفتها الأساسية هي تثبيت الإطار المرجعي الثقافي لها" [٢].

ويتجه هذا البحث في هذا الفصل إلى دراسة توظيف الشخصية التراثية الأدبية عند أحمد رفيق عوض في رواية (عكا والملوك ، والقرمطي ، و بلاد البحر) ، والكشف عن تقنيات توظيفها من زاوية بنائها الفني والموضوعي، وعلاقتها بغيرها من عناصر الرواية.

رواية عكا والملوك

لقد حظي العنوان باهتمام خاص من قبل النقاد والدارسين ، وهو أول ما يقابل القارئ من الرواية ؛ فهو واجهتها كما ويقدم مفتاحاً دلالياً وتأويلياً لمضمون الرواية ، وهو بذلك نص وباقي

---

[١] سامح الرواشدة : القناع في الشعر العربي الحديث –دراسة في النظرية والتطبيق– الأردن: مطابع كنعان، ١٩٩٥، ص١١.

[٢] حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي (الفضاء – الزمن – الشخصية) بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠، ص٢١٧.

المقاطع السردية ما هي إلا تفريعات نصية تتبع من العنوان الأم ، والعلاقة بين العنوان والسرد ليست علاقة اعتباطية بل هي علاقة انتماء دلالي " ولما كان العنوان من أبرز مفاتيح الدلالة لأن الشاعر يصب فيه كل ما في قصيدته من تيارات دلالية وطاقات إيحائية ؛ فإنّ الرموز والدوال التي يثيرها العنوان توحي بما يصطرع في ذهن الشاعر من أفكار وفي وجدانه من أحاسيس ومشاعر ، لذلك فهي تحفز وعي المتلقي وتستثير خبرته وثقافته ليكشف التيارات الدلالية والطاقات الإيحائية التي تبشر بجوانب الإبداع المضموني للديوان "(١) .

كما يعد العنوان عنصراً موازياً للنص ، والرواية التي بين أيدينا هي رواية حديثة ترفض الشكل الدائري الذي يلتف حول معنى واحد يشكل المعنى النواة ، بل تعتبر الدلالات المتكاثفة الطاغية في أرجاء الرواية تشظياً للعنوان ، ولفهمها لا بد من تفكيك شفرات العنوان ، ليتجاوز الغموض شيئاً فشيئاً من خلال تتبع تناسل الدلالات عبر جسد النص .

والعنوان الذي نحن بصدد الحديث عنه يتكون من كلمتين " عكا والملوك " الكلمة الأولى تدل على مكان جغرافي يقع شمال فلسطين تشتم منها عبق التاريخ المليء بالصمود والتحدي في وجه غزوات الأعداء المتكررة عبر التاريخ كان أبرزها غزوة نابليون التي تحطمت أمام أسوار عكا ،والقارئ لا يستطيع أن يفهم دلالة هذا العنوان إلا بعد قراءة الرواية ؛ فهو بمثابة إيجاز لكل موضوعاتها حيث قسم الكاتب الرواية لأبواب عنون كل باب باسم شخصية تاريخية يدور حديثها حول حدث كبير وهو حصار عكا لكن كل شخصية تحمل رؤية ما لهذا الحصار؛ فابن جبير على سبيل المثال تحدث عن رحلته إلى عكا المحاصرة وعن كيفية دخوله لها ، وقراقوش يصف لنا حصار عكا ومعاركها الدائرة ، وجوانا أخت ريتشارد تصف لنا الحصار والمعارك من الخارج –من وجهة نظر الآخر– ، وبذلك تكون عكا هي محور حديث الشخصيات .

كما ورد ذكر لفظ عكا في الرواية مائتان وثلاث مرّة مما يؤكد على حضورها الفاعل في مضمون الرواية ، ودورها البارز في تنامي أحداث الصراع بصفتها المنتج الحقيقي لهذا الصراع ، وبذلك يكون الجزء الأول من العنوان قد انعكس على مضمون الرواية وهذا يعد نجاحاً للكاتب .

والشق الثاني من العنوان هي كلمة " الملوك " وقد جاءت جمعاً لتوحي لنا بكثرة ملوك الفرنجة المحاصرين لعكا والذين لم يتفقوا أبداً فيما بينهم إلا في حصارهم لعكا ، وقد كان الملوك محوراً أساسياً للحديث في معظم الأحداث ، وهذا يدل على انعكاس العنوان على مضمون الرواية .

---

(١) نبيل أبو علي : في نقد الأدب الفلسطيني، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م ، دار المقداد للطباعة –غزة – ، ص٩٤ .

وقد ورد لفظ " الملوك " في الرواية ست وعشرين مرّة بلفظها وفي مواضع كثيرة ذكر بما يشبه اللفظ في المعنى مثل "كلهم" مما يدلل على كثرتهم العددية من ناحية حيث ذكر في الرواية وصول العدد إلى ثمانية وثلاثون ملكاً ، ومن ناحية أخرى يدل على دورهم البارز في لب أحداث الرواية وصراعاتها الدائرة ؛ كما وتدلل على التجبر والعظمة والإفساد والصلف والغرور ، وفي مقابل هذه الصورة يقف ملك مسلم واحد في وجه هذه الترسانة العسكرية المدمرة ليذود عن شرف هذه الأمة ،ولا يجد له معين سوى الله عز وجل إنه القائد الفذ " صلاح الدين " " ومن ثم يمكن القول إن اجتماع " عكا بالملوك " في عنوان الرواية يحمل إعلاناً متقدماً عن حالة من حالات الإفساد يود العنوان أن يعلم بها المتلقي ليتهيأ الأخير لاستقبال الآتي "[١] .

إنّ العنوان يشعرنا بحالة من الصراع فكلمة عكا مفرد وكلمة الملوك جمع فالصراع بين المفرد العدد القليل ، والجمع العدد الكثير ويتأكد لدينا هذا الشعور كلما أوغلنا في قراءة الرواية ؛لكن يبقى جزء مبتور في العنوان لو نظرنا إليه من ناحية الدلالة النحوية " ولكي تتحقق له الفائدة فلا بد من تحويله إلى كلام بتقدير محذوف يتمه ، وهذا المحذوف يمكن الوصول إليه من قراءة النص ، أو من قراءة الصورة التي على الغلاف ... وهذه الصورة تشمل على فارسين في حالة صراع ومغالبة ، وكأن العنوان يقول عكا والملوك صراع متجدد "[٢] .

وبذلك يكون العنوان قد تماهى مع النص وارتبط ارتباطاً وثيقاً بأحداث الرواية ، وكان ذا دلالة رمزية موحية ارتبط بمضمون الرواية

---

[١] يوسف رزقة : الرؤية وتعدد الأصوات في رواية عكا والملوك ، ص١٦٣ .

[٢] السابق : ص١٦٤ .

شخصية صلاح الدين الأيوبي :

تظهر شخصية القائد صلاح الدين الأيوبي من خلال رواية " عكا والملوك " حيث تعد من الشخصيات الرئيسية في الرواية ، وإن لم يفرد لها فصلاً من فصول الرواية التسعة الموسومة بأسماء شخصيات تراثية حقيقية لها سجل مدني ، لكن أحمد رفيق عوض قد أظهر شخصية صلاح الدين من خلال حديث الشخصيات عنه مثل ابن جبير ، وقراقوش ، وابن شداد ، والمشطوب ، والقاضي الفاضل ، وغيرهم ممن سمى فصوله بأسمائهم وجعل الحديث حول صلاح الدين وسماته من خلال تلك الشخصيات من خلال استخدامه لتقنيات حديثة مثل الشهادة التي يدلي بها الشهود ، وتقنية التقسيط ، وهي تقنيات جلّى بها الكاتب لنا شخصية صلاح الدين بوضوح حيث لم يخلُ فصل من تلك الفصول التسعة من الحديث عن صلاح الدين .

ومن الجدير بالذكر أنَّ شخصية القائد صلاح الدين قد ارتبطت في عقول المسلمين بالانتصار في معركة حطين ، وتحرير المسجد الأقصى من الصليبيين، وقد تغنى بهذه الانتصارات الشعراء والروائيون حيث كانت ملاذاً للنخوة في ظل الهزائم المتلاحقة التي حلت بالمسلمين، وكأن الكتَّاب والشعراء أسقطوا عليها حالتهم النفسية لتوالي الهزائم، فهي شخصية ترمز للنصر.

لكن أحمد رفيق عوض وكعادته يبحث عن الفترات المليئة بالمتناقضات بحيث إنه يلقي الضوء على حقبة زمنية صعبة جداً على نفوس المسلمين وأيضاً على نفس القائد صلاح الدين وهي حقبة لا يكاد يتحدث عنها الكتَّاب ، والشعراء فقد نسوها أو تناسوها .

تلك الفترة الحرجة ، والخطرة في الوقت ذاته يقتحمها أحمد رفيق عوض بكل جرأة وشجاعة وهي حقبة هزيمة القائد صلاح الدين الموسوم بالنصر ، والفتوحات ، وهي لحظة تاريخية كما أسلفنا لم يسلط التاريخ الضوء عليها كثيراً ؛ فيلتقط أحمد عوض صورة للقائد صلاح الدين ، وهو مهزوم في عكا ضعيف لا حول له ، ولا قوة بعد أن استردها يعود ليخسرها مرة أخرى أمام ذات العدو الذي هُزم منه في معركة حطين بعد أربع سنوات من تحريرها .

يعود الصليبيون مرة أخرى ، وقد اتحدوا جميعاً أمام صلاح الدين يعود الغرب مرة أخرى بطغيانه وهيمنته رغم الكراهية العميقة المتبادلة بين ملوك الغرب ، وخاصة الملك ريتشارد والملك فيليب أغسطس ، ورغم الانقسام المسيحي بينهم لكنَّ الأطماع وكره المسلمين هي التي توحدهم لا غير والهدف المعلن يبدو هدفاً ساذجاً لا يقبله العقل ، ولا المنطق وهو تحرير قبر المسيح ، رغم

أنّ المسيحيين يمارسون طقوسهم الدينية بكل أريحية دون أن يتعرض لهم أحد ، هذا ما كفله الدين الإسلامي لهم منذ العهدة العمرة .

لقد اختار أحمد رفيق عوض أصعب اللحظات وهي هزيمة صلاح الدين موضوعاً لروايته رغم علمه أن اسم صلاح الدين مرتبط بالنصر وتحرير بيت المقدس وهزيمة الصليبيين؛ لكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا اختار الكاتب تلك اللحظة الموسومة بالهزيمة لقائد لا يذكره الناس إلّا موسوماً بالنصر؟!

والجواب أنّ الكاتب أراد أن يربط بين هزيمة الأمس وهزيمة اليوم من خلال ترهين نص تاريخي ينتمي لصلاح الدين وعصره وكأن عكا الأمس هي عكا اليوم في عملية (ترهين سردي) للخطاب الروائي.

لكن رواية "عكا والملوك" لم تكن رواية تأريخية، بل كانت مراجعة للتاريخ واختار الكاتب شخصية لها مكانتها الروحية والوجدانية ولكن في لحظات يعتريه التردد والحيرة والحزن البشري، ولعل هزيمة صلاح الدين في حصار عكا وانكسار شوكته يتماهى مع واقعنا المرير فالحصار والهزيمة لم ينته بل لا زال مستمراً حتى اللحظة مع اختلاف الظروف والتفاصيل، وهنا تبرز الرؤية المغايرة للتاريخ عند أحمد رفيق عوض؛ فهو يعيد قراءة التاريخ بما يناسب الواقع ، والحاضر لاستشرافه للمستقبل لعلنا نستفيد من تلم المراجعات التاريخية .

نعم ذهب "أحمد رفيق عوض" في التاريخ إلى مناطق أكثر إشكالية وأكثر إعتاماً ، والتي لا يتحدث عنها العامة، فيذهب للمناطق الإشكالية تماماً بمعنى كيف نرى الأبطال؟ وكيف يتصرفون في اللحظات الحرجة الصعبة ؟ وهذا يكسب تجربة الكاتب الروائية قوة في التعبير المليء بالدلالات والرموز مستندة إلى التراث التاريخي.

ويرى الدكتور "يوسف رزقة" أن هدف الروائي من اختياره للهزيمة موضوعاً ليجلّي لنا مفهوم القيادة ويبين لنا طبيعة الصراع الحضاري يقول: "إن اختيار الروائي للهزيمة في عكا موضوعاً لروايته لا يهدف إلى تقديم تسلية بقراءة الماضي، أو ليخبرنا أن صلاح الدين البطل هزم يوماً في عكا، بل أحسبه يسعى إلى تجلية مفهوم " القيادة الحيوية " من ناحية، وطبيعة الصراع التي تسكن العلاقة مع الغرب من ناحية أخرى، إضافة إلى الهزيمة نفسها[١].

---

[١] يوسف رزقه : الرؤية وتعدد الأصوات في رواية عكا والملوك للروائي أحمد رفيق عوض، مجلة الأقصى –غزة– عدد خاص ج١، ٢٠٠٦م، ص ١٦٧.

لقد اهتم عوض بالشخصية لأنها ميزة وسمة تميز بها الرواية عن باقي فنون الكتابة، والشخصية هي المحور الرابط بين مشّكلات السرد الأخرى، وقد أظهر الروائي شخصية صلاح الدين بشكل لم نعتد عليه من ذي قبل حيث ذكر بعض سلبيات القائد صلاح الدين ، وهذا ما أكد عليه الدكتور كمال غنيم والأستاذة حنان غنيم حيث يقول: " لم يصوره بشكل مثالي، فهو قد حمله صفات إيجابية مثل الحزم كأبي بكر والتدبير كعمر والشجاعة كعلي والرقة كعثمان، وحمله أيضاً صفات سلبية مثل بكائه كالثكلى، ووصفه في شبابه بأنه كان لاهياً، غافلاً، منكباً على ملذات الشباب، وأنه كان شاباً لا يكاد يلتفت إليه أحد، فهو لا يختلف عن أي أمير من آل أيوب، بعيداً عن الحرب، وكان يلهو ويعبث..." (١).

لقد لجأ أحمد رفيق عوض في (عكا والملوك) إلى التاريخ باحثاً فيه عن أحداث ذات صلة وثيقة بما يدور ويحدث في الوقت الراهن من وقائع مفجعة وهزائم متتالية " إن الخطاب الروائي في حركته بين الماضي والحاضر، أو بين الوثيقة التاريخية والخيال يقدم للمتلقي مساعدة في قراءة النص مرتين، مرة في قراءة التاريخ بعين تتفوق على عين المؤرخ ، ومرة أخرى بقراءة الحاضر المعيشي قراءة ثرية، وهو مزود برؤية التاريخ والمؤرخ إضافة إلى الرؤية الروائية والكيفية التي يقدمها الحكي"(٢).

لقد اهتم أحمد رفيق عوض بشخصية صلاح الدين في روايته (عكا والملوك) وقد عنون فصول الرواية بأسماء لشخصيات تراثية تظافرت تلك الفصول لإظهار شخصية القائد صلاح الدين، وقد بنى معالم شخصية صلاح الدين وفق الحدث وتنامي الصراع، حيث ذكر بعض صفات صلاح الدين البطل الرئيس الايجابية ؛ فتتحدث عن هيبته واختلافه عن باقي الأمراء وقد جاء ذلك على لسان ابن شداد يقول : " مولاي صلاح الدين له هيبة ما بعدها هيبة، وهو سلطان ابن سلطان، لا يلهو ولا يلعب، ولا يهذر ولا يهزر، لا يتخذ المعازف ولا القيان، ولم تسحره الحسان أو تغرقه الدنان، رجل زاهد اختار ظهور الخيل والخيام التي ينصبها في السهول والتلال... يأكل اللبن والتمر والجبن والعسل، ولا يكثر اللحم... كثير الصلاة كثير الاستغفار، يوقر أهل العلم وأهل المعرفة..." (٣).

(١) كمال أحمد غنيم وحنان أحمد غنيم : مشكلات السرد في رواية عكا والملوك لأحمد رفيق عوض، مجلة الزيتونة، العدد ٢، يوليو ٢٠١١، ص١٩٠.

(٢) يوسف رزقه : الرؤية وتعدد الأصوات، ص١٨٤.

(٣) أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م، ص٧٦.

ومن صفاته الإيجابية التي يحدثنا عنها ابن شداد أيضاً أنه كان يشاور خواصه من العلماء ولا يستفرد برأيه، يقول ابن شداد: " وقد رأيته عندما وصله كتاب من ولده الملك الظاهر، صاحب حلب يقول فيه إن شاباً زري المظهر لا يستحم، ولا يقص شعره، ولا يغير ملابسه حتى أنتن، يبتدع قولاً في الله يشابه أقوال براهمة الهند، أو دعوة القرمطي في بلاد البحرين، وأن فقهاء حلب وعلماءها يطلبون الدستور بقتل هذا الشاب واسمه السهروردي.

وما إن انتهى مولاي وسيدي صلاح الدين من قراءة الكتاب، حتى اغتم واهتم، فجمع إليه خواصه من العلماء والفقهاء..." [١].

وفي موطن آخر يظهر شجاعته وقوته وفي الوقت ذاته يظهر رقته ولطفه " كان الجميع يعرف أن سيدي ومولاي محارب حلب يقابل العشرة والمئة ولا يهاب.

ولكنه في الوقت ذاته صاحب قلب هش، يبكي لأفراخ ضلت الطريق إلى العش... هذا السلطان الذي يصبر على محاصرة قلعة ما عدة شهور، ثم يبكي من أجل طفل فقد أمه..." [٢].

وفي موطن آخر يظهر لنا الخطاب على لسان ابن شداد ليونة صلاح الدين وعدم إكراهه للناس على فعل أي أمر وتركيزه على أن يكون قدوة حسنة وإيمانه بأن الناس إذا أحبوه قلدوه فهو رجل فعّال وليس قوّال فهو متعفف مجاهد رحيم بالناس حتى بأعدائه يصالح في وقت القوة والضعف ، وله صفات الصحابة العظام .

" صلاح الدين لا يطلب من الناس فعل شيء أو يكرههم على أمر ما، فهو رجل مثالي يقتدي بأعماله وتصرفاته الجميع "سيدي ومولاي السلطان الناصر صلاح الدين لم يقل للناس: تعففوا، بل تعفف هو نفسه، ولم يقل للناس: جاهدوا، بل جاهد هو نفسه، ولم يقل للناس: ارحموا بعضكم بعضاً، بل رحم هو نفسه الناس، ورحم أعداء الأمة... كان فيه حزم أبي بكر، وتدبير عمر بن الخطاب، وشجاعة علي بن أبي طالب، ورقة عثمان بن عفان..." [٣].

تبرز شخصية الناصر صلاح الدين ، وقد جمعت من المتناقضات ما يندر وجودها في أهل زمانه إذ " كان يغضب من هؤلاء عندما يخطفون طفلاً أو امرأة ، فيطلب إليهم إعادتهم حيث كانوا بعد أن يفديهم من حر ماله . كان الجميع يعرف أن سيدي ومولاي محارب صلب يقابل

---

[١] السابق : ص٧٦.

[٢] السابق : ص٨١.

[٣] السابق: ص٨٥.

العشرة والمائة ولا يهاب ، ولكنه في الوقت ذاته صاحب قلب هش ؛ يبكي لأفراخ ضلت الطريق إلى العش " [١]

من خلال تلك الشهادات تظهر لنا صفات القائد صلاح الدين الإيجابية، ونلاحظ أن كاتبنا قد بنى شخصية صلاح الدين وفق رؤية إيهام المتلقي بواقعية هذه الشخصية والأحداث وتاريخيتها حسياً، وذلك من خلال تقانة الشهادة التي يدلي بها الشهود.

وفي المقابل حمّل الكاتب شخصية صلاح الدين صفات سلبية مثل بكائه كالثكلى، ووصفه بأنه كان لاهياً في شبابه منكباً على ملذات الشباب وأنه كان أميراً عادياً مثل باقي أمراء آل أيوب يلهو ويعبث لا دخل له بمجريات الأمور بعيداً عن الحرب.

لقد قدم لنا أحمد رفيق عوض شخصية صلاح الدين بخلاف الدارج في أذهان وعقول الناس حيث القداسة والتنزه عن النقد، فقد قدمها بشكل ومنظور جديد مخضعاً إياها للنقد والمراجعة، فكلٌ يؤخذ منه ويرد عليه ، وليس هناك أحد فوق الخطأ فكلنا يخطئ ويصيب .

لقد ذهب أحمد عوض لزوايا لم يذهب إليها التاريخ من ذي قبل، فصلاح الدين قائد عظيم يسري عليه ما يسري إلى أي بشر وبذلك قدم لنا أحمد رفيق عوض شكلاً جديداً من أشكال الرواية الجديدة على مستوى البناء الفني الجديد.

وقد جاء وصف صلاح الدين بصفات سلبية على لسان القاضي الذي يصف بكاء صلاح الدين كالثكلى على سقوط عكا بيد الإفرنج .

يقول القاضي الفاضل : " مولاي صلاح الدين صار يبكي كالثكالى... دخلت خيمة مولاي صلاح الدين، وما أن رآني أدخل عليه أمشي بصعوبة بالغة، حتى هب إلي... احتضنني وأنا أسمع نهنهة بكائه. تعال إلي.. تعالى إلي يا قاضينا الأجل... أعنّي على ما أنا فيه"[٢].

ويصفه ابن شداد في موطن آخر بأنه كان لاهياً في شبابه غافلاً منكباً على الملذات يقول ابن شداد " فسيدي ومولاي الذي قضى ما يزيد على خمسة وعشرين عاماً من عمره المبارك في بعلبك ودمشق والقاهرة لاهياً غافلاً منكباً على ملذات الشباب. كمن هم في عمره من الأمراء وأبنائهم " [٣].

ووصفه الروائي على لسان ابن جبير أيضاً بصفات استخدم لفظتي " يقال وقيل" وهي من الألفاظ التي تدل على حيادية الكاتب، وتخرج الكاتب من مسئولية تلك الاتهامات أو الصفات أو

---

[١] أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص٨١.

[٢] السابق : ص ٢٥٥-٢٥٦.

[٣] السابق: ص٨٤.

المعلومات ، ونلاحظ أن الفعل (قيل ويقال) أفعال مبنية للمجهول وهي أفعال تثير الشك في مصداقية الخبر وبالتالي إمكانية عدم حدوثه، وربما يحمل تكرار هذا الفعل عدم رضى الراوي عن تلك الأخبار ولنتأمل كلام ابن جبير:

" قيل هنا إن صلاح الدين لا يحارب إلّا يوم الجمعة، وقيل إنه ابتسم للمرة الأولى بعد أن غسل قبة الصخرة بيده بماء الورد، وقيل إنه رغم ذلك يصافح الفرنجة وخاصة نساءهم البيضاوات، وقيل إنه سنّي متعصب، وقيل إنه يميل إلى التصوف، وقيل إنه يحب الدنيا ولكن خواصه جعلت منه ناسكاً وزاهداً أمام العامة، وقيل إنه اغتصب ملك ولي نعمته نور الدين وأنه تزوج أرملته حتى يرثه تماماً... وقيل أنه يحب المُلك ولهذا فقد اقتسمه مع أولاده وإخوته، وقيل إنه خاضع لتأثير وزيره القاضي الفاضل، وطبيبه اليهودي موسى بن ميمون، وقيل إنه خاضع لأجناده من الترك والأكراد"(١).

لقد ذكر الكاتب تلك الصفات التي تخدش صفاء ونقاء شخصية صلاح الدين لدى الكثير من العامة والخاصة من المسلمين ليبرز لنا أن صلاح الدين القائد العظيم الذي حرر المسجد الأقصى لا يوجد عليه إجماع فله خصوم من أبناء المسلمين مثل الربان يعقوب حيث يقول بأن صلاح الدين يكره المصريين ولعل موقف الربان قد تأثر بطرد صلاح الدين له من بحر مصر إبان المؤامرة ، لهذا شك صلاح الدين بإخلاص أمراء البحر فطردهم جميعاً وكان الربان واحداً منهم (٢).

ولكن هذه الصورة تغيرت في نهاية الرواية حيث وجد الربان المصري ابنه الراضي قائداً من رجال صلاح الدين، وعندما يقابل الربان صلاح الدين يغير وجهة نظره ويعلم خطأه تجاه صلاح الدين.

ويرى الباحث أنّ تلك الروايات يسهل التشكيك بها أو تكذيبها فليس معقولاً أن صلاح الدين لا يحارب سوى يوم الجمعة ولا نستطيع التسليم بأنه ابتسم مرة فقط ، فهذه الصفات لا تتوافق مع صفات صلاح الدين، لكن عبارة (وقيل إنه يحب العلم والجهاد) هذه العبارة تتوافق مع مناقب صلاح الدين، فكان ينبغي أن ترد في المستوى السردي اليقيني لا في المستوى السردي التشكيلي.

لقد حاول أحمد رفيق عوض أن يتماهى مع النص التاريخي بشكل عام موهماً القارئ بواقعية وتاريخية شخصية صلاح الدين، واصفاً شخصية صلاح الدين بصفات مبالغ فيها أحياناً

---

(١) أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص٩.

(٢) السابق : ص١٧.

رغم أن الباحث يرى عدم ثبوت مصافحة صلاح الدين لنساء الفرنجة ولم يتودد لهم، فقد حاربهم حتى مماته ومات فقيراً، وهذا ما أثبتته كتب التاريخ .

وقد عزا كمال غنيم وحنان غنيم هذا الأمر إلى أن الكاتب أراد أن يتماهى تاريخياً مع روايات ضعيفة أبرزت رؤية بعض خصوم صلاح الدين من الشيعة وغيرهم من جهة، ولحبك الرواية وتفعيل أحداثها من جهة أخرى، ومن باب التماهي مع واقع الاختلاف التاريخي حول الشخصيات العظيمة[١].

هناك اتجاهان للنقاد حول رؤيتهم أو نظرتهم للشخصية ؛ فالأول يعظم الشخصية موهماً القارئ بواقعيتها وتاريخيتها والثاني يقلل من شأنها ويثبت ورقيتها ويجعلها مثل أي مُشّكل من مشّكلات السرد الأخرى، من لغة وحيز وزمان ومكان وحدث ... والكاتب الروائي بصفته مبدع هذا الفن ملزم بمنح شخصياته صفات فنية تجعلنا نقف على وعي بطرق تمييزها وصيغها في السرد ؛ فالروائي يحاول جاهداً أن يبث روح الواقع في كائناته الورقية التي تبدو بارزة في ثنايا السرد ؛ فيمنحها صفات مادية ومعنوية لذلك يعتقد بعض القراء بواقعيتها ، وهي خدعة فنية يلجأ إليها الكاتب الروائي ليجذب القارئ مع إيماننا بورقيتها فهي شخصيات خيالية ، وإن شابهت شخوص حقيقية .

لقد بنى أحمد رفيق عوض شخصياته وفق الاتجاه الأول مستعيناً بتقنيات توهم المتلقي بتاريخية الشخصيات ومن تلك التقنيات:-

١- تقانة الوثائق التاريخية :

المتمثلة في الشخصيات التاريخية بأسمائها الحقيقية ووظائفها وصفاتها المادية والأخلاقية الموثقة في كتب التاريخ والتراجم مثل (صلاح الدين وابن جبير والقاضي الفاضل وقراقوس وابن شداد وعمر الزين والمشطوب...

ورغم وجود هذه الشخصيات في كتب التاريخ إلّا أن هذا الوجود من حيث الحدوث لا من حيث الكيفية وبذلك حفظ الكاتب التمايز بين متن الرواية وبين متن الكتب التاريخية، فهناك فرق بين ما أنتجه المبدع وبين ما هو مسجل وموثق في كتب التاريخ.

إن مادة التخيل في رواية (عكا والملوك) هو فترة ، وأحداث معينة ، ومحددة من التاريخ، ولكنها ليست كتابة معادة لذلك التاريخ المنتهي ولكنها رواية تتخذ من أحداث تاريخية محددة منطلقاً

---

[١] انظر كمال غنيم وحنان غنيم : مشكلات السرد في رواية عكا والملوك، مجلة الزيتونة، العدد٢، يوليو ٢٠١١، ص١٩٠.

لها لهدف أكبر من دائرة التاريخ من خلال عمليات التركيب والترهين والتخطيب، فهو يعيد إنتاج التاريخ روائياً وفق رؤية الكاتب الخاصة، وهو يدخل لأماكن أهملها التاريخ، يعود إليها أحمد رفيق عوض وفق وجهة نظره في التاريخ عندما يصدمه الواقع الفلسطيني المهزوم، لذلك لم يسجل أحمد عوض التاريخ كما دونه المؤرخون، بل اختار أحداثاً ذات صلة بالواقع المعاش وأعاد صياغتها ليربط بين الماضي والحاضر، ويظهر هذا جلياً من خلال إهداء الكاتب فهو يقول: " إلى أحبتي الذين هم ذهبوا، إلى أحبتي الذين هم حولي، إلى أحبتي الذين هم سيأتون.." [١].

فالكاتب يعلن أن ما مضى لم ينته وأنه ما زال حياً في الحاضر وأن الزمن الراهن مرتبط بما سبقه وبما سيأتي في المستقبل، وعلينا أن نعيش الحاضر من خلال تجارب الماضي فهزائم الأمس تشبه هزائم اليوم وربما المستقبل، فالحاضر يتفاعل مع الماضي من أجل بناء المستقبل.

٢- تقانة الشهادة :

وهي التي تدلي بها بعض الشخصيات التي تشارك في أحداث الرواية حيث يكون لتلك الشهادات دوراً فاعلاً في تشكيل صورة عن تلك الشخصيات، وخصوصاً الشخصيات الرئيسة في الرواية مثل شخصية صلاح الدين التي تبرز في معظم الفصول حيث يحاول الكاتب إبراز شخصية صلاح الدين من خلال الفصول التسعة ، ومن خلال تقنية شهادة الشهود التي نحن بصدد الحديث عنها .

وتعد تقنية شاهد العيان هي الأبرز في رواية عكا والملوك، وهي تقنية بديلة لأسلوب الراوي الواحد، ويعمد الكاتب إلى استخدام تلك التقنية لكي يعطي نفسه راحة من السرد ، وهو بذلك يعبر عن فكر الآخرين وعن وجهات نظرهم ، وهو بذلك لا يسعى لإخضاع شخصياته لرؤيته الأحادية أو الذاتية، ولكنه يمرر رؤيته ووجهة نظره من خلال وجهة نظر شخصيات الرواية والتي شاركت في إنتاج النص.

لقد اتجهت الرواية التقليدية لأسلوب الراوي الواحد العالم بكل شيء لكن الرواية الجديدة استخدمت تقنيات بديلة لأسلوب الراوي الواحد العالم ونستطيع القول بأن أحمد عوض سادت عنده تقنيات متعددة هي بديلة عن أسلوب الراوي الواحد ؛ فهو بذلك قد أنتج رواية جديدة بامتياز.

يقول ابن شداد: " أشهد الله أني قضيت معه صيفين وشتاءين حول عكا نواجه العدو المخذول ولا شيء يشغله عن مقاتلتهم لا الولد ولا الملك ولا اللذة ولا المغنم، رغم مرضه المتكرر.. يُبس في جوفه، ورغم معاندة بعض الأمراء له، وطلبهم الدساتير المتكررة في المغادرة... في الشتاء

---

[١] أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص٣.

المنصرم، تركه الجميع وحيداً مع خواص عسكره... تركوه في المطر والثلج، وعادوا إلى بلادهم يتنعمون... أما هو ظل على تل خروبة بخيمته، يصلي الجماعة، ويجلس للمظالم يومي الاثنين والخميس"(١).

ويقول القاضي الفاضل: "عكا تسقط بيد الإفرنجي البغيض وعلى أسوارها وأبراجها وجوامعها ترفرف أعلام طواغيت الفرنجة كلها، مولاي السلطان صلاح الدين صار يبكي كالثكلى، أسرع إليه القاضي ابن شداد، والكاتب عماد الدين الأصفهاني، يهونان عليه المصاب، أما أنا فلم أستطع أن أتحرك من خيمتي"(٢).

ويقول يعقوب المصري: "صلاح الدين يكره المصريين... قال بمرارة صلاح الدين شديد علينا..." (٣).

ويقول ابن شداد: "مولاي صلاح الدين له هيبة ما بعدها هيبة، وهو سلطان ابن سلطان لا يلهو ولا يلعب ولا يهذر ولا يهزر"(٤).

لقد أظهرت لنا هذه الشهادات ومثلها الكثير في الرواية أظهرت تباين الآراء تجاه القائد صلاح الدين والتي وضحت لنا ملامح شخصية صلاح الدين، كما أنها أكسبت الخطاب الروائي بعداً وثائقياً أوهم المتلقي بواقعية هذه الشخصية والأحداث والأحياز والزمن.

وإضافة لما تقدم، فإن الخطاب الروائي في هذه الشهادات قد كشف لنا ملامح شخصية صلاح الدين بطريقة أدبية، إنها تجلية لأبعاد كامنة نحو القوة والضعف وتحمل المسئولية.

٣- تقانة السيرة، والسيرة الذاتية:

تلعب هذه التقنية دوراً مهماً في تجلية الشخصيات والأحداث وتوضيحها وهي توهم القارئ بحقيقة ما يقرأ، وتعد هذه التقنية السردية من التقنيات الحديثة وتتميز بقدرتها على التعبير بحيث تفوق تقنيات أخرى وذلك لأنها تقدم معلومات عن الشخصيات مطابقة للواقع كثيراً، لكن الروائي ينقله لنا على شكل عمل روائي متخيل، وبدخول تلك التقنية في العمل السردي أصبحت بحاجة إلى دراسة فنية وواقعية من حيث الشكل والمضمون.

---

(١) أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص٧٧.

(٢) السابق: ص٢٥٥.

(٣) السابق : ص١٨.

(٤) السابق: ص٧٦.

وفي رواية عكا والملوك لا نكاد نجد صلاح الدين يتحدث عن نفسه، ولكن هناك شخصيات تتحدث عن نفسها موضحة علاقتها مع صلاح الدين ومن تلك الشخصيات يعقوب المصري الذي يعرفنا على نفسه بنفسه حينما سأله ابن جبير كيف عملت مع أمير البحر عبد الله بن ميمون وأنت مصري؟ فقال له: " كنت بحاراً في أسطول الدولة العبيدية، كنت قائد عشرة، على طراد يضرب النفط والنار، وقد حاربت طويلاً في دمياط والفرما وعسقلان، حتى سقطت دولة الفاطميين على يد صلاح الدين الأيوبي، ولكن ذلك لم يرض كثيرين، فعملوا على طرد صلاح الدين وعساكره بالتآمر مع ملك الروم البيزنطي... لكن صلاح الدين قضى على تلك المؤامرة... ولهذا فقد شك صلاح الدين بإخلاص أمراء البحر، فطردهم جميعاً وكنت أحدهم"[١].

وهنا يظهر دور السيرة الذاتية في توضيح العلاقة بين صلاح الدين، وشخصية يعقوب المصري حيث يكن يعقوب العداء لصلاح الدين لطرده من إمارة البحر وتولية قراقوش الرومي الخصي على الإسكندرية مما يجعل يعقوب يجزم بكره صلاح الدين للمصريين، وهكذا تلعب السيرة الذاتية دوراً في الكشف عن المشاعر والانفعالات بين الشخصيات داخل الرواية.

قد تأتي السيرة الذاتية على لسان أصحابها بالتقسيط تكشف صفاتها وحيثياتها وقد تأتي السيرة الذاتية على لسان آخرين وهي ما تسمى (السيرة الغيرية) حيث تأتي صفاتها بالتقسيط فتتكشف شيئاً فشيئاً عبر الأحداث ومن خلال حديث الشخصيات عنها، وذلك مثل حديث ابن جبير عن صلاح الدين كاشفاً لنا بعضاً من صفات القائد العظيم.

يقول ابن جبير: "عندما زرت الساحل الشامي قبل عدة سنين، كان صلاح الدين أميراً من الأمراء الكثر الذين يتقاتلون على كل شيء وعلى لا شيء، كانت كل مفخرته أنه أنهى دولة العبيديين المثيرة للجدل بدعوتها وبدعها، أما الآن فإن هذا الرجل يحرر الأقصى بعد جهد جهيد، رجل جدير بالدعوة له بالنصر والمؤازرة "[٢].

---

[١] أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص١٧.

[٢] السابق : ص٩.

٤- **تقنية الرسائل و المذكرات:**

هذه التقنية لها أهمية بارزة في إغناء الرواية بالأحداث والتفاصيل، وهي تعطي الرواية نوعاً من المصداقية ، ومزيداً من الواقعية والألفة، كما أنها تعطي الروائي نوعاً من الراحة حيث يستجلب نفساً وصوتاً مغايراً، يكسر طولية الحكي وخطيته من جهة، ويفتح أفقاً مختلفاً للسرد من جهة ثانية.

وتعد هذه التقنية من أكفأ الأساليب السردية وأقدرها على الغوص عميقاً في أغوار الشخصية وإبراز تداعياتها النفسية " إذ تتيح للكاتب التعبير عن الأحاسيس والعواطف التي تمور في نفوس الشخصيات بحرية كما أنها تساعد على التنبؤ والاستشراف بالنتائج قبل وقوعها " [١].

وقد استخدم أحمد عوض هذه التقنية وأبدع فيها، حيث لعبت تقنية الرسالة دوراً كبيراً في توضيح مدى المكانة التي وصل إليها صلاح الدين عبر رسالة اعتذار أرسلها (راشد الدين سنان) لصلاح الدين يعتذر فيها عن محاولة اغتيال أتباعه له واصفاً لهم بالصبيان، وأن هذا الأمر لم يكن بعلمه يقول راشد الدين سنان "من راشد الدين سنان صاحب الأمر، المهيمن بسيفه واسمه، المتحكم في مصياف وبانياس وقدموس والكهف والخوابي، الآمر لما تعرف و لما لا تعرف، إلى السلطان العظيم والاسفهسلار الكريم صلاح الدين بن نجم الدين أيوب، مالك مصر، وهازم ابن مودود ومن تبعه من الأمراء الخرعين، أنهي إليك رجوعنا عما بدر من بعض صبياننا، وأن ذلك لم يكن بأمرنا ولا بعلمنا، وأنه لك ما شئت من أموال أو متاع، وأنه لك أن ترحل عن بلادنا بسلام، وإن حامل رسالتنا إليك هو الموقر ريمون بن الزين مفوض بأمر الكلام والسلام "[٢].

وفي موطن آخر تبين لنا الرسالة اهتمام صلاح الدين للعلماء والفقهاء، وتوقيره لهم بمشاورتهم في أمور حكمه وما يستجد من أهل البدع، ويأخذ برأيهم يقول ابن شداد : " وصله كتاب من ولده الظاهر، صاحب حلب يقول فيه إن شاباً زري المظهر لا يستحم، ولا يقص شعره، ولا يغير ملابسه حتى أنتن، يبتدع قولاً في الله يشابه أقوال براهمة الهند، أو دعوة القرمطي في بلاد البحرين، وأن فقهاء حلب وعلماءها يطلبون الدستور بقتل هذا الشاب واسمه السهروردي. وما إن انتهى مولاي وسيدي صلاح الدين من قراءة الكتاب، حتى اغتم واهتم، فجمع إليه خواصه من العلماء والفقهاء وعلى رأسهم سيدي القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، فعرض الأمر بكل اهتمام"[٣].

---

[١] على عودة : الفن الروائي عند جبر إبراهيم جبرا، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، ط١، رام الله –فلسطين– ٢٠٠٣، ص١٠٦.

[٢] أحمد عوض : عكا والملوك، ص٢١٨.

[٣] السابق: ص٧٦.

وفي موطن آخر تبين لنا الرسالة بسالة إبراهيم النفاط وإصراره على القتال حيث يسلم رسالتين إلى مقدم البرج قُبيل عمليته الاستشهادية الأولى لمقدم فرقة النفاطين الراضي في عكا المحاصرة، أما الثانية فلامرأة ما في دمشق المحروسة وتسلم الرسالة للراضي " قرأ الراضي رسالة إبراهيم إليه فإذا فيها حض على الجهاد، والاستبسال في قتال الفرنجة أعداء البلاد والعباد، ثم علقت الرسالة في المسجد الجامع ليقرأها الجميع " (١).

وتلعب المذكرات دوراً مشابهاً للرسائل في إبراز شخصية صلاح الدين من خلال المذكرات التي يكتبها القاضي الفاضل عن تجاربه وسير حياته اليومية، وهذه التقنية تكسب الرواية نوعاً من المصداقية ومزيداً من الواقعية والألفة ويفرد عوض لهذه التقنية صفحات خاصة تحت عنوان متجددات القاضي الفاضل ، والتي يتحدث فيها عن تأثير الهزيمة على القائد صلاح الدين ومدى شعوره بالتقصير نحوها ، يقول القاضي الفاضل:

" اليوم يوم بكاء، وأهل بيسان بكاؤون، وهم الذين أشاعوا في ديار الإسلام كلها أن النظر إلى وجه الإفرنجي يسبب ظهور البثور على الجلد.

وها هي المشاهد في عكا تعيد إلي كل المشاهد الأخرى التي حدثني عنها والدي وتلك التي رأيتها بعيني.

عكا تسقط بيد الإفرنجي البغيض، وعلى أسوارها وأبراجها وجوامعها ترفرف أعلام طواغيت الفرنجة كلها مولاي السلطان صلاح الدين صار يبكي كالثكلى "(٢).

ويقول : " وقبل أن نغادر تل العياضية، وقف مولاي على حصانه، اتجه إلى عكا، وقال بصوت مسموع: يشهد الله يا عكا أني فعلت ما بوسعي، وأرجو من الله العلي أن يهبني القدرة والقوة لاستعادتك، فإن لم أكن أنا، فلييسر لك الله رجلاً من رجاله الثقاة وسيفاً من سيوفه المصقولات يعيدك إلى حوزة الإسلام والمسلمين.

تحشرج صوته، أدار رأس حصانه ونزل عن التل ببطء وكأنه لا يريد المغادرة أو كأنه يعتذر عن المغادرة " (٣).

---

(١) أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص٥٩.

(٢) السابق : ص٢٥٥.

(٣) السابق : ص٢٧٦ .

بهاء الدين قراقوش [١] :

" قد تُزيّف حقائق التاريخ أو تشوّه وتُغيّر ، وقد تحل مكانها حكايات وأساطير وخرافات ، فتطمس معالمها وتطفئ جذوتها لتضحى الحقيقة سراباً؛ فتكتسي الحكايات والخرافات ثياب الحقائق التاريخية ، وتصبح قادرة على الإيهام بمصداقيتها ... ومن البدهي أن يكون وراء هذا التزييف والتشويه أناس لديهم مبررات قوية تدفعهم إلى فعل ذلك وترويجه،ولهم غايات يسعون إلى تحقيقها"[٢]

هذا ما ينطبق على القائد قراقوش فقد تعرض لعمليات تشويه وأسطرة مقصودة من قبل المصريين وأصبح مثلاً يطلق على كل ظالم فيقال في المثل الشعبي " ظلم قراقوش " و " أظلم من قراقوش ، بل وصل الأمر إلى تصنيف الأسعد بن مماتي[٣] كتاباً وسمه باسم " الفاشوش في حكم قراقوش " ، وهو كتاب يشتمل على مجموعة من النوادر التي تصوّر بهاء الدين قراقوش بصورة الأبله الظالم ، وتثير الضحك والسخرية من شخصيته وسلوكه "[٤] .

لكن المؤرخين المحايدين تناولوا شخصية قراقوش بكثير من الموضوعية والايجابية ، دون تطرق لأوصاف الظلم التي وصفه بها بعض المتحاملين ،وبينوا مكانته عند صلاح الدين فكان مثال الجندي المخلص والقائد الحازم ، والأمين الذي يوليه صلاح الدين الإشراف على بناء القلاع وإمارة المدن مما يدلل على مكانته العظيمة عند صلاح الدين [٥].

---

[١] أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، الملقب بهاء الدين، كان خادم صلاح الدين، وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين، فأعتقه. ولما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية، وفوض أمورها إليه واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وكان رجلا مسعودا وصاحب همة عالية، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، انظر (ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،وأنباء أبناء الزمان، تحقيق :إحسان عباس ، دار صادر –بيروت ،١٩٧١م،٩١/٤.

[٢] نبيل أبو علي : بهاء الدين قراقوش بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية ، بحوث ، مجلة علمية محكمة تصدر عن المركز القومي للبحوث وجامعة فلسطين غزة –فلسطين– العدد الثاني ، تشرين ٢٠٠٨م، ص٥١.

[٣] هو أديب مصري ،يرجع نسبه لأسرة من أقباط أسيوط في صعيد مصر،عاش في العصر الأيوبي ،انظر (أحمد سيد محمد) ، الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي ، القاهرة : دار المعارف بمصر ، ط٢ ١٩٩٢ ، ص٣١٥ .

[٤] السابق : ص٥١.

[٥] انظر : السابق ، ص٥٤.

هذا ما سنتطرق إليه من خلال رواية عكا والملوك لنرى كيف أظهر أحمد رفيق عوض شخصية قراقوش .

يقودنا الراوي التقليدي العارف بالحديث عن شخصية بهاء الدين قراقوش في الفصل الثاني المعنون باسم (قراقوش) ، ويُعد هذا شكلاً من أشكال الرواية التقليدية الذي يستأثر الراوي الحديث نيابة عن الشخصية نفسها، وبذلك يكون أحمد رفيق عوض قد مزج فنياً بين الشكل التقليدي للرواية بالشكل القديم، حيث إنه يسلم راية السرد في ثلاثة فصول للراوي التقليدي العارف هي (قراقوش والمشطوب ، وريتشارد) وباقي الفصول يتسلم راية السرد فيها الشخصية المعنون الفصل باسمها.

" إن وجود الراوي في الفصول الثلاثة يمكن أن ينظر إليه على أنه يقوم بوظيفة تكميلية تستكمل ما لم تقله الأصوات..." [١].

ويحدثنا الراوي عن سيرة الأمير بهاء الدين قراقوش وعلاقة بصلاح الدين قائلاً: " التقطه آل أيوب في معارك قديمة حول بعلبك أو دمشق... انتقل إلى خدمة السلطان الناصر صلاح الدين عندما انفض من حوله الأمراء... وكذلك انفض عنه حتى بعض أقاربه... في ذلك الوقت العصيب التفت السلطان الناصر بسمرته الغامقة، وابتسامته الآسرة وقال لقراقوش: أحتاجك –الآن– يا بهاء الدين. قراقوش، في تلك اللحظة، لم يستطع أن يتنفس، قال بصوت مخنوق: مرني أيها الأمير الاسفهسلار.

قال السلطان... سنخدم هذه الأمة... قال قراقوش وهو يستعيد القدرة على التنفس: مُرني أيها الأمير... أفديك بعنقي أيها الأمير..." [٢].

هذه الفقرة تبين لنا ماهية العلاقة بين قراقوش وصلاح الدين حيث إن قراقوش يحظى بمكانة عالية عند صلاح الدين لمساندته إياه في الوقت الذي تخلى الأمراء عنه، كما وتبين عظم ولاء قراقوش لصلاح الدين.

ويظهر لنا الخطاب الروائي تحامل المصريين على الأمير قراقوش منذ بداية الرواية وذلك على لسان الربان في حوار ومع ابن جبير عندما سأله أنه يعرف قراقوش قال ساخراً: "هذا خصيّ رومي من خواص صلاح الدين، استعمله علينا في الإسكندرية. ولماذا تسخر منه؟!

أنت لا تعرف قراقوش ولم تسمع به . تصور أن يحكمك خصي رومي، لا يعرف لغتك ولا يفهم شيئاً سوى أن يفرض أوامره بالجند والشرطة..." [٣].

---

[١] يوسف رزقة : الرؤيا وتعدد الأصوات في رواية عكا والملوك للروائي أحمد رفيق عوض، ص١٩٧.

[٢] أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص٤٣-٤٤.

[٣] السابق : ص١٧.

لقد تجلت شخصية قراقوش لدى المصريين من خلال رسم الأسطورة حوله تارة ، ورسم الصورة الهزلية تارة أخرى إبان حكمه لهم في القاهرة وهو المسار الزمني الأول للأمير قراقوش، وتنهض سيرته على قراءة نفسية توضح ملامح شخصية ذلك المملوك الرومي والذي تحول إلى أمير له بصمات حضارية في مصر وجولات وصولات في ميدان الحرب في عكا.

ونلمح شخصية قراقوش من خلال الأساطير التي نسجها المصريون حول شخصية الأمير قراقوش، حيث استقر في أذهان المصريين أن قراقوش شخصية خارقة للعادة، تتعدى قدرات البشر وقد وصفوه بأنه له صلة بالجن ولا ينام ولا يأكل ولا يشرب ولا يضحك ولم يتزوج.

وقد استخدم الكاتب الفعل (قيل) للدلالة على رفضه لتلك الصفات والمعلومات التي ذُكرت عن قراقوش ، ولإخلاء مسئوليته عنها يقول الراوي: " فقد قيل عنه أنه على صلة بالجن الذي بنى لسليمان ملكه؛ ذلك أن هذا الرومي استطاع في فترة وجيزة أن يبنى بأمر من صلاح الدين قلعة مهولة ظاهر القاهرة على جبل المقطم، وأن يبني أسوار المدينة في غمضة عين، وقذف به صلاح الدين إلى الإسكندرية ليمنع عنها أساطيل الروم والفرنجة عموماً، ففعل قراقوش الفعل ذاته وفي الوقت ذاته . ويحكم بالجن، فهو لا ينام الليل، ولا يأكل ولا يشرب، ولا يضحك، ولم يتزوج، ولم يُعرف عنه سرقة الأموال..." [(١)].

لقد رأى المصريون في شخصية الأمير قراقوش ما لم يروه من ذي قبل وبما أنهم أصحاب نكته وأرواحهم مرحة فقد نسجوا النكت والضحكات حول هذا الرومي حتى وصلت هذه الضحكات إلى بلاد الإسلام كلها، وأصبح ندماء الخليفة العباسي يسردون نوادر وحكايات ساخرة عن قراقوش لإضحاك الخليفة، وقد أطلق عليه الشاعر عمارة اليمني اسماً لصق به الضحك فهو " الضب" ذلك الحيوان الذي لا يأكل ، ولا يشرب إلّا مرة في السنة ، ولا يعمل إلّا في الليل، وهو مثله في الانغلاق والعزلة " رأى المصريون ما لم يروه من قبل، ولأنهم أصحاب نكتة وأرواحهم مرحة ويميلون إلى الصبر، فقد حولوا هذا الرومي إلى ضحكة طويلة، ساخرة وحادة ومؤلمة، وقد وصل صدى هذه الضحكة إلى بلاد الإسلام كلّها حتى مجلس الخليفة العباسي المستضيء؛ إذ تبرع أحد ندماء الخليفة بسرد نوادر قراقوش وحكاياته، فضحك الخليفة حتى بانت نواجده" [(٢)].

ويسهب السارد في إيراد أحكام قراقوش وقراراته المثيرة للجدل والعجب فقد " كان يستغرب ميل الفعلة والبنائين إلى الكسل وطلب الراحة أيام الأعياد، وهي كثيرة لدى المصريين، ما اضطر

[(١)] أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص٤٩.

[(٢)] السابق : ص٤٩.

معها قراقوش إلى إلغاء جميع الأعياد إلّا العيدين فقط حتى يوم الجمعة، أمر بأن تكون الراحة فيه وقت الصلاة ليس إلّا. لما رأى أن النهار طويل في أيام الصيف، قسم الفعلة والبنائيين ثلاثة أقسام بحيث يعملون طيلة الليل والنهار، ولما رأى أن أحجار المقطم لا تكفي، طلب إلى الناس أن يقدموا بعدد أولادهم أو خدمهم... ولما رأى أن الفعلة والبنائيين ينفقون وقتاً طويلاً في تناول الأكل ثلاث مرات في اليوم، فرق عسكره عليهم وجبة واحدة فقط..." [١].

هكذا ظهرت شخصية قراقوش شخصية مجدَّة بنّاءة تعمل ليل نهار لا يهمه شيء مما يهتم به الأمراء من النساء والطعام ومتع الحياة " قراقوش لم يعشق الطعام، ولم يعشق النساء، ولم يعشق الشراب... لم يعشق سوى شيء واحد فقط العمل العمل فقط " [٢].

قراقوش كره واحتقر من قلبه الأمراء الذين صانعوا الفرنجة ودفعوا لهم الجزية، واعتقد أن الرجل لا شيء سوى سمعته، قراقوش ذلك الأمير العظيم الناجح في بناء القلاع المهولة هو في ذات الوقت فاشل من ناحية التعامل مع النساء حيث اختصر الحديث مع جاريته، عندما كان يرغب في الكلام ولم يجد أحداً يتحدث معه .. ربما لأنه لم يعتد مصانعة النساء أو ربما أنه لا يجد وقتاً للمتع التي ملأت حياة الأمراء " جاءت جارية رومية ترفع آنية الطعام من المجلس، كان اسمها "رامك" في أواسط العمر، نحيفة ذات جلد أبيض... قال لها تحت إلحاح حاجة في صدره: رامك كانت تلك المرة الأولى التي يناديها باسمها المجرد. التفتت إليه مذعورة: نعم يا مولاي، لم يجد ما يقوله لها، ضاع ما في الصدر من مشاعر، قال: كيف حالك؟!.. هل تعرفين يا رامك أنني أتمنى.. انتبه لنفسه؛ لا يجدر الضعف والاعتراف أمام من لا يحسن ولا يفهم الاعتراف مد يده إلى وجهها الممتن، وربت عليه قائلاً: امضِ يا رامك إلى شأنك " [٣].

لقد جعل المصريون شخصية قراقوش أضحوكة يتندرون بها بعكس أهل عكا الذين وقروه وقدره ورأوا فيه مثال القائد ، وتعد عكا المسار الزمني الثاني لسيرة الأمير بهاء الدين قراقوش .

لقد سبقت النوادر والحكايات قراقوش إلى أهل عكا ، وهو واليهم الجديد ولكنهم فوجئوا بوقاره وهدوءه، ورغبته في الدفاع عن البلد وتجديد أسوراها ورفع أبراجها أهل عكا وقَّروا قراقوش

---

[١] أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص٦١.

[٢] السابق : ص٦١.

[٣] السابق : ص٦٣.

ونادوه بكنيته المحببة لديه " أبو عبد الله " بل وحاولوا تقليد لبسه لأمة الحرب على ثقلها لكنهم لبسوها ..

" أهل عكا لم يتندروا على الرجل، بل وقروه ونادوه بلقبه الذي يطربه كثيراً، أبو عبد الله، من جند الأسدية، وعندما كان يلبس لأمة الحرب الكاملة التي يسمونها بالكردية " الكزاغندة "، حاول أهل عكا لبسها رغم ثقلها وعدم ليونة الحركة فيها، إلا أنهم لبسوها ولمسوا قدرتها على توفير الحماية من سهام العدو ونشابه. [١]

أهل عكا رأوا في الوالي الجديد مخلصاً لم يكونوا يحلمون به يوماً لذلك لم يتوانوا في تقديم المساعدة خصوصاً الحرفيين منهم عكس موقف المصريين " ولما طلب إليهم البناؤون والفعلة والنقاشون والحدادون والنجارون، تقدم الجميع بأريحية عالية. كانوا يريدون أن يغضبوا عن كل الأيام والسنين التي رأوا فيها الفارس الفرنجي يقتل أو يخطف أو يخرب" [٢].

لهذا أحب الناس الأمير بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدي، أحبوه من كل قلوبهم بل واستغربوا أن تحكى النوادر عن رجل متقشف مثله، لا ينام الليل ولا يضحك، ولا يمد عينه إلى حرام أو مشبوه.

من خلال ما سبق يظهر لنا أن السارد قد سعى إلى إنصاف قراقوش تاريخياً؛ من خلال استبعاد الصورة التي رسمها له المصريون وإبعاد الروايات الهزلية التي ألصقت به، فحرص على إظهار العلاقة الحميمية بينه وبين صلاح الدين الذي اختاره والياً على مصر ثم استخلفه على عكا قبل سقوطها، كما جلّى لنا السارد علاقة الحب والتقدير بينه وبين أهل عكا حيث جسدت صورة البطل والقائد " النوادر التي وصلت إلى أهل عكا عن واليهم الجديد جعلتهم يتوقعون الأسوأ من والٍ أبيض رومي وخصي، ولكنهم فوجئوا بوقاره، وسمته الواثق، وهدوءه العجيب، ورغبته في الدفاع عن البلد، وتجديد أسوارها المهدمة، ورفع أبراجها المنهارة " [٣].

لقد استجاب أهل عكا لإرادة قراقوش وانخرطوا في العمل والبناء في المقابل ضاق المصريون ذرعاً بسياسة قراقوش العمرانية وأحكامه التي من شأنها مواصلة العمل لصد خطر الأعداء.

---

[١] أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص٤٩.

[٢] السابق : ص٥١.

[٣] السابق : ص٤٩.

ويحاول السارد التعمق في شخصية قراقوش أكثر حيث يظهر لنا مكنوناته الداخلية فهو بشر يفرح ويحزن وليس آلة أعدت للبناء والحرب " وعندما أنعم عليه السلطان الناصر صلاح الدين لقب الأمير في مصر، شعر قراقوش أنه نال ما يتمنى "[١].

هنا يبيّن لنا السارد مدى حب قراقوش المضمر للقيادة والرياسة، ثم تأتي تقنية الأحلام متناسبة مع مهمة قراقوش النبيلة ذلك القائد العسكري الذي سخر نفسه ، وحياته لخدمة الإسلام ونصرة صلاح الدين جاءت أحلامه لتظهر لنا مكنوناته الداخلية متناسبة مع مهمته القاسية التي أنيطت به ..

" ومثل كل ليلة، أوى قراقوش إلى فراشه وحيداً، وقبل أن تأخذه سنة النوم اللذيذة الرائقة، رأى نفسه على فرسه يتمختر بين صفوف العسكر التركية والكردية، وهم يحيونه باحترام كبير، ظل يسير بين الصفوف ويسير حتى نام " [٢].

---

[١] أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص٦١.

[٢] السابق : ص٦٤.

رواية القرمطي

يعد العنوان من أهم عناصر النص الموازي وملحقاته الداخلية؛ نظرا لكونه مدخلا أساسيا في قراءة الإبداع الأدبي والتخييلي بصفة عامة، والروائي بصفة خاص، ومن المعلوم كذلك أن العنوان هو عتبة النص الأولى وبدايته ، وهو العلامة التي تطبع الكتاب أو النص وتسميه وتميزه عن غيره ، وهو مفتاح النص كما يصحب معه دلالات وإشارات تؤثر على القارئ لذلك تجد المبدعين منشغلين في عملية اختيار العنوان المناسب .

وبالنظر إلى عنوان هذه الرواية تظهر على السطح تساؤلات عدة مشروعة في النفس تقول : لماذا اختار الكاتب اسم القرمطي عنواناً لروايته ؟ لماذا لم يختار اسم المقتدر ؟ ! .

علماً بأن الرواية تتكون من أربعة عشر فصلاً تسعة منها تتحدث عن خلافة المقتدر وفساده ، وفصل يتحدث عن المعتزلة والأشاعرة ، وباقي الفصول الأربعة تتحدث عن دعوة المقتدر وأفعاله ، ولكن رغم هذا الحضور القليل للقرمطي ودعوته مقارنة مع حضور خلافة المقتدر إلا أنه شارك في رسم جو من الرعب والخوف والقتل من خلال غاراته وتهديداته ويظهر ذلك جلياً من بداية الرواية حيث إن بغداد تعيش جواً من الرعب والخوف بسبب دعوة القرمطي الناتجة عن ضعف وفساد الخليفة المقتدر ؛ كما يحمل اسم القرمطي دلالة تاريخية ومذهبية وسلوكية إجرامية تركت جرحاً غائراً في نفوس المسلمين بقتل القرمطي لعشرين ألف من الحجيج وسرقته للحجر الأسود .

وبذلك يكون العنوان قد تماهى مع مضمون الرواية كما يحمل العنوان دلالات معاصرة مستهدفة دلّ عليها الإهداء والخاتمة معاً: " إلى الذين يواجهون القرامطة ..حتى اللحظة " ، وقوله في الخاتمة "الرواية مستمرة ... " [١] .

لقد نجح الكاتب من خلال العنوان في ترهين الزمن ، وتخطيب الحكاية ، وفتح النص على دلالات جديدة تتناسب مع عصر قراءة النص متجاوزة بذلك القصة التاريخية ، وذلك يعني عدم غلق دائرة الرواية وانتهائها فهي مستمرة بحسب قول الكاتب في الخاتمة، ويعمل على انفتاحها زمنياً ودلالياً على مستوى الكتابة والقراءة من خلال الانتقال من العام إلى الخاص، وهذا ما يعطي الرواية جمالاً وحيوية يفتح أمام القارئ معاني ومفاهيم ودلالات جديدة .

---

[١] أحمد رفيق عوض : القرمطي ، بيت المقدس للنشر والتوزيع برام الله –فلسطين– ٢٠٠١م ص٢٧٦ .

الخليفة المقتدر

تظهر شخصية المقتدر من خلال رواية "القرمطي"، وهي الأكثر حضوراً من بين كل الشخصيات حيث تقابلها شخصية(أبو طاهر القرمطي) ، وتظهر على النقيض من شخصية المقتدر وهي التي سوف نتناولها بالحديث بعد شخصية المقتدر.

والمقتدر هو الخليفة وأمير المؤمنين، وهو شخصية تاريخية حقيقية باسمها ووظيفتها، مما يضعنا أمام إشكاليات كثيرة، منها البحث عن الحقيقة في مجريات تلك الأحداث ولكن هل الحقيقة ببرودها وجفافها كافية ، وهي بعيدة عن التخيل والأدبية بالطبع لا، فلا بد من الحقيقة التاريخية كمنطلق للأدبية والتخيل.

هكذا يضعنا أحمد رفيق عوض منذ بداية الحديث عن شخصية المقتدر في منطقة خطرة حيث أننا نضع الصورة المشرقّة والمقدسة لدينا على طاولة البحث، يتحرك أحمد عوض في هذه المنطقة المليئة بالأشواك يسترجع التاريخ لكن هل حافظ أحمد عوض على تلك الصورة المشرقة للماضي؟؟ وما هو الهدف من وراء استدعاء الماضي ؟؟ وهل هذا الاسترجاع يتماهى مع واقعنا الذي نعيشه؟؟ وهل هناك فائدة ربما تعود إلينا من ذلك؟؟

للإجابة على هذه الأسئلة لا بد لنا من استعراض مضمون الرواية، فرواية القرمطي تدور أحداثها في القرن الرابع الهجري، عندما كانت الخلافة العباسية تتهالك وتتهاوى بين خطر القرمطي الذي يهدد حدودها وخطر (مؤنس) الخادم الذي يهم بقتل الخليفة، والخليفة عاجز لا يملك إلّا أن يرثي نفسه ، ويندب حظه، فهو خليفة يُصوّر على أنه ضعيف، فهو خليفة يحكم بالصدفة من خلال نظام وراثي.

يُظهر الخطاب المقتدر على أنه خائف من سيف مؤنس الخادم، وهو نادم في الوقت ذاته على قتل ابن الفرات الذي كان سنداً له في وجه مؤنس، ويشيع مؤنس خبر انتصاره على القرمطي، وهو خبر كاذب ليربك به الخليفة المنتظر لسيف مؤنس.

والخليفة حكيم ينقصه الحزم وهو طالب لذة لا متناهية فهو يركض خلف شهواته ولا يستطيع رد الخطر الذي يدهمه، والرعية تتخلى عنه أو أنها أصيبت بلا مبالاة مما يجري في قصور المنعمين والمتسيدين.

والمفارقة أن مقاليد الحكم تظهر بيد العاهرات المتسلطات أمثال (شغب وثمل) ، وينجح مؤنس المتآمر على الخليفة بإزاحة الخليفة المقتدر، وتولية أخيه ابن المعتضد المشغول دائماً بشهواته ومجونه ، والمتلذذ بقتل النساء فهو سادي لُقِّبَ بالقاهر، وقد أصبح خليفة للبلاد لكي

يتمكن مؤنس من السيطرة على خراج الخلافة بلا حسيب ، ولا رقيب فيعم الغلاء ، والفساد ، وتضيع هيبة البلاد، ولكن مؤنس يتفاجأ بأن خزينة الدولة فارغة ولا خراج للخلافة، فقد أخذت (شغب) أم الخليفة كل الأموال والجواهر.

يعود الخليفة المقتدر مرة أخرى للحكم ويتم الإطاحة (بالقاهر)، ويقوم الخليفة ببعض التعديلات والتغييرات في الحكم تُرضي المقربين، وكانت عودة الخليفة من تدبير الأم (شغب)، وهذا يوضح سيطرة النساء على مجريات الأمور والخلافة.

هذه الأحداث استغرقت تسعة فصول من الفصل الأول حتى التاسع ، والتي تتحدث عن خلافة المقتدر وما حفلت به من أحداث، ثم تتوقف الرواية زهاء خمس وعشرين صفحة تحكي موقف العامة وطبقة المثقفين ، والعلماء من الأحداث الجارية ، وتبين بعض النقاشات الفقهية حول الوجود والعبادة وهي عبارة عن صراعات كلامية بين المعتزلة والأشاعرة حول قضايا فكرية وعقائدية مع عدم اهتمامهم بالواقع السياسي والعسكري والاجتماعي.

ثم ينتقل بنا الخطاب ليحكي ولاية (أبي طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي – كبير القرامطة) وهذه الأحداث استغرقت الفصول الخمسة الباقية من الرواية من الفصل العاشر وحتى الفصل الرابع عشر، ويبدو حضور القرمطي في هذه الفصول جلياً حيث تظهر غاراته وتهديداته لترسم جواً من الرعب والقتل في بغداد وغيرها.

وتبلغ الأحداث ذروتها ويلتف الناس حول أبي طاهر في وضع وحالة من المجون والعربدة مستعيناً بشقيق زوجته (أبو حفص) وهو رجل داهية قصير القامة ذا صوت جهير فبدأ ينصح أبا حفص بإنشاء الدولة ثم ما بعد الدولة حيث جعل أبا طاهر في مقام الإله بألاعيبه ودسائسه حيث كان أبو حفص يخفي الذهب ليستخرجه أبو طاهر أمام الناس فيبهرهم بما يظنونه معجزة، وراح يغري أبا طاهر بسرقة الحجر الأسود ووضعه في دار الهجرة التي أقامها في هجر بديلاً عن بيت الله الحرام بمكة لتتحول إلى مكان مقدس مستغلاً تفكك البلاد وانشغال الثغور بالمخاطر الخارجية.

وقد بالغ أبو طاهر في بناء دار هجر لتصبح أعظم من الكعبة، وأضفى عليها مهابة تسحر الأعراب، فهي أمر من السماء تلقاه أبو طاهر استعداداً لظهور المهدي، وتجلي هذه الفصول الخمسة دعوة القرمطي وأصولها الباطنية والعقدية وأهدافها ووسائلها وتبين موقف القرامطة من الإسلام ومن الخليفة.

يعقد أبو طاهر مجلس العقدانية ويقرر الحرب ومهاجمة الحجيج بمكة ونقل الحجر الأسود إلى دار الهجرة بهجر، كما فعل قبل سنوات حيث هاجم الكوفة. ويقتل عشرين ألف من الحجيج

حيث لا يملكون إلّا أن يسلموا رقابهم إلى سيوف جيش القرمطي. ثم يستبق الخطاب يوم التروية بسنوات ليخبرنا بهلاك أبي طاهر عام (٣٣٢هـ).

وبعد هذا الاستعراض لمضمون رواية القرمطي نرجع مرة أخرى لشخصية المقتدر حيث استغرق الحديث عنها تسعة فصول تناولت الحديث عن خلافة المقتدر وما ألمّ به من خلع وإعادة ومؤامرات شارك فيها قادة الجيش برئاسة مؤنس الخادم ونازوك قائد الشرطة، وقد استأثرت هذه الأحداث ثلاثة أيام من زمن الخطاب وهي: (السبت و الأحد والاثنين).

إنَّ الرواية التقليدية عظمت من شأن الشخصية لإيهام المتلقي بحقيقيتها وتاريخيتها والرواية الجديدة نفت حقيقيتها وتاريخيتها وقالت بورقيتها – وقللت من شأنها بل وحقرتها وازدرتها.

في ضوء هذين التيارين نلاحظ أنّ أحمد رفيق عوض قد مزج بين التيارين في رؤيته للشخصية فأحياناً يوهمنا بواقعية وتاريخية الشخصية وأحياناً أخرى يتجاوز الواقع والتاريخ إلى الأدبية والخيال.

ونلاحظ ذلك جلياً من بداية الخطاب الروائي في الفصل الأول حيث يخرج الكاتب من التاريخية والواقعية إلى الروائية والأدبية والخيال .

"حثّ أبو بكر الصولي برذونه على قطع "جسر القرمطي" ليعبر إلى الجانب الغربي من بغداد، طافت ابتسامة ما على وجه الرجل لهذا الاسم الجديد للجسر قبل ثلاثة سنوات تماماً وقف هنا أبو طاهر القرمطي ومعه ثلاثة آلاف رجل، ظهروا كالقردة وسط بغداد، بعد أن أحرقوا قصر ابن هبيرة، ظهروا كالمجانين، تسبقهم حكاياتهم، ورعب الناس هيأ لهم أن دجلة جمدت خوفاً من القرمطي، لتعبر دوابه عليها"(١).

في هذه المقطوعة من الرواية يظهر لنا جلياً أسلوب الكاتب بين الواقعية التاريخية وبين الأدبية الروائية ، وذلك من خلال انحراف الكاتب بالسرد مدخلاً إياه منطقة الأدبية ، والتخيل أي أنه لا يحكي حقيقة بل خيال، فالكاتب بدأ السرد بالفعل حثّ ثم ينحرف بقوله: "طافت ابتسامة على وجه الرجل..." وبقوله أن دجلة جمدت خوفاً من القرمطي لتعبر دوابه عليها، فهل هذا على وجه الحقيقة أم الخيال.

وفي موطن آخر نبين من خلاله خلط الكاتب بين الواقعية والأدبية "أبو حربة أصبح خليفة المسلمين، الزمان رديء، وها نحن نشهد أعاجيب أخرى خلال السنوات العشرة الأخيرة.. تجمدت

---

(١) أحمد رفيق عوض : القرمطي ، ص٥.

دجلة ليعبر عليها القرمطي، وساح جبل بالدينور فملأ الأرض ماء، وأنجبت امرأة طفلاً برأسين، وانقض كوكب قبل الغروب فأضاء بغداد كلها..." [١].

وهنا يظهر جلياً ذلك الخلط ، وهو يكشف عن مشاعر البغداديين إثر خبر خلع المقتدر واستخلاف أخيه محمد القاهر، فالكاتب يأتي بخبر حقيقي وتاريخي –خلع المقتدر واستخلاف محمد القاهر – ، ولكنه سرعان ما يخرج من الحقيقة إلى الخيال والروائية الأدبية فنهر دجلة يتجمد وتنجب امرأة طفلاً برأسين كل ذلك يجعل الخطاب يخرج من الواقعية إلى الأدبية بموهبة عالية وفن راقٍ.

لقد حرص أحمد رفيق عوض على هذا الخلط عند تناول شخصية تاريخية فهو يوهمنا بواقعية وتاريخيتها الشخصيات والأحداث تارة، وأخرى يتجاوز الواقع والتاريخ إلى التخيل والأدبية والروائية.

لقد أظهر الخطاب الروائي شخصية المقتدر شخصية ضعيفة لا إرادة لها ولا طموح، فهو غارق في الملذات والخمر والنساء، ولا يكترث لما يدور خارج القصر من مؤامرات وكفر وإلحاد .

"الخليفة المقتدر نفسه لا يكاد يصحو من شرب إلّا على شرب، وهو عادة ما يشرب ذلك مخلوطاً بعصائر فواكه طازجة أو جافة حتى لا تلتصق الرائحة بفمه... الخليفة الذي يصحو من سكره يعرف أنه لا يستطيع أن يفعل سوى أن يسكر، وأن يطارد الكهرمانة "ثمل" وجواريها وغلمانها من مكان إلى مكان"[٢].

ويصرح المقتدر لنديمه الجهشياري بحقيقة وضعه كخليفة لكنه لا يملك من أمره شيئاً يقول: "أنا خليفة كل المسلمين.. ولكني لا أستطيع أن أخيف الكهرمانة "ثمل".. امرأتان تحكمان القصر، ورجل تركي أحمق يحكم بغداد يدعي أنه تكفلني بعد موت والدي.. كان يقصد مؤنس"[٣].

لقد بين لنا الخطاب علاقة القائد بأمته وبين لنا دوره السلبي لذلك نجد " في رواية القرمطي، إشارة قوية إلا أن الحاكم الذي يفقد القدرة على متابعة التفاصيل، ولا يعتمد على رغبته،

---

[١] أحمد رفيق عوض : القرمطي ، ص١٥٥.

[٢] السابق : ص٢٢.

[٣] السابق : ص٣٥.

ولا يقترب منها، ولا يهتم بها، ويكتفي بشرعية مُدّعاة، يحميها بالمال مرة أو بالحيلة مرة أخرى، سيصل في نهاية الأمر إلى أن يُقتل أو يُعزل دون أن يثير شفة أو رثاء"[١].

ويبين لنا الخطاب الروائي بعضاً من العوامل التي أدت لإضعاف الخليفة ألا وهي الكهرمانة "ثمل" وهي من الشخصيات النسائية التي تقوم بدور خفي يكرس ضعف شخصية الخليفة ويجلي لنا الحقيقة ويشخص موطن العلة والداء، ويوضح لنا ما آلت إليه الأمور من فساد وانحلال وتدهور وضياع. "ثمل" امرأة ليست كالنساء، ثمل ليست كهرمانة بل حاكمة بغداد مثلها في ذلك مثل مؤنس الخادم ونازوك أمير الشرطة... وهذا الخليفة الذي يدعو له المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها لا يستطيع أن يغادر قصره.. يحاصره أجلاف وجهلة ورعاع.." [٢].

إنّ الخطاب الروائي أظهر الخليفة المقتدر ضعيفاً لا يقوى على فعل شيء تجاه متجددات الحكم، لكن الخطاب يظهره لنا في بعض الأحايين قويٌ حكيمٌ وسياسي رغم ضعفه وخواءه، ويظهر ذلك جلياً في تعامل الخليفة المقتدر مع مؤنس الذي خرج عليه وكان سبباً في خلعه وتولية أخيه لكن الخليفة يعالج ذلك بحكمة متناهية " قدم المقتدر من الكوخ الحقير ذي اللبن الأسود مباشرة إلى قصره العامر.. جلس على كرسي الخلافة، لم يستحم ولم يتطيب، دعا إليه الجميع، حتى مؤنس الذي قبل يدي الخليفة ورأسه... قال المقتدر بصوت عالٍ ليسمعه الجميع: نعفو عنك يا أبا المظفر... يا أبا المظفر ما هكذا تقابل يد الإحسان، ولا هكذا يكون الوفاء، ولكن العفو من شيم الكرام. أعفو عنك وقدرك عندي محفوظ لأياديك البيضاء... قال الخليفة: ولأننا نذكر الفضل، فأنت أمير الأمراء.. لكن الحاضرين عرفوا أن الخليفة المقتدر يلعب كعادته تلك اللعبة التي تحفظ التوازن... إنه عاقل لولا انشغاله بملذاته"[٣].

لقد مزج أحمد رفيق عوض بين تيارين في رؤيته للشخصية حيث أوهمنا بواقعية الشخصيات والأحداث وتاريخيتها تارة وتارة أخرى يتجاوز الواقع والتاريخ إلى الأدبية والخيال.

وقد استخدم وسائل متعددة للإيهام بواقعية الخطاب في القرمطي وتاريخيته وقد كانت تلك الوسائل مقنعة إلى الحد الذي جعل سميح شبيب يقول: "المفاجئ والمدهش حقاً، في رواية القرمطي لمؤلفها أحمد رفيق عوض، هو أن النص الأدبي، أصبح مصدراً للتاريخ، وليس العكس بحكم

---

[١] المتوكل طه : المختلف، دراسات في عالم أحمد رفيق عوض الروائي والمسرحي، منشورات اتحاد كتاب فلسطين بالتعاون مع منظمة شعراء بلا حدود، رام الله –فلسطين– الطبعة الأولى ٢٠٠٩، ص٧٠.

[٢] أحمد رفيق عوض : القرمطي، ص٢٩.

[٣] السابق : ص١٢٦–١٢٧.

الاختصاص الأكاديمي... يتمكن القارئ العادي من قراءة ملحمة القرمطي بسهولة ويسر ومتعة، في وقت يصعب عليه أن يقرأ النص، أو النصوص التاريخية المتعلقة بتاريخ القرمطي والقرامطة، ومن هنا تحديداً، تكتسب الرواية بعدها الحداثي، عبر تجديد التراث وإحيائه"(١).

إن القارئ العادي الذي يجد صعوبة في قراءة التاريخ من مصادره يستطيع أن يقرأ ويتابع الأحداث التاريخية بلغة أدبية روائية بسيطة ومشوقة.

وقد استخدم عوض تقنيات متعددة لإيهام القارئ بواقعية الأحداث ومن تلك التقنيات:-

١- تقنية الوثائق التاريخية :

وتتمثل هذه التقانة في حضور شخصياتها الحقيقية صاحبة السجل المدني تتجلى بياناتها في كتب التاريخ والتراجم، ومن تلك الشخصيات الخليفة المقتدر ، وأبو طاهر القرمطي ، ومؤنس الخادم والصولي ، وابن دريد ، ومعظم الشخصيات مستحضرة من عمق التاريخ بصفاتها وهيئاتها ،وسماتها وكذلك مجريات الأحداث الرئيسة في الرواية كحصار القصر وعزل الخليفة المقتدر وتولية المعتضد مكانه ثم خلعه ، ومقتل الخليفة المقتدر... كل تلك الأمور مستوحاة من كتب التاريخ ، ولكن هذا الوجود " فقط من حيث (الحدوث) لا من حيث (كيفية) الحدوث، الذي يحفظ التمايز بين (المتن المرجع) و(النص المبدع).إنه ثمة مفارقات كبيرة في (الكيفية) بين ما وقع بحسب النص المرجع، وبين ما يقع على الورق عبر التخييل الروائي في النص اللاحق، ولعل في مجموع هذه المفارقات التي تسجل خصوصية الرؤية والخطاب ما يذهب بأصباغ المعطى التاريخي، لتتجلى الألوان والأصباغ التي يستهدفها الخطاب الروائي، المهتم بتجاوز منطقة المحدود والمخصوص إلى المجرد والعام"(٢).

٢- تقنية الشهادة :

وهي الشهادة التي تدلي بها بعض الشخصيات التي تشارك في أحداث ومجريات الرواية مما يجعل لتلك الشهادة دوراً فاعلاً في تشكيل صورة في ذهن المتلقي حول تلك الشخصيات وخصوصاً الشخصيات الرئيسية التي تدور حولها الأحداث في الرواية ، ولنأخذ بعض الشهادات التي تجلي لنا شخصية المقتدر يقول محمد بن عبدوس الجهشياري المكنى بأبي عبد الله : " هذا

---

(١) على الخواجة : جوائز الفحم (دراسات في روايات أحمد رفيق عوض)، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، مطبعة المنار الحديثة، ص١٨٢.

(٢) علي الخواجة : مقاربات نقدية، ص١١٠.

الخليفة رجل من جبّلة أخرى، ففي لحظة يكون أحكم الحكماء، وفي أخرى تراه مجرد شاب غرّ لا يهمه سوى بطنه ومزجه... يثير الشفقة هذا الخليفة... أشعر بالشفقة على هذا الخليفة الذي لا يملك من دنياه سوى معدة قوية وفرج نشط. حكيم في غير أوانه، حكيم ينقصه الحزم، وطالب لذة لا يطاوعه الزمان... هؤلاء بنو العباس يوَزعهم الدم والخمر ولا شيء ثالث"[١].

ويقول في موطن آخر " كان يعجبني أن أسكر مع رجل تجتمع عليه الأمة، وكان يهولني أن يتهتك هذا التهتك. ذات مرة، سكر الخليفة، طابت نفسه، واتخذ لونه هذا اللون العجيب الذي أحبه..." [٢].

ويتحدث الخليفة المقتدر عن نفسه قائلاً لأبي عبد الله الجهشياري عندما طلب من الخليفة أن يأذن له بأن يكتب سيرته: " قال من بين دموعه: لم أصدر شيئاً، لما أقاتل أحداً.. هل تعلم أني لم أخرج من قصري إلى شوارع بغداد إلّا مرة واحدة. هل تعرف أني لا أعرف بغداد كما يعرفها أهلها.. هل تعلم بأن كل من حولي أقوى مني.. أمي "شغب" وأختها وخالي هارون..." [٣].

ويقول الخليفة : " قوتي هي أنني أسمح لهم بالصراع حولي، يتقاتلون جميعاً باسمي، أستغلهم جميعاً لإضعافهم جميعاً.. حتى أمي.. ماذا تريد أمي مني؟!... أنا خليفة كل المسلمين.. ولكني لا أستطيع أن أخيف الكهرمانة "ثمل".. امرأتان تحكمان القصر، ورجل تركي أحمق يحكم بغداد.. يدعي أنه تكفلني بعد موت والدي.. كان يقصد مؤنس" [٤].

ويقول الرواي: " ثمل امرأة ليست كالنساء "ثمل" ليست كهرمانة، بل حاكمة بغداد مثلها في ذلك مثل مؤنس الخادم ونازوك أمير الشرطة " [٥].

ويقول الجهشياري: " "شغب" تكره سيدي حامد.. "شغب" امرأة أخرى تحكم بغداد. بغداد تحكمها النساء، هكذا قال خناق المدينة الذي صلب قبل عدة أيام..." [٦].

هذه الشهادات ومثلها الكثير في الرواية والتي جاءت على لسان الخليفة المقتدر ، وعلى لسان الجهشياري ، والراوي كلها تأتي لتؤكد حقيقة ضعف الخليفة، والفساد الذي وصل إليه، كما وتؤكد انفلات زمام الحكم من يده إلى يد النساء متمثلاً في ثمل الكهرمانة " وشغب" أم الخليفة وإلى يد مؤنس في تصريف أمور الخلافة.

---

[١] أحمد عوض : القرمطي، ص٣٠.

[٢] السابق: ص٣٣.

[٣] السابق: ص٣٤.

[٤] السابق : ص٣٥.

[٥] السابق : ص٢٩.

[٦] السابق : ص٣٢.

ولكن السؤال ما القيمة من ذكر مثل هذه الشهادات من ماضٍ منته؟!

" إن ما تقوله هذه الشهادات التي تنحاز صياغتها إلى الدائرة (الأدبية) هو ما يستفز المتلقي وينبه أحاسيسه الكامنة داخله لاستظهار ما نقاسيه نحن في زماننا وأحيازنا العربية والإسلامية"(١).

٣- تقنية السيرة الذاتية :

تلعب هذه التقنية دوراً مهماً في تجلية الشخصيات والأحداث ، وتوضيحها، كما وتوهم القارئ بحقيقة ما يقرأ وتعد هذه التقنية السردية من التقنيات الحديثة، وتتميز بقدرتها على التعبير بحيث تفوق تقنيات أخرى ، وذلك لأنها تقدم معلومات عن الشخصيات مطابقة للواقع كثيراً لكن الراوي ينقله لنا على شكل عمل روائي متخيل، وبدخول تلك التقنية في العمل السردي أصبحت بحاجة إلى دراسة فنية وواقعية من حيث الشكل والمضمون.

وهذه التقنية "لا تسعَ أن تكون وثيقة حية عن حياة الكاتب بالمعنى الحرفي؛ لكنها تطرح رؤية للعالم. الكاتب المسمى على غلاف الكتاب، لا يوجد كاسم من بين شخصيات الكتاب، والوقائع هي التوقعات، لكن التوقعات هي أيضاً وقائع، ومادة المحكي الروائي- إن كانت لا تمت إلى حياة الكاتب الحرفية بصلة- فإنها تنتمي بالضرورة إلى نشاطات التخييل التي يمارسها الكاتب"(٢).

يضيء الخليفة المقتدر بعضاً من سيرته الذاتية ؛ فهو يتحدث عن أحداث ماضية عصفت به خلع ثم أعيد ثم ها هو يخلع مرة أخرى من مؤنس الذي أعاده عندما خلعه الوزير العباسي يقول المقتدر: " قبل أكثر من عشرة سنين عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري ، وصرت خليفة المسلمين بعد موت أخي المكتفي ، وكان وزيره يوم ذاك العباس بن الحسن ، رغب هذا الوزير الذي لا قلب له أن يستبد بي قال هذا صبي ألعب به كما أشاء ، يومها قام خصوم هذا الوزير بقتله ، ومن ثم خلعي من الخلافة ، لم أكن أفهم ما يجري كثيراً ... أياد كثيرة تناولتني ، بعضها حاول إخفائي ، وبعضها حاول قتلي ، ويومها نصبوا ابن عمي عبد الله بن المعتز خليفة للمسلمين ، ولكن ابن عمي هذا كان مجرد عابث ساخر ، لا يهمه سوى شربه وشعره ونسائه ، وفي ذات اليوم الذي تم تنصيب ابن المعتز ، قدم مؤنس من مكة ، وكان صاحب الشرطة لأبي المعتضد ،

---

(١) علي الخواجا : مقاربات نقدية، ص١١٢.

(٢) صنع الله إبراهيم وآخرون : ملتقى الروائيين العرب، ط١، مهرجانه قابس -تونس- ١٩٩٣م، ص٧٦.

وعندما علم بأنهم خلعوني عن الخلافة ، جمع أفراد شرطته ، وفتك بالأمراء والأعيان جميعهم ، قتل الوزير العباس وقتل ابن المعتز ، وأعادني إلى الخلافة " [١].

لا شك أن هذا المقطع السردي الذي أتاح الكاتب فيه لشخصياته مساحة واسعة للحديث عن نفسها بنفسها من خلال تقنية السيرة الذاتية توضح لنا بالرجوع إلى الماضي الأحداث التي ألمت بتلك الشخصية ومكانتها وعلاقتها بالشخصيات الأخرى في الرواية، وبيان عوامل نجاحها وفشلها.

ويقول في موطن آخر سارداً لنا بعضاً من سيرته الذاتية: "لقد قتلنا ابن الفرات لنصادر أمواله التي جمعها من المصادرة، وقتلنا الحلاج لأنه يفضحنا ثم تقول لي: إنني متلاف.. لقد عدت إلى هذا القصر لأنني متلاف.. اعترف المقتدر لنفسه أن المال يجر كل شيء، الخيلاء والبطر والقوة والمجد والرياسة..." [٢].

لقد أظهرت السيرة الذاتية على لسان الخليفة المقتدر الماضي الذي سبق الخلع والعودة ثم يظهر لنا الحاضر معلقاً على بعض أحداثه وشخصياته مبدياً لنا وجهة نظره تجاههم.

لقد بلورت لنا تقنية الشهادة، وتقنية السيرة الذاتية –شخصية المقتدر وحددت لنا ملامحها حيث أعطت للمتلقي صورة واضحة وجلية عن شخصية الخليفة المقتدر، وقد جاءت هذه المعلومات وفق تقنية حديثة أبدع فيها أحمد عوض وهي تقنية (التقسيط) في العرض للمعلومات والتي بدورها أوقفتنا على أبعاد شخصية المقتدر المحورية والرئيسة هذا من جانب ومن جانب آخر فإن انفتاح شخصية المقتدر تجعل كل متلقي يقرأ شخصية المقتدر بقراءته الخاصة من خلال عملية الترهين السردي (والزمني) التي يقوم بها خطاب المبدع.

إنَّ " الاكتمال الذي نشير إليه لا يصل بنا إلى درجة الوقوف عند شخصية مغلقة ناضجة لا تقبل غير قراءة واحدة ، وتلك إحدى مميزات الخطاب الجديد في تقديم شخصياته وتقديم الأحداث" [٣]

---

[١] أحمد رفيق عوض : القرمطي، ص٤٣.

[٢] السابق: ص١٣٥.

[٣] علي الخواجة : مقاربات نقدية ، ص١١٧.

لقد بين لنا البناء الفني في رواية (القرمطي) منذ البداية ملامح القائد ، أو الحاكم ودوره في قيادة الرعية إلى بر الآمان أو إلى الهاوية، كما وبين لنا مدى الفساد الذي وصلت إليه شخصية المقتدر، وفي ذلك إشارة واضحة لعدم استحقاقها الحكم ، وأن مصيرها العزل أو القتل وهي نهاية متوقعة ، وفي ذلك إشارة واضحة وجلية من الخطاب السردي أيضاً إلى حكام كل عصر وزمان بأن مصير المفسدين والمستبدين والمستهترين سيكون مثل مصير المقتدر .

كما كشف لنا الخطاب الروائي الحقيقة وشخَّصها ، وبين موطن العلة ، والداء من انحلال وسكر وفجور، وتحكم النساء بالأمور في الخفاء، وكل ذلك يكرس لنا ضعف شخصية المقتدر، وإمعاناً من الخطاب الروائي في تكريس ضعف شخصية المقتدر يأتي السرد على لسان الخليفة نفسه معلناً ذلك بصراحة من خلال تقنية السيرة الذاتية آنفة الذكر حيث نجح الكاتب في إجبار شخصية المقتدر على الحكي معترفاً بأسراره الشخصية.

لقد قام الكاتب بتجريد الخليفة المقتدر من صلاحياته وتضييق الخناق عليه منذ اللحظة الأولى وذلك من خلال توظيف الحيز (القصر المحاصر) الروائي والشخصيات الثانوية والأحداث توظيفاً بارعاً، وجعل دور الشخصيات الثانوية تتمتع بصلاحيات لا يتمتع بها الخليفة إمعاناً في تقزيم دوره بتوسيد الأمر لغير أهله مما هيأ المتلقي للنهاية المرتقبة ، والمتوقعة لذلك الحاكم الذي أفسد وطغى وأوصل أمته للمهالك والمفاسد ولم يهتم بها وبأمورها.

وبذلك يكون أحمد رفيق عوض قد غير صورة البطل التقليدية الموسوم بصفات خيالية الذي يخوض صراعات مع القوى الخارقة، أو البطل المثالي الذي لا يخطئ ولا يُهزم إلى صورة جديدة في البناء السردي حيث أظهر أحمد عوض شخصية المقتدر الرئيسية معذبة ومؤذاة وعاجزة مقهورة لا حول لها ولا قوة، فهو كثير البكاء والنواح، وبذلك يكون أحمد عوض قد وافق الروائيين الجدد الذين يجعلونها مجرد رقم أو كائن ورقي فهي مثل باقي مشّكلات السرد فهي " لم تعد إلّا مجرد كائن ورقي بسيط... لم يعد ممكناً، دراسة الشخصية في نفسها (على أنها شخص أو فرد)؛ ولكن بدأت الأفكار تتجه إلى دراستها، أو تحليلها، في إطار دلالي: حيث تغتدي الشخصية مجرد عنصر شكلي وتقني للغة الروائية؛ مثلها في ذلك مثل الوصف، والسرد، والحوار"(١).

لم يحمِّل أحمد رفيق عوض الحاكم هذه النتيجة بل جعل المجتمع مشاركاً في تلك النتيجة لأنه قبل الهزيمة ، والذل والفضيحة ، وقبل تولي خليفة ، وعزل آخر ثم عودة المعزول ؛ فهو

---

(١) عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية، ص٧٦.

مشارك لمجريات الأحداث، وبذلك يتماهى أحمد عوض مع المجتمع الذي يعيشه ومن هنا: "كان انتقال الروائي من عصر إلى عصر، ليس لنقل الماضي إلى الحاضر، وليس نقل الحاضر إلى الماضي، وإنما لتكوين رؤية شمولية عن ذلك المجتمع الذي يفقد الرؤية على السرد وعلى المبادرة، عن المجتمع الذي يركد ويركن ولا يستطيع أن يقدم الإجابات. هنا، كانت الكتابة عن التاريخ بمعنى الرغبة في تغيير التاريخ أو محاولة تغييره أو حتى الحلم بتغييره،عندما نتوجه إلى التاريخ... ولهذا عاد الروائي إلى التاريخ في أحلك ظروف الشعب العربي عامة، والشعب العربي الفلسطيني خاصة"[١].

أبو طاهر الجنابي :

وهي الشخصية المقابلة لشخصية الخليفة المقتدر وهو " الذي يمثل منظومة المعارضة العنيفة المسلحة الساعية إلى إزالة خلافة بني العباس من الوجود بعد تدمير القيم والمبادئ التي قامت عليها الخلافة.. ومحو البصمات الحضارية التي حفرتها في تاريخ الإنسانية " [٢].

لقد حضرت شخصية أبو طاهر الجنابي بشكل غير مركز في الفصول التسع الأولى "وهو حضور شارك في رسم جو الرعب والقتل في بغداد وغيرها. ولكن الحضور الحقيقي والمركز له ولحاشيته وجنده، وغاراته أتت في الفصول الخمس التالية المكونة للوحة الثانية، التي تحكي قتله لعشرين ألفاً من الحجيج في مكة يوم التروية (٣١٦هـ) حسب الرواية... وسرقته للحجر الأسود، ووضعه في دار الهجرة التي أقامها في هجر بديلاً عن بيت الله الحرام بمكة " [٣].

إنّ رواية (القرمطي) ركزت على أربعة أيام بعينها –من زمن الخطاب– وقد استحوذت شخصية المقتدر على ثلاثة أيام هي: (السبت والأحد والاثنين)، واستحوذ أبو طاهر الجنابي على اليوم الرابع وهو يوم مفصلي في الخطاب يوم التروية حيث قتل أبو طاهر القرمطي عشرين ألفاً من حجاج بيت الله الحرام، وسرقته للحجر الأسود ونقله لدار الهجرة بهجر ... لكن الخطاب الروائي لم يتوقف عند هذه الأيام الأربعة وما وقع فيها من أحداث، بل انطلق وامتد من خلال عمليات (الاسترجاع والاستباق) [٤].

---

[١] علي الخواجا : مقاربات نقدية، ص٧٧.

[٢] علي الخواجة : جوائز الفحم، ص١٨٧.

[٣] علي الخواجة : مقاربات نقدية، ص٩٥.

[٤] السابق : ص٩٨.

لقد جاءت شخصية أبو طاهر القرمطي تمثل الخارج على الشرعية كنتيجة متوقعة لضعف الخليفة المقتدر وفساده ومجونه ولهوه وانشغاله عن رعيته، فجاءت شخصية القرمطي شخصية مدورة وهي الشخصية المركبة المعقدة التي تتغير وتتبدل حسب الزمان والمكان، وهي تفاجئ المتلقي في كل مشهد من الرواية و" هي تلك المركبة المعقدة التي لا تستقر على حال، والتي تصطلى لها نار، ولا يستطيع المتلقي أن يعرف مسبقاً ماذا سيؤول إليه أمرها، لأنها متغيرة الأحوال، ومتبدلة الأطوار؛ فهي في كل موقف على شأن... فإذا هي لا تستبعد أي بعيد، ولا تستصعب أي صعب ولا تستمرّ أي مُر... إنها الشخصية المغامرة الشجاعة المعقدة بكل الدلالات التي يوحي بها لفظ العقدة، والتي تكره وتحب، وتصعد وتهبط وتؤمن وتكفر"[١].

لقد نسجت شخصية القرمطي جواً من الرعب والقتل في بغداد منذ مطلع الرواية و يسترجع أبو بكر الصولي عندما وقف على "جسر القرمطي" " قبل ثلاث سنوات تماماً وقف هنا أبو طاهر القرمطي ومعه ثلاثة آلاف رجل، ظهروا كالقردة وسط بغداد، بعد أن حرقوا قصر ابن هبيرة، ظهروا كالمجانين تسبقهم حكايتهم، ورعب الناس هيأ لهم أن دجلة جمدت خوفاً من القرمطي لتعبر دوابه عليها"[٢].

لقد وضع أحمد رفيق عوض القارئ منذ مطلع الرواية في جو من الرعب والخوف ليجعل القارئ في حالة توتر وشد لمعرفة مجريات الأحداث حيث لا يهدأ باله إلّا عندما ينتهي من قراءة الرواية.

كما وأظهر الخطاب جبروت وطغيان أبو طاهر القرمطي حيث سُمي الجسر باسمه، ونهر دجلة يتجمد خوفاً، ويبقى هذا المشهد المسيطر على الرواية منذ البداية وحتى نهايتها ولكن بطرق مختلفة لتبين لنا هذا الطغيان الناتج عن الضعف والفساد الشديدين ، و المتمثل في (الخليفة المقتدر) المحاصر.

لقد كان ظهور القرمطي نتيجة متوقعة لكل تلك المقدمات التي هيأت للقرمطي الظروف ليفسد في الأرض ويفعل ما يحلو له في سبيل تحقيق أهدافه ومطامعه التي لا حد لها.

ولقد كان لشعب هجر بكفره وإلحاده وفحشه وفجوره وبعده عن العقيدة دوراً كبيراً وأساسياً في تكوين شخصية أبي طاهر القرمطي فصنعوا منها إلهاً وقدسوه.

ولقد جلّى الخطاب السردي شخصية أبي طاهر القرمطي ودعوته من خلال تقنية (السيرة الذاتية) الذي يتحدث فيها أبو طاهر عن نفسه ودعوته بشكل مباشر، كما ويتحدث الراوي

---

[١] عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية، ص٨٩.

[٢] أحمد رفيق عوض : القرمطي، ص٥.

وشخصيات أخرى مشاركة في الرواية كما ، ولعبت تقنية الوصية دوراً بارزاً مستحضرة شخصية ميتة هي (أبو سعيد الجنابي) الأب.

ولإجلاء شخصية أبو طاهر القرمطي نسرد تجربة ابن دريد والتي جاءت في الفصل الثامن عندما نزل أبو بكر الصول عنده ضيفاً فيسأله عن تجربه أسره عند القرامطة يقول ابن دريد في حوار طويل بينه وبين الصولي ، والجهشياري يوضح فيه دعوة القرمطي :

" قال الصولي: أنت أسرت عندهم وتستطيع أن تقول ما تعرف عنهم. قال ابن دريد: إنهم قطاع طرق بالمعنى الكامل للكلمة، ولكنهم مقتنعون بأنهم يحققون العدالة التي عجز مولانا المقتدر عن تحقيقها ومن قبله مولانا المعتضد

...

- قال ابن مقلة: ما هي دعوى القرمطي يا ابن دريد.
- قال ابن دريد: تدمير دولة مولانا المقتدر !!
- هل له حق في ذلك؟!
- حق القوة، الخيلاء، البطر، اجتماع الرجل، طغيان الكفر، فساد الأمر

...

- القرمطي بدأ ببناء ما يسميه دار الهجرة في مدينة "هجر" كعبة جديدة مثل القليس التي بناها أبرهة الحبشي ...
- قال الجهشياري: إذاً، فالقرمطي مثله مثل أولائك المغامرين، بابك الخرمي، صاحب الزنج، حمدان قرمط، صاحب الناقة.
- قال ابن دريد تماماً... [(١)]

ويجلّي لنا الراوي الجانب الأسري ، والشخصي من حياة أبي طاهر فيقول:

"سليمان الشاب ابن العشرينيات الملتهبة بالرؤى والأحلام، لم ولن ينسَ حكاية والده... البائسة في البصرة، كيف كان يعمل كيّالاً للناس، يرفو أكياس الحمص والفول والحنطة، وكيف كانوا يسخرون منه لدمامته وقصره وسمرته وكيف كانوا يغمزون في نسبه، فمنهم من يقول: إنه من جنابة في فارس، ومنهم من يقول: إنه من يهود نجران، ومنهم من يقول: إنه خلاسي من زنوج و ديلم، أبو طاهر لم ولن ينس حكايات أبيه عن ضرب الشرطة والعسس له في سوق البصرة البغيض... هناك ولد أبو طاهر، في البصرة، بعد أن تزوج أبوه أبو سعيد من امرأة عادية فقيرة في

[(١)] أحمد رفيق عوض : القرمطي، ص١٥٢-١٥٤-١٥٥-١٥٧.

كل شيء، هم بنو القصار، كانوا يمتهنون قصارات وتبييض البيوت، هناك ولد، في بيت من الطين وسعف النخيل، ومعه ولدت أحلام والده العريضة بتدمير كل شيء " [١].

وتظهر جلياً شخصية أبو طاهر القرمطي وكذلك دعوته من خلال تقنية (الوصية) حيث يقوم أبو طاهر باستحضار وصايا أبيه الميت فيقول: " قال أبو سعيد: إياك أن تنسب نفسك للقرمطي، نحن لسنا قرامطة، وحمدان كرمتيه، أذكر فضله ولكني لا أدين له بشيء، هو صاحب دعوة وأنا صاحب دولة، صاحب الدعوة يرضى بالهوان من أجل دعوته، أما صاحب الدولة فيطلب الرياسة، إياك أن تكون صاحب دعوة، كن صاحب دولة: انسب نفسك إلي، انسب دولتك إليّ.. أنا من فعلت ذلك.. أنا من أنشأت ذلك

...

قال لي أبي العظيم: لا تؤمن إلّا بنفسك، لا تؤمن برب أو بنبي أو بولي، كل ذلك دجل. روّج للناس ما يؤمنوا به، أشغلهم بهذه التفاهات، اسمع يا بني، هناك نوعان من البشر: بشر تروج للإيمان وبشر آخرون يؤمنون بذلك. كن من الصنف الأول. لا تؤمن إلّا بنفسك، لا تؤمن إلا بمنفعتك

...

قال لي والدي العظيم: دين الإسلام دين صاغ، كسر دولة الفرس ودولة الروم... حارب الإسلام والمسلمين... أظهر دائماً أن الإسلام غير ممكن ولا يطاق ولا يستساغ ولا يحتمل. أسقط الصلاة والزكاة والحج، وأعل من أمر كل محظور... قال لي والدي العظيم: إياك أن تحب أو تكره، أنت فوق الحب والكراهية، أنت فوق المشاعر كلها، صاحب الدولة لا مشاعر له أبداً، صاحب الدولة يعمل من أجل الهدف.. لا تهمه في ذلك أية وسيلة استعمل..

- من هم أعداؤنا يا أبي؟ المسلمون. ثم من؟ -المسلمون- ثم من؟ -المسلمون...

قال لي والدي العظيم: لا تكن مثل صاحب الزنج تتكلم أكثر مما تفعل، تدعو أكثر مما تقاتل ... مات أبي وسلمني دولته، سلمني القطيف والإحساء و"هجر" والجزر وحتى البصرة ... مات أبي في حمامة، بعد أن قتله غلامه، ذلك الغلام اللعين الذي رفض أن يمتطيه خير من أنجبت البرية. منذ ذلك اليوم آليت على نفسي أن أقتل كل غلام أمتطيه، حتى أنتقم لأبي..."[٢].

---

[١] أحمد رفيق عوض : القرمطي، ص١٦٩.

[٢] السابق : ص١٧٣-١٧٤-١٧٥-١٧٦.

وتظهر لنا المقاطع السابقة وغيرها شخصية أبي طاهر القرمطي ، وكيف تم تشكيلها وصقلها من خلال تقنية السيرة الذاتية والوصية. كما وتحكي لنا دعوة القرمطي، وتبين لنا بشكل غير مباشر صفات شخصية أبي طاهر القرمطي فهي شخصية " تجمع بين القوة والطغيان وحب الرياسة والمال. ديكتاتور يغرق في بحار من الكراهية للإسلام والمسلمين، يسعى للانتقام والتنكيل، إنها شخصية فاسدة على المستوى الأخلاقي والعقائدي والسلوكي، إنه جبار لا يرعوي أمام صراخ طفل أو امرأة أو حاج...، إنها صفات لا يقولها لنا الخطاب مباشرة، وكلنا نستنبطها من بين السطور، إنها تتجلى أمام المتلقي بطريقة السرد الروائي لا الخطابة والتقدير المجرد " [(١)].

إن شخصية القرمطي (التاريخية) في فسادها وطغيانها وإسرافها في القتل تقابل الحاضر المعيشي من شخصيات تتشابه مع شخصية أبي طاهر القرمطي في فسادها وطغيانها وعلوها على شعبها، وهذا يكسب السرد حيوية ونماء من خلال عمليات الترهين والتركيب.

لقد أظهر الخطاب السردي شخصية أبي طاهر القرمطي طاغية مستبدة، شخصية يملؤها الطموح والكبرياء ، والنشاط والحيوية حتى في اللحظات الصعبة فمن قلب الصحراء وأخطارها وأهوالها، تهب ريح قوية ثم تتحول إلى عاصفة رملية داهمت الجيش وهو في طريقه لاقتحام مكة "وفجأة ظهر أبو طاهر، كالرمح الرديني، عالياً، مشرفاً، يشع نضارة وغضارة، كان على حصانه اللامع. كان يمشي بحصانه خبباً وهو يقول: أيها الجند، اتبعوني ولا تخافوا، بعد فرسخ واحد هناك بئر مطمورة. سنقيل عندها. طاف أبو طاهر بالجيش كله، رآه كل جندي بعينيه، وكل جندي شعر في أعماقه أن قائده لا يشبه أحداً ولا يشبه بشراً. أين كان لحظة الزوبعة؟! لا أحد يعرف " [(٢)].

هكذا تظهر شخصية أبي طاهر القرمطي ومما يزيد في طغيانها وعلوها إضفاء أبي حفص عليها العظمة والانتشاء من خلال ألاعيبه وأكاذيبه التي لا نهاية لها فعندما انتهت تلك العاصفة التي هي من عمل الشيطان والأرواح حسب وصفه ظهر أبو حفص ليحمل للجنود شعوراً بالعظمة من خلال أكاذيبه ووعوده الزائفة يقول: " إن عاصفة الصحراء ما هي إلّا من عمل الشيطان والأرواح الرديئة التي ترغب في رد الجند عن واجبهم وقدرتهم... ولكن أبا طاهر صارع تلك الأرواح وانتصر عليها.. هل شاهدتهم أبا طاهر وهو في كامل زينته.. هل رأيتم أنه قد تأثر أو اهتز.. أبو طاهر، سيدنا ومولانا.. مؤيد بسيف المهدي وعينه.." [(٣)].

[(١)] علي الخواجة : مقاربات نقدية، ص١٢١.

[(٢)] أحمد عوض : القرمطي، ص٢٢٦.

[(٣)] السابق: ص٢٢٧.

ولم يكتف أبو حفص بمحاولاته لهدم الدين من أجل إعلاء شيء آخر وهو مجد الآباء والأجداد بل امتد طموحهم لكل محرم وبدأوا يعدون لهدم الكعبة وبناء (هجر) بديلاً عن الكعبة " يقولون إن مكة هي البقعة الأقدس، وإنها البيت الحرام، سأهاجم هذه البقعة الأقدس وهذا البيت الحرام، سأكسر هذه الهالة، وأتحدى كل ما حولها وما فوقها وما تحتها، أريد لكل شيء أن يتم بأقصى ما فيه من كمال... أريد لما أفعل أن يكون حدثاً لا يغيب حتى ينتهي العالم"(١).

هذا التصميم والاستعداد والهمة العالية يقابله ضعف وتخاذل من الخليفة المقتدر ومن حوله لمواجهة هذه الدعوة ومواجهة انتهاك كل الحرمات والمقدسات ، وفي هذا إيحاء للأمة في عصرنا للوقوف في وجه (القرمطي الحديث) متمثلاً في الاحتلال الذي يقيم دولته على أرض فلسطين أمام سمع ونظر العالم الظالم وهو ينتهك ليل نهار ويهدم ويقتل ويسجن، وهو في ذات الوقت إيحاء لكل قرامطة العصر الحديث متمثلاً في الحكام العرب وما وصلوا إليه من ظلم واستعباد واستعداء لشعوبهم وقهرهم واغتصاب حرية رأيهم وتعبيرهم.

لقد أظهر الخطاب جبروت ، وقسوة أبي طاهر القرمطي ، وطغيانه في أكثر من موقف سالفة الذكر وكان منها خروجه من العاصفة ، وكأنه لم يكن فيها أصلاً ؛ فقد وصف الخطاب الصحراء المهلكة ورمالها ورياحها وقلة مائها ثم بعد ذلك يأتي أبو طاهر ليهزم الصحراء رغم عنفوانها وقوتها دلالة على عظم قوته وبما أنه قهر الصحراء بقوته وحنكته فهو قادر على أي شيء.

لقد كشف الخطاب عن جرائم وكبرياء وتعالي أبي طاهر القرمطي عندما قدّم صورة مستفزّة له حيث وصف الحجيج المسالم الآمن الذين لم يسلموا من القرمطي ، وجنده ولم تجد الاستغاثة أو حتى التعلق بأستار الكعبة مكاناً في قلوبهم فجاءهم أبو طاهر يطير على سحابة يقول لهم:

أنا بالله وبالله أنا　　　　يخلق الخلق وأفنيهم أنا

نعم أنا إرادة الله، وليمت من لا يؤمن بذلك، استسلموا الحجاج لأقدارهم، مدوا أعناقهم للذبح، ذكروا الله قبل ذبحهم وطلبوا منه حفظ ذويهم، قالوا لله إنهم قتلوا في بيته الحرام وإنهم يحتسبون ذلك عنده. (٢)

كما وتظهر قوة وجبروت أبي طاهر من خلال تقنية الحوار التي استخدمها الكاتب حيث أجرى حواراً تفاوضياً بين شخصين غير متجانسين ولا متكافئين بين (القرمطي) ، و(الصولي) الذي أرسله الخليفة إلى مكة بعدما سمع بأن القرمطي يود هدم الكعبة وينتهي الحوار التفاوضي

(١) أحمد رفيق عوض : القرمطي، ص٢٢٠.

(٢) السابق : ص٢٦١.

على أن يمر القرمطي من مكة دون حرب ، وللصولي أن يأخذ ما يشاء من المواثيق والعهود، ثم يكسر القرمطي سيفه ويقسم على كتاب الله تعالى على عدم إراقة قطرة دم واحدة، ثم يشير لجنده آذناً لهم بذبحهم جميعاً في بيت الله الحرام وينتهي المشهد الدامي بموت عشرين ألف حول الكعبة ثم يهدم بئر زمزم ويسرق الحجر الأسود (١) .

يظهر من خلال المشهد السابق أن أحمد رفيق عوض قد أظهر شخصية القرمطي بهذه القساوة المتعمدة لا ليصور القرمطي بطلاً منتصراً بل ليصوره مجرماً متعالياً ليست هناك حدوداً لجرائمه وفساده لا مهابة لشيء عنده ولا حرمة لشيء حتى ولو كان بيت الله الحرام إنها شخصية استفزازية فهي قوية متماسكة وصفه الخطاب بأنه كان مقداماً يتقدم جنوده للقتال وعلى النقيض تماماً شخصية المقتدر الذي يرسل (الصولي) مع بضعة من الجنود لكي يعترض القرمطي ويمنعه من دخول الكعبة ، وسرقة الحجر الأسود وقتل الحجيج.

إن أحمد رفيق عوض أراد أن يقول لنا أن ظهور شخصية مثل شخصية أبو طاهر القرمطي قد مهد لظهورها ضعف الحاكم ، وفساده وعدم مبالاة العامة بالأمور السياسية ، وعدم تدخلهم بها .

إنَّ فساد الماضي هو نتاج عوامل طبيعية قد تتكرر اليوم في زماننا ، وأحيازنا العربية " إن بنية النص في رواية القرمطي التي تشتغل على مادة حكائية ماضية، تتعالق مع زمن الخطاب الذي ينتقل بها من (العموم) إلى (الخصوص)، لتقدم رؤية على مستوى الدلالة والعمق. إنها تنتقل بقضية (الفساد، والعجر، والفتنة) من الواقع الزمني التاريخي المحدد بالإشارات الزمنية الواردة في القصة، إلى آفاق زمنية لا محدودة وعصر أو حقبة أو سنة ومن أحياز محددة في القصة إلى أحياز غير محددة جغرافياً " (٢).

إننا إزاء الحديث عن شخصية المقتدر أمام شخصية منفتحة على مستوى (الكتابة) زمنياً ودلالياً، ومنفتح على مستوى القراءة ، ولا يتقيد بالزمن والمكان " فالقارئ الفلسطيني ربما يرى في أبي طاهر القرمطي –مثلاً– ترميزاً على الصهيونية وإفسادها المعاصر، وإذلالها للنظام العربي، واستيلائها على قطعة غالية من الأرض العربية " (٣) .

لقد جاءت شخصية القرمطي لتستفز الأمة العربية ، والإسلامية لتقول لهم إن قرمطي الزمن الماضي لم يمت ؛ فهو يأتي بعدّة شخصيات يأتي عبر شارون الصهيوني الذي دمّر

---

(١) أحمد رفيق عوض : القرمطي، ص٢٥٢–٢٦١.

(٢) انظر: علي الخواجا، مقاربات نقدية، ص١٤٧.

(٣) السابق: ص١٥٨.

وضرب وقتل وتجبر ولم يجد أحد من حكام العصر المتمثلة شخصياتهم في شخصية المقتدر يدافع عن الديار الإسلامية ومقدساتها.

وقد يرى القارئ المصري في أبي طاهر القرمطي ترميزاً على الانقلاب الذي حدث في مصر على الرئيس الشرعي "محمد مرسي" ، والمجازر الدموية التي ارتكبها السيسي ضد المعارضين للانقلاب العسكري، وقد يرى القارئ العربي في تونس والجزائر ، وليبيا فيها ما يهمه كلٌ بحسب رؤيته الشخصية التي ينطلق منها.

وتأتي النهاية من خلال تقنية الاستباق التي استخدمها أحمد رفيق عوض وسط الجو الدامي والمرعب الذي رسمه بعد موت عشرين ألف من الحجاج يقف أبو حفص وقد حقق هدفه ينتقل من مكان لآخر وهو يقول:

" أنتم أيها المسلمون لقد صار ربكم إلى السماء وخلّى بيته نهباً مضاعاً في الأرض.. أيها الجند، أيها البورسعيديون انهبوا هذا البيت، دمروه... ولم يكن أبو حفص يعرف أنه بعد سنتين فقط سيقتله إله آخر هو ذات الغلام الذي نصبه أبو طاهر إلهاً لمدة ثمانين يوماً سيجز الغلام رقبة أبي حفص جزاً بطيئاً " (١).

وتأتي تقنية الاستباق مرة أخرى لتريح القارئ بعد جو مليء بالدم والقتل مشحون بالقهر والذل مبشراً بأن أبا طاهر القرمطي سيموت في اللد بفلسطين بداء الجدري، وفي ذلك إشارة إلى قرب نهاية المحتل الذي يتماهى مع ظلم وقهر وعربدة القرمطي:

" بعد ذلك بسنين كثيرة وطويلة وبينما كان أبو طاهر في اللد بفلسطين، أرسل الله عليه دواعي المرض الجدري. فظهرت على جلده بثور تستر بالصديد المختلط بالدم. فتبعث رائحة كريهة لا تطاق، وقد اشتد المرض عليه حتى ضرب دماغه ؛ فخيل إليه أنه كلب ؛ فصار ينبح مثل الكلاب ويعض مثل الكلاب وصارت رائحته رائحة كلبة في وقت شيوعها مما جعل الكلاب الذكور تتكاثر حول خيمته فيضطر الجند إلى طردها. ولما اشتد المرض عليه ولم يعد أحد يطيق خدمته، وضعوه في قفص حديدي، فصار أبو طاهر يأكل لحمه، لما استحكم في خياله أنه كلب، وظل على هذه الحال، حتى أكل نفسه ومات " (٢).

هذه النهاية التي استبقها أحمد رفيق عوض هي نهاية مريحة للقارئ المشحون والمشدود والمستفز في ذات الوقت على ما فعل القرمطي الذي تجاوز كل الحدود، وقد حقق بذلك أحمد

---

(١) أحمد رفيق عوض: القرمطي ، ص٢٦٢.

(٢) السابق : ص٢٦٤-٢٦٥.

عوض مراده من مقاربة الحدث التاريخي محولاً إياه لمقاربة فكرية يساعد في تشكيل فكر الشخصية العربية قائلاً:

" ومثلما كانت مكة والحجر الأسود يمثلان قيم وثوابت الأمة في ذلك العهد، فإن فلسطين والمسجد الأقصى هما الثابت الموضوعي في شخصية الأمة العربية والإسلامية، وفقدانها يمثل صفعة قوية لوجدان هذه الأمة في المرحلة الراهنة "(١).

وبعد موت أبي طاهر القرمطي تنتهي الرواية بنهاية مفتوحة حيث يقول: "الرواية مستمرة..." (٢) وقبلها في الإهداء يقول: " إلى الذين يواجهون القرامطة.. حتى هذه اللحظة " (٣).

فالإهداء والخاتمة كلاهما يكشفان عن الجانب الفني للمبدع كما يكشفان عن حجم ثقافته وهما من المناصات الدالة التي أضافها المؤلف وقد اختارهما الكاتب بشكل واعٍ ومقصود يشاركان في عملية الترهين الزمني ناتجاً النص ليتجاوز التاريخ والرواية نفسها وعدم غلق الرواية على نفسها، وبذلك ينقل الرواية من الخصوص إلى العموم ومن الزمنية إلى اللازمنية فالرواية مستمرة... بحسب المؤلف لأنها ذات بداية ولكن بلا نهاية، وزمنها دائري ومفتوح. (٤)

شخصية المرأة :

لقد حظيت المرأة في روايات أحمد رفيق عوض مكاناً مميزاً ودوراً هاماً وبارزاً جعل لها حضوراً قوياً في خطاب الروائي، وكان هذا الحضور من خلال نماذج مختلفة لا يكاد يتشابه نموذج بآخر، وقد كان لحضورها دورٌ فاعلٌ في صناعة الحدث الدرامي.

وقد تجلى حضورها في خطاب أحمد رفيق عوض في جو أسطوري مدهش وغريب، وعلى نحو يستفز الفكر والحواس. فهي أسطورة ساحرة على مستوى الجمال والجسد، واللذة، وعلى مستوى القدرة على امتلاك الرجل، وفتنة الاستحواذ على تصرفه، لذا نجد الخطاب في روايات أحمد رفيق عوض، يقدم لنا الفتنة والسحر والأسطورة أكثر مما يقدم لنا وصفاً طبيعياً للمرأة التي نعرفها.

وسوف نعرض لبعض نماذج المرأة التراثية في روايتي "عكا والملوك" و "القرمطي" المتمثلة في المرأة البغي (جوانا وكهرمانة وثمل) ، ونموذج الأم (شغب) والأخت الراهبة (فرانشيسكا والأخت فيرونيكا).

---

(١) علي الخواجا : جوائز الفحم، ص١٩٠.

(٢) أحمد عوض : القرمطي، ص٢٦٥.

(٣) السابق: ص٤.

(٤) انظر: علي الخواجا، مقاربات نقدية، ص١٦٧-١٦٨.

ويرى الباحث أن كل من " فيرونيكا وفرانشيسكا وجوانا " تكشف لنا زيف الدعوة الصليبية المقدسة، وترمز (شغب وثمل) إلى الخط النسوي الفاعل في قصر الخلافة كما ولها دور كبير في إدارة شئون البلاد كما ويرى الباحث أنه من الممكن عمل بحثاً مطولاً حول شخصية المرأة في نتاج " أحمد رفيق عوض" .

أ- المرأة البغي (جوانا وثمل) :

رواية عكا والملوك

جوانا

وقد أفرد لها الكاتب الفصل الرابع من رواية عكا والملوك وهي شقيقة الملك "ريتشارد"، جوانا التي مات زوجها ووالدها وتُركت وحيدة في جزيرة مشمسة، لا تفعل شيء، وقد حاولت إشغال نفسها بالزراعة فطلبت من أحد عبيدها المسلمين أن يعلمها أصول الفلاحة ، لكنها تصرفه قبل أن تفتن به.

الفراغ يداهمها من كل جانب، فلا تجد غير عبيدها " لم يكن أمامي سوى عبيدي الذين يجيدون كل شيء في جو احتفالي مليء بالخضوع والاحترام " [١].

وتقرأ لها دلال من كتاب شهواني لمؤلف مسلم فأصبحت تطارد كل ما يتحرك في قصرها ووفرت لها دلال عناء وذل البحث وأصبحت أسيرة لأفعال دلال، والجدير بالذكر أن جوانا شخصية تحوي الكثير من التناقض والتداخل والضبابية والتمرد فهي لا تصدق الكاهن " لا أصدق الكاهن الذي يتحدث عن المتع الروحية، والإخلاص للرب حيث لا يمكنني تصور هذا الرب إلّا من خلال حكايات وصيفاتي أيام طفولتي...ولهذا لم أتمكن قط من تسليم روحي للرب " [٢].

جوانا فقط تستمتع بأيامها وجسدها وهي تطلب الرجال الأشداء لكي تروي شبقها الذي لا حد له، ويطلب فلاح مسلم مساعدتها وتعده بفعل ما تستطيع فعله لتتفاجأ بزيارة الأسقف النابذ لعون هذا المسلم، وتنفجر فضيحة الملكة جوانا بعد أن ذكر اسمها ذلك الفلاح المسلم.

لم تكن الأميرة "جوانا " تمارس البغي كمهنة تقتات منها، بل لإسكات رغبات جسدها الصارخة، ولا يمنعها شيء في الغلو والإيغال في ذلك ، وهي لا تعدم الوسيلة للوصول لمبتغاها ولم تمنعها الفضيحة وهي مقتنعة بأن خطاياها مقصودة وتقنع بذلك إحدى وصيفاتها التي تقوم

---

[١] أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص١٠٣.

[٢] السابق : ص١٠٥.

بدور دلال السابق وتقول جوانا: "وقد أقنعتها أن خطاياي مقصودة لأن المسيح سيأتي آخر الزمان فيحتضن الخطاة أولاً، ويخلصهم ثم يبيد الأشرار جميعاً " (١).

لقد قدم أحمد رفيق عوض شخصية جوانا بعيداً عن قبضة السارد المحيط بكل شيء، وأتاح لها أن تتكلم بأريحية بضمير المتكلم وهذا ما جعلها قريبة من ذهن القارئ فأراد الكاتب أن يعري زيف الغرب من خلال شخصية (جوانا)، وهي تصور واقع الفرنجة من الداخل، وتبين مدى الفساد الخلقي والسياسي الذي ينغمسون فيه ، ووجود أهداف مادية واقتصادية وراء ادعاء تحرير قبر المسيح.

ويأتي ريتشارد على سفينة ضخمة وتقوم الجزيرة لاستقبال القائد الذي يريد الذهاب لتحرير قبر المسيح من يد الكفار، ويلتقي ريتشارد بأخته جوانا في قصرها لكي يأخذها معه إلى القدس لاستعادة القدس من صلاح الدين وترحب جوانا بذلك خروجاً من المأزق الداخلي.

وتصور لنا جوانا جانباً من حروب أخيها ريتشارد حيث كانوا يتحدثون عن جزيرة خالية من المدافعين وعن مناجم الذهب والنحاس وخيراتها من الثمار والأشجار، وكان الجنود يتبادلون أنخاب النصر قبل بدء المعركة، وقدر برر ريتشارد غزوها لتكون قاعدة متأخرة للمسيحيين في حربهم الطويل مع المحمديين، ويسيطر جنود ريتشارد على كل شيء وأخذوا ونهبوا منها كل شيء.

وتحس جوانا في قرارة نفسها أنها أكثر الناس صدقاً وشجاعة فهي لا تختلف عن أخيها الذي يفتح الحصون والبلاد طمعاً في خيراتها وبينها التي تفتح فخذيها للغرض ذاته تقول جوانا: " أحسست أنني أكثر الناس صدقا على الأرض، وأنني الوحيدة التي واجهت أعماقها بشجاعة... لأنني أشجع منه وأكثر جرأة، وإذا كان يفتح البلاد والقلوع والمدن، فإنني أستطيع أن أفتح فخذي كلما أريد، ووقتما أريد ولمن أريد " (٢).

هكذا بدت أهداف الحرب لدى جوانا، وتتساءل جوانا عن حزام العفة الذي يتحدثون عنه " فقيل لي إنه حزام حديدي يربط حوض زوجة الجندي حتى لا تتورط في الزنا، ذلك أن الجندي يقفل هذا الحزام، ويأخذ مفتاحه حتى يعود من حربه"(٣).

---

(١) أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، ص١١٠.

(٢) السابق : ص١١٦.

(٣) السابق : ص١١٦.

وتتعجب لذلك جوانا أشد العجب وتقول: "عندئذ كرهت كل ما حولي، فإذا كان هؤلاء محاربين من أجل القبر المقدس فلماذا إذا لا يثقون في زوجاتهم " [١].

وتصوّر لنا جوانا جانباً من جوانب معركة حصار عكا، واشتداد وطأة ذلك الحصار على المحاصرين من خلال قسوة الآلات العسكرية الجديدة التي جاء بها ريتشارد، وتصف لنا جوانا مشهد درامي حيث تحاول إحدى السفن الإسلامية المجهزة بالمدد من اختراق الحصار، فكانت نيران العدو أسرع إليهم " اشتعلت النيران في الأشرعة جميعاً. تراكضت النيران في كل مكان بينما الرجال يسقطون واحداً بعد الآخر... لم يستطع من في السفينة الإسلامية المقاومة، ذلك أنها كانت محاطة بالسفن من كل الجهات.. دهشنا ونحن نشاهد بحاراً عجوزاً، متين البنيان، يشد على رأسه عمامة صغيرة، ويكشف عن ذراعين ضخمين، ينتصب تحت شراعه المحترق، ويرد علينا بانجليزية سليمة: أنتم يا أولاد القحبة، من أي بلاد كنتم، ومن أي أرحام فاسقة جئتم، والله لن نستسلم لكم ولو متنا جميعاً! " [٢].

هكذا صورت لنا جوانا مظهر من مظاهر استبسال المسلمين في دفاعهم مثل موقف " يعقوب الربان" حيث أغرق سفينته بمن فيها من عتاد وذخيرة لمّا يئس من إمكانية الخلاص حتى لا تقع في يد الفرنجة.

وتصور لنا جوانا الواقع الداخلي للمسيحيين المجتمعين لإنقاذ قبر المسيح من براثن الكفار " كانوا يشعرون بذلك الخيط الذي يجمعهم رغم اختلاف اللغة والوجوه والأوطان. كانوا يشعرون أنهم خدم يسوع، وأنهم يقومون بأنبل المهام، وأكثرها قدسية " [٣].

ولكنها سرعان ما تبين لنا أن هناك انقساماً كبيراً بين المسيحيين المجتمعين فالملك " غي دي لوزجنان" قد سلب منه عرشه الكونت " كونراد دي مونتفرات "، والملك الفرنسي فيليب أغسطس يشعر بالغيرة من ريتشارد.

تقول جوانا: " دخلوا في نقاشات طويلة وصعبة، وتبادلوا الاتهامات والوشايات... أسباب الخلاف لم تتوقف على مسألة تاج المملكة اللاتينية، بل على التفويض الذي منحه الملوك والأمراء والقواد لأخي بقيادتهم في هذه الحرب " [٤].

---

[١] أحمد رفيق عوض : عكا والملوك ، ص١١٦.

[٢] السابق: ص١١٩.

[٣] السابق: ص١٢٢.

[٤] السابق : ص١٢٣.

وتعرب جوانا عن إعجابها بالمستوى الحضاري للجندي المسلم وعن اشمئزازها بسلوكيات الجندي الصليبي، حيث تسمع الجنود الصليبيين يتحدثون عن جبن وضعف المقاتل المسلم، وهي لا تصدق ذلك لأن معرفتها وثيقة بالمسلمين " فإنني لم أحتج بإشعال الخيال حول أوهام يتناقلها الجند المتحمسون؛ فالمسلمون على الأقل يهتمون بالنظافة والأناقة أما هؤلاء فهم أشد الناس فظاظة، شعورهم طويلة وقذرة، وملابسهم تفوح منها روائح كريهة، أما أظافرهم فهي طويلة ومتسخة بشكل مقرف، وعندما يتناولون طعامهم فهم يتناولونه بطريقة تدعو إلى الرثاء، وهم لا يجيدون سوى الحرب، أما العاهرات، والنساء اللواتي جلبوهن معهم في السفن، فهن مدعاة للعراك اليومي، والصراخ والسباب الذي لا ينتهي" (١).

هكذا تعترف جوانا بالتفوق الحضاري للجندي المسلم، وفي المقابل يقدح على لسان غيرها بالمستوى الأخلاقي للمسلمين " فقد ذكر لنا أن لصوص المسلمين يسرقون الكحل من العين، وأنهم يستطيعون سرقة ثياب الملك إذا أرادوا..." (٢).

وأحياناً تنفي جوانا كراهيتها للإسلام في قولها: " وعندما أفتش في صدري عن كراهية للمسلمين فإنني لا أجدها " (٣).

وفي موطن آخر تعرب عن كراهية عمياء للإسلام في قولها: " في الحقيقة إن هؤلاء المسلمين لا يفهمون، ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم... الحقيقة –أن الإسلام– هذا العدو المتشعب الرؤوس والأيدي –كما عرفته من خلال وصيافتي– لا يشبه أي دين آخر؛ فهو يتدخل في أخص الخصوصيات، وينقاد له الناس من خلال نصوص لا تقبل المناقشة. كرهت الإسلام لأنه لا خمر فيه، ولأن الزانيات يرجمن بالحجارة، ولأن إله الإسلام يعاقب الناس بالنار... وكرهت الإسلام لأن الناس في بلادي يكرهون الإسلام والمسلمين... وأكرههم لأنهم يعتقدون أن دينهم هو الدين الأخير، وهو الدين الأفضل بين الأديان..." (٤).

جوانا تعجب تارة بالجانب الحضاري، وترفض الجانب العقائدي علماً بأن البناء الثقافي لا يتجزأ وأنه لا انفصال بين العقيدة والسلوك فقد وقعت جوانا في تناقض واضح حيث تنفي كراهيتها للإسلام تارة وأخرى تبدي إعجابها به.

---

(١) أحمد رفيق عوض : عكا والملوك ، ص١١٥.

(٢) السابق: ص١٢٤.

(٣) السابق: ص١٢٠.

(٤) السابق : ص١٢١.

وتواصل جوانا وصفها لمجريات الحرب حيث يتناوش الفرسان من الجانبين يلتحمون في قتال مميت، وتستمر يوماً كاملاً، وما إن يعود ريتشارد لخيمته يجمع الملوك والأمراء وأمرهم بعدم الاصطدام بجيش صلاح الدين حيث لا فائدة من ذلك وتصبح الحرب على عكا بالمنجنيقات وآلات الحرب الأخرى.

وتقترح جوانا حلاً لتلك الحرب الضروس بزواجها من الملك العادل شقيق صلاح الدين ومستشاره عندما جاء لريتشارد على رأس وفد تفاوضي مقابل صلح شامل .

رواية القرمطي

الكهرمانة ثمل :

وتظهر شخصية الكهرمانة ثمل في رواية "القرمطي"، وهي جارية ولكنها تحظى بمكانة كبيرة لدى الخليفة وأمه " ثمل"، وبفضل تلك العلاقة أصبحت تصدر المراسيم في شأن القضاء والوزراء بل وأصبحت تدير دار العدل، والكل يطلب ودها مثل الجهشياري الذي " حفي من أجل أن ترضى عنه "ثمل" لتقبل به كاتباً بالقصر، كاتباً صغيراً لا قيمة له"[١].

حتى الوزير لا يستطيع أن يتجاوز رغباتها لسلطانها النافذ " ثمل امرأة ليست كالنساء "ثمل" ليست كهرمانة، بل حاكمة بغداد مثلها في ذلك مثل مؤنس الخادم ونازوك أمير الشرطة "[٢].

كما أن الخليفة المقتدر في حواره مع الجهشياري يعترف بأنه لا يخيفها وأنها تحكم القصر " أنا خليفة المسلمين ولكني لا أستطيع أن أخيف الكهرمانة "ثمل" "امرأتان تحكمان القصر..." [٣].

وتتناقل الروايات في حانة بهرام المجوسي حول الكهرمانة "ثمل" فهي "مدبرة القصر ومدبرة الخلافة، تاجرة النخاسة المسيطرة على والدة المقتدر السيدة "شغب" إلى درجة أن "ثمل" تستطيع أن تصدر مراسيم مثلها في ذلك مثل الوزير..." [٤].

لقد قام الخطاب بتجلية ملامح شخصية "ثمل" بشكل مباشر حيث أبان لنا الأبعاد الكامنة خلف التكوين المادي والوظيفي لشخصية "ثمل" نحو القوة وبيان مكانتها ودورها وذلك من خلال المعلومات التي جاءت من خلال تقنية التقسيط وهي تقنية سائدة في تقديم شخصيات الرواية.

---

[١] أحمد عوض : القرمطي، ص٢٩.

[٢] السابق: ص٢٩.

[٣] السابق: ص٣٥.

[٤] السابق : ص٥٧.

إن "ثمل" ترمز إلى الخط النسوي الفاعل في القصر، وتكون طوق النجاة لإعادة الخليفة المقتدر المخلوع من خلال تسليم جسدها إلى "نازوك" قائد الشرطة بالإضافة إلى مئة ألف دينار "وما لم يعلمه المقتدر هو أن والدته "شغب" أخرجت آخر ما في جعبتها من تدبير، فقد اتفقت مع عمها الأمير بدر أن ينقل إلى "نازوك" موافقة "ثمل" على وصاله –دون علمها– في حالة أن يعمل على إعادة المقتدر إلى الخلافة، وأن يعطي مئة ألف دينار دفعة واحدة " [١].

شغب تضحي بحبيبتها "ثمل" وتتخذ منها أداة لتحقيق أهدافها، ويتم الترتيب "لنازوك" كي يدخل حجرة " ثمل" التي لم تمانع في أن تمنحه جسدها، ويطعن "نازوك" بالحراب وهو في حضن "ثمل" وتقول وهي تشعر بالنشوة " ذقت ما لم أذقه في عمري" [٢].

وتدرك " ثمل" وهي يأكلها الغيظ والندم رغم –إخلاصها– أنّها مجرد متاع يُستعمل لكل غرض حتى دون أن تُستأذن، ويسّرع أحمد رفيق عوض الزمن السردي من خلال تقنية الاستباق ليخبرنا عن مصير ثمل: " أما ثمل فإنها ترحل إلى البصرة وتأخذ معها " شغب" التي أصابها مرض عضال، ولكن " ثمل" تأمرها بطحن الملح طيلة النهار ، وصنع السلال من جريد النخل طيلة الليل" [٣].

ويظهر لنا من خلال هذا الاستباق عدم رضى "ثمل" عن معاملة "شغب" لها واستخدامها أداة لتحقق مآربها غير مكترثة بأحاسيس ثمل ومشاعرها فهي مجرد بغي في نظر سيدتها "شغب" لذلك تتلذذ "ثمل" في معاقبة "شغب" على كل ما مضى.

لقد أورد الخطاب السردي ذكر شخصية ثمل في حوالي خمس صفحات، فهو حضور على قلته وحدته إلّا أن دورها كان هاماً جداً، لأن عودة المقتدر إلى سدة الحكم مرة أخرى كانت بفضل جسدها.

كما وبدت "ثمل" في الرواية ظلاً "لشغب" وسنداً لها في جميع أدوارها فحيثما ذكرت "شغب" تذكر "ثمل"، كما ولم يتح لها الكاتب التعبير عن نفسها إلّا في حوارات قصيرة جداً وذلك إمعاناً في سيطرة الكاتب عليها، وتوضيحاً لدورها، حيث أنها مجرد أداة في يد "شغب" تتصرف فيها حيث شاءت.

---

[١] أحمد رفيق عوض : القرمطي، ص١٢٤.

[٢] السابق: ص١٣١.

[٣] السابق: ص١٣٢.

إن ثمل لم تحظ بدور بطولي إلا أنّ في شخصيتها دلالة واضحة على دور المرأة "البغي" الفاعل في المؤامرات والدسائس في العصر العباسي.

ب- شخصية الأم

شغب

وتتجلى شخصية الأم شغب في رواية " القرمطي" وهي أم الخليفة المقتدر وهي ترمز إلى الخط النسوي الفاعل في الرواية مثل الكهرمانة " ثمل"، وهي مدبرة أمر الخليفة والقائمة بشؤون الخليفة وهي ممن يحكمون البلاد، ويقول أبو عبد الله الجهشياري في شهادته عن شغب أنها " امرأة أخرى تحكم بغداد" [١].

كما ويظهر دورها من خلال شهادة ابنها المقتدر بأنها تحكم بغداد مع ثمل ومؤنس وهو يتهم أمه شغب التي تبدو حريصة عليه وتبذل كل ما تملك من أجله يتهمها بالتدخل في تصريف شئون القصر وتدبير أشياء كثيرة بعيدة عنه حتى إعادته لسدة الحكم وهذا الحوار يوضح ماهية العلاقة بين الخليفة المقتدر وأمه "شغب" بعد مقتل "نازوك" يستيقظ على الصوت " هب المقتدر من نومه، قال لأمه: هذا من تدبيرك، أيضاً.

قالت: ماذا تعتقد؟!

- أنت تدبرين أشياء كثيرة بعيدة عني!!
- كل ذلك من أجلك.. اذهب إلى نومك.

عاد إلى حجرته تاركاً الأمر لأمه.." [٢].

وفي مشهد آخر يظهر لنا مدى تدبير وتحكم الأم "شغب" في شئون البلاد والحكم وبعد رجوع ابنها وإعادته لسدة الحكم يصعد الخليفة إلى والدته ويجدها تخرج أموالاً من ثقب في الجدار وتقول وهي غاضبة: "بصقت على المال وقالت: هل ترى ما يعبدون؟!

قال: لماذا فعلت ما فعلت؟!

قالت بذات الغضب، حتى لا يقتلوك؟!

- لماذا لم تقول لي شيئاً عن تدبيرك!!

رغب أن يعانقها، رغب أن يقتلها.

---

[١] أحمد رفيق عوض : القرمطي، ص٣٢.

[٢] السابق: ص١٣١.

لقد أظهر الخطاب الأم شغب مسيطرة على شئون الحكم فهي أم قاسية سلبت ابنها إرادته، وتتآمر بالقتل على "تازوك" هي امرأة قوية تحكم بغداد، صاحبة المكر والدهاء التي بطبيعتها كأي أم تحب ابنها وتبذل من أجله كل شيء.

ج- شخصية الراهبة :

الأخت فرانشيسكا

عكا والملوك

وتعد الأخت فرانشيسكا في رواية (عكا والملوك) من أهم الشخصيات الدينية، وهي من جمعية الاسبتارية وهي ابنة غير شرعية لفارس محارب، وتشكل علاقتها مع عمر الزين (ريمون) مفصلاً هاماً في الرواية وفي حياة عمر الزين ويصفها لنا عمر الزين في خضم حديثه عن الراهبات الصغيرات السن وقد استوقفه جمالها يقول:

" ومن بين أولات استوقفتني الأخت فرانشيسكا، وهي امرأة لم تتجاوز العشرينيات من عمرها، لها وجه يقطر جمالاً وابتهاجاً، وفيه ما يدعو إلى الحياة والطرب؛ فعيناها الواسعتان الخضراوان يتراقص فيهما شوق عارم لما سيأتي، أما شفتاها الغليظتان النافرتان إلى الأمام قليلاً، فهما دعوة مباشرة وواضحة إلى كل ما يثور في الصدر" [١].

وتعرض عليه تعلم لغتها وتتواعد معه في حجرة الأب "ميشيل" عندما يكون نائماً وتستمر العلاقة بينهما بلا حدود والتي تكشف لعمر الزين عوالم الدين المسيحي وما يدور في سلك الرهبنة في ذلك الوقت بكل تجرد وحيادية، حيث سمح الكاتب لشخصية فرانشيسكا بأن تتحدث بنفسها دون قيد من رؤية السارد العليم، وهي بذلك توضح لنا أبعاد الشخصية الدينية لدى الآخر الغربي.

وتحدث الراهبة فرانشيسكا "عمر الزين" عن علاقتها المتوترة مع الأخت فيرونيكا التي لم تستطع أن تشكم تهور الراهبة الصغيرة وتحدث " عمر الزين " عن " فيرونيكا " بكلام شائن بأنها ذات سمعة سيئة، وعندما طلب "عمر الزين" من الراهبة فيرونيكا أن تسمح له بأن تعلمه الراهبة "فرانشيسكا" لغتها، فكرت ثم وافقت، فقالت له فرانشيسكا بعد أن ضحكت بأنها لا تستطيع أن ترفض لأنني أعرف أسرارها، وواضح أن العلاقة بين الراهبتين متوترة يطفو عليها الغيرة والكره المتبادل عكس ما هو معروف عن تسامح الراهبات وحبهن لبعضهن كما يُروج، وسأورد بعض الشهادات والمواقف التي تبين مدى الفساد المستشري في المؤسسة الدينية عند الفرنجة.

---

[١] أحمد عوض : عكا والملوك، ص١٨٠.

تقول فرانشيسكا: " إن أكثر الأكاذيب شيوعاً وتصديقاً هي الأكاذيب التي ينشرها بعض الرهبان عن قدراتهم ومعجزاتهم"[١].

وتقول أنها أجبرت على الرهبنة " فهي ابنة غير شرعية لأحد فرسان جمعية الاسبتارية الذي رفض الاعتراف بها، فاضطرت أن تحيا هكذا من دير إلى دير، فهي راهبة رغماً عنها " [٢]. وهي لا تكترث بقوانين الرهبنة الصارمة " أؤمن بنفسي، بحريتي، ولا أصدق الكهنة " [٣].

وتفاجئ " فرانشيسكا " عمر الزين بأن الأب ميشيل لا ينام بل يشاهد كل ما يفعلانه وأن الأخت " فيرونيكا " على علم بذلك.

وبعد فإن هذه الشهادات والمواقف والتي جاءت على لسان راهبة من داخل الآخر المسيحي لتؤكد مدى الفساد المستشري في المؤسسة الدينية المسيحية، فالراهبات يمارسن الزنا على مرأى ومسمع من الرهبان، والرهبان الذين ينشرون الأكاذيب عن قدرتهم على شفاء الناس بمجرد اللمس.

لقد ظهرت شخصية فرانشيسكا في صفحات قليلة من الرواية ولكن رغم ضآلة هذا الحضور إلّا أنه كان له دوراً مهماً في إبراز شخصية الآخر الإفرنجي من الداخل وعلى لسان راهبة تعيش معهم، كما وكشفت لنا زيف وبطلان الدعوة الصليبية المقدسة وأن هدفهم هو إنقاذ قبر المسيح. حيث بدت شخصيات الرهبان متجردة من إنسانيتها فهي تمارس الكذب وتحرض وتستخدم كل الوسائل المباحة وغير المباحة من أجل الوصول لمآربها.

---

(١) أحمد عوض : عكا والملوك، ص١٨٢.

(٢) السابق: ص١٨٢.

(٣) السابق: ص١٨٤.

الفصل الثالث

شخصية اليهودي

الشخصية اليهودية الإسرائيلية:

عُرفت الشخصية اليهودية في الآداب الأوربية بصورتين أو نمطين .

الأول : هو النمط الشايلوكي المعروف بطمعه وجشعه وحبه إلى المال.

الثاني : النمط غير المندمج وتم تعديل تلك الصورة عن اليهودية بعد القرن التاسع عشر وظهور الثورة الصناعية والفرنسية (١).

لكن الشخصية اليهودية أو الصهيونية في الأدب العربي تختلف عن تقديمها في الآداب الأوربية ، وقد أظهرت الجامعات العربية ومراكز الأبحاث اهتماماً واضحاً حول صورة اليهود في النصوص الروائية والأدبية، وقد حظيت صورة الذات والآخر في الأعمال الأدبية بالاهتمام الواضح والمحور البارز.

"فمنذ صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ بدأ اليهود –بشكل علني- يشكلون طرفاً أساسياً من أطراف الصراع على أرض فلسطين، إلى جانب العرب والإنجليز، إذ كان الوعد إشارة علنية للحركة الصهيونية كي تنسق خطاها مع الحكومة البريطانية، صاحبة الوعد، تحقيقاً للوطن القومي اليهودي في فلسطين... ومع تصاعد الصراع... اتضحت جلياً أطماع اليهود في سلب الوطن الفلسطيني... ومن خلال العلاقة التي مارسها العرب واليهود في فلسطين قبل النكبة وبعدها، كان لا بد أن تجد (الشخصية اليهودية) طريقها في الرواية الفلسطينية"(٢).

"ومهما برقت في سماء الصراع العربي الإسرائيلي بعض بوارق معاهدات السلام، فإن مؤشرات الأحداث بالنسبة للصراع العربي الإسرائيلي... تشير إلى أن هذا السلام الواهي يحمل في طيات دمغته المائية احتمالات تجدد الصدام والحروب في أية لحظة"(٣).

لذلك كان واجباً على المهتمين والمشتغلين بالدراسات الإسرائيلية تبيان المعرفة الصحيحة بواقع الإنسان الإسرائيلي في إطار علمي صحيح بعيداً عن التعصب، للكشف عن ماهية هذه الروح العدوانية التي يتمتع بها الآخر.

ولقد كان تصوير الشخصية اليهودية في الرواية الفلسطينية "منسجماً مع الدراسات التاريخية حول هذه الشخصية، ومع بعض صورها في الآداب الأوروبية، وأيضاً كما عرفها الواقع

---

(١) أحمد عطية أبو مطر: الرواية في الأدب الفلسطيني ١٩٥٠-١٩٧٥، دار الرشيد للنشر ،١٩٩١ ، ص٤٠٩.

(٢) السابق : ص٤٠٤.

(٣) رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة –الكويت- ١٩٨٦،ص٥.

الفلسطيني، فلقد أتيحت للمواطن العربي الفلسطيني فرصة طويلة زمنياً لمعرفة هذه الشخصية عن قرب، وعلى أرض الواقع، دون الحاجة إلى الدراسات التاريخية والنفسية حولها"[١].

ومنذ وقت مبكر حازت العلاقة مع الآخر اهتمام المفكرين والأدباء العرب وقد كتب مؤلفو الرواية حول ماهية هذه العلاقة محاولين الولوج إلى مكنوناتها.

"وكان الشروع في هذه التجربة جزءاً من محاولة التعرف على الأنا الذّات، فمعرفة الذات تبدو ناقصة مبتورة بدون معرفة الآخر، بل إن معرفتنا للآخر تكون في أحيان كثيرة شرطاً لاكتشاف الذات. والموقف بين الأنا والآخر جدلي قديم"[٢].

لقد كان لهزيمة حزيران ١٩٦٧ الفاصل الهام في تبلور وتحديد انتماءات كثير من المثقفين، والتي حُصرت في عدة تيارات (تيار العلماني –الليبرالي ، التيار الإسلامي –الديني، التيار القومي –النوري).

وإذا كانت تصنيفات وتقسيمات الباحثين العرب لأنفسهم فإن الآخر له نظرته الخاصة، لذلك تعددت الرؤى في علاقتنا بالآخر علماً بأن الغرب ليس كلاً متجانساً موحداً[٣].

لقد شكل وجود الأنا الفلسطيني خطراً وتهديداً لمشروع الآخر التاريخي الزائف "لذا فإن أهداف الآخر هنا، ليس الحوار، وتطوير الثقافة و(التغريب) بل إن الهدف الأساسي للآخر هو إزالة هذه الأنا، إن أمكن . هكذا تنفرد الرواية الفلسطينية في الأرض المحتلة للتعبير عن العلاقة مع الآخر "[٤].

لقد ظهر اختلال الحوار الحضاري في روايات أحمد رفيق عوض مثل "عكا والملوك" وقد بين بوضوح إشكالية الحوار بين العرب والمسلمين والغرب إبان الحروب الصليبية "فقد قامت العلاقة قديماً بين العرب والمسلمين وبين الأوربيين على الصراع التي تمظهر في حركات الاستعمار، والاستعمار الجديد، ثم انتقل من الصراع إلى الحوار بتسويغ الاستتباع والاستقطاب

---

(١) أحمد عطية أبو مطر: الرواية في الأدب الفلسطيني، ص٤٠٥.

(٢) علي محمد عودة : دراسة الرواية الفلسطينية، مكتبة جزيرة الورد، ص٥.

(٣) السابق: ص٦-٧.

(٤) السابق: ص٨.

والهيمنة عند الغربيين الأوربيين والأمريكيين، بينما رأى العرب والمسلمون الحوار أكثر نفعاً عندما تعدل موازنات القوة بين الأطراف المتصارعة(١).

لقد اختلفت شخصية اليهودي في الرواية الفلسطينية قبل عام ١٩٦٧م عنها بعد عام ١٩٦٧م، حيث تعرضت الرواية الفلسطينية لشخصية اليهودي متأثرة بمناخ الأدب الأوروبي، فصوروا الشخصية الشايلوكية، وهي من أسبق الشخصيات اليهودية ظهوراً في الرواية الفلسطينية النمط الشايلوكي هو "الذي يحترف أعمال الربا والسمسرة و الغش في التجارة " وقد كان أول ظهور هذه الشخصية في رواية (الوارث) الخليل بيدس –١٩٢٠–" (٢).

كما وصور لنا الكتابّ الفلسطينيون الشخصية اليهودية الإيجابية والسلبية، فقد صور غسان كنفاني في روايته "عائد إلى حيفا" عذاب الهيود على يد النازيين محاولاً تبرير قبولهما بالاستيطان وقدومهما إلى فلسطين ثم تقرر (ميرام زوجة ايفرات كوشن) العودة إلى إيطاليا لأنها اكتشفت أباطيل الصهيونية وادعاءاتها لولا رفض زوجها(٣).

بالإضافة إلى ما سبق نلاحظ أن هناك انطباعات أخرى عن الشخصية اليهودية في روايات عديدة، حيث تتلخص معظمها في صفات القتل والإرهاب والعنف التي تنم عن شخصية استعلائية ، وذلك نابع من العذاب والألم الذي شهده الفلسطيني على يد العصابات الصهيونية إبان نكبة فلسطين .

وبعد عام ١٩٦٧ ظهرت هناك شخصيات أخرى في الرواية الفلسطينية مثل الجندي الإسرائيلي وضابط المخابرات وشخصية اليهودي المدني والمستوطن... وهذا ما سنتحدث عنه خلال هذا الفصل حيث إن دراستنا ستقتصر على اكتشاف الشخصيات اليهودية عند أحمد رفيق عوض واكتشاف العلاقة مع الآخر، ومحاولة فهم الأنا الفلسطيني في فصل آخر.

وقد حفلت رواية " بلاد البحر " بنماذج متعددة لشخصية اليهودي ، فقد ظهرت فيها شخصية اليهودي بشكل لم نعهده من ذي قبل في غالبية الروايات العربية والفلسطينية ، ولعل الكاتب أراد من وراء ذلك تعرية الشخصية اليهودية دون مبالغة أو تعصب كما كان لقرب الكاتب من الشخصية الإسرائيلية دورٌ بارزٌ في موضوعيته وحياديته التي برزت من خلال رواياته .

---

(١) عبد الله أبو هيف : صورة الآخر نموذج أحمد رفيق عوض، مجلة جامعة دمشق –المجلد ٢٤– العدد الثالث + الرابع ٢٠٠٨، ص١٠٩.

(٢) أحمد عطية أبو مطر : الرواية في الأدب الفلسطيني، ص٤٠٥.

(٣) السابق: ص٤١١–٤١٢.

ويرى الباحث أن احتكاك الكاتب "أحمد رفيق عوض" من خلال عمله في الداخل، وإقامته في بعض المدن المحتلة مثل (نتانيا) و(تل ابيب)، وإتقانه للغة العبرية أدى إلى معرفته للشخصية الإسرائيلية بشكل مباشر فهو من الكتاب الذين وضحوا شخصية اليهودي دون مبالغة ودون تعسف لقربه من الآخر بعكس الكتاب الذين تحدثوا عنهم دون أن يحتكوا بهم، لذلك أقول أن حديث أحمد رفيق عوض يمتاز عن الآخر بالموضوعية والوضوح وفيما يلي سأقوم بحصر تلك الشخصيات من خلال روايات الكاتب.

وقبل أن نبدأ بحصر تلك الشخصيات لا بد من دحض الفكرة التي لطالما سوّقها الاحتلال وهي فكرة التجانس اليهودي وخرافة الشعب اليهودي الواحد ؛ فهي أكذوبة كبرى حيث يضم التجمع الصهيوني في أرض فلسطين يهوداً من شرق أوروبا ووسطها وغربها ويهود الولايات المتحدة وكندا واستراليا وأمريكا اللاتينية ويهود الهند وجورجيا والفلاشاه والعبرانيين السود هذا بالإضافة للعمال الوافدين من الفلبين وتركيا ... [(١)].

والسؤال ما الذي جمع بين هذا الشتات المختلف دينياً وعرقياً ؟ وهل يمكن في ظل هذا الحال الحديث عن " أتون الصهر " و "الشعب اليهودي الواحد " ؟

هذا ما سيجيبنا عليه الخطاب الروائي ... .

١- شخصية ضابط المخابرات

لقد كان لضابط المخابرات دوراً بارزاً في التسلط على الفلسطينيين من خلال ممارسته لأساليب رخيصة ودونية من أجل محاربة المقاومة وتقويض دورها في عملية التحرير ؛ فهو يحاول الوصول للمعلومات بمختلف الطرق والوسائل ؛ فقد مارس التعذيب الجسدي بكل أنواعه الغير مشروعة والمحرمة دولياً من شبح وضرب والصعك بالكهرباء ... ، كما واستخدم الأساليب النفسية ، بالإضافة إلى عمليات الابتزاز حيث يحاول ضابط المخابرات الضغط على المعتقلين من خلال تهديدهم بسجن بناتهم أو زوجاتهم ومحاولة اغتصابهن ، بالإضافة إلى محاولات الإغراء بالمال أو السفر ومن ثم إسقاطه في وحل العمالة .

فالاحتلال لا يألوا جهداً لتدمير البناء الاجتماعي للشعب الفلسطيني ، وقد انعكس ذلك أدبياً من خلال تصوير الرواية الفلسطينية لهذا الواقع المرير ، وكان أحمد رفيق عوض من أبرز

---

(١) انظر: عبد الوهاب محمد المسيري: التجانس اليهودي والشخصية اليهودية، منتديات الوحدة العربية، ص٥٠/٥٢/٥٣.

الأدباء الذين صوّروا لنا ذلك الواقع المرير من خلال رواياته ولم تظهر شخصية اليهودي في رواياته بوضوح إلا في رواية " بلاد البحر ، وآخر القرن " وكان ظهورها في " العذراء والقرية بشكل عابر ، واختفت في رواية " عكا والملوك ، والقرمطي " لمرجعيتهما التاريخية .

وقد ارتأى الباحث في حديثه عن شخصية ضابط المخابرات الإسرائيلية أن يقف عند نموذجين من أهم النماذج التي تناولها الكاتب أحمد رفيق عوض للوقوف على كيفية توظيف الكاتب لهذه الشخصيات في رواياته وهي الشخصية الهمجية المتمثلة في :

أ-موران

رواية بلاد البحر

وهو ضابط في المخابرات خُصّص لمطاردة أعضاء الفهد الأسود في جبال جنين ووديانها، ويمارس "موران" أشد أنواع التعذيب مع الفلسطينيين حتى الأسرى منهم الذين يقضون مدة حكمهم فالمنطق يقول أنهم يعاقبون بالسجن لكنه يجعل من السجن عقاباً بعد عقاب، ويستخدم معهم شتى أنواع الإهانة الجسدية والنفسية، يقف "موران" شاعراً بنشوة ويصيح بالمعتقلين في الليل الماطر أن يسمعوه تحية المساء فينصاع المعتقلون مجبرين "ليلة سعيدة ياكابتن"(١).

ولا يكتفي "موران" بذلك بل ويجبرهم على الغناء في البرد الشديد، وهو متمرس في قتل الفلسطينيين حيث يخرج أحد المعتقلين ويضغط برجله على رقبته حتى مات، كما وقتل "محمد جهاد" من كفر راعي خنقاً بعد أن كمن له في مغارة غرب البلد.

ويستمر "موران" في ممارسة هواياته التي تدل على همجية المحتل ويصبح رئيس حركة استيطانية متدينة بعد أن تقاعد من الخدمة العسكرية وينوي إقامة مستوطنة عشوائية في وادي العبهر مدعوماً بقوات جيش الاحتلال التي تعمل على تسهيل مهمته وتزويده بالماء والكهرباء والهاتف ثم تشق له شارعاً استيطانياً عريضاً يأكل من طرفيه ما يطاله من أراضي الفلسطينيين(٢).

ويندفع موران على رأس مجموعة من الصهاينة الأمريكيين المتعصبين إلى احتلال تلة الشومر، ويضع "موران" "كارافاناً" على التلة ويرفع علم إسرائيل وعلم حركته الاستيطانية، ويزداد عدد الكرافانات في قلب الوادي، وبذلك اعتبر موران أنه حقق حلم حياته بهذه المستوطنة والسؤال ما هو الدافع وراء تلك الشخصية الهمجية وما هو سر ذلك الانتماء، وبرجوعنا إلى تاريخ "موران" قد نصل إلى شيء "فموران" ابن حرام، لـ "يوسي يونا" على الورق حيث اعترفت والدته بذلك قبل

---

(١) أحمد رفيق عوض : بلاد البحر، الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين بالتعاون مع دار الماجد -رام الله-، الطبعة الأولى، فلسطين ٢٠٠٦، ص١٢.

(٢) أحمد رفيق عوض: بلاد البحر ، ص١٦٠.

موتها وقد تعرفت على اشكنازي وكان طالباً، وقد مارست معه الزنا مراراً ومع غيره من الاشكنازيين، ولم يستطع زوجها "يوسي" أن يفعل شيئاً لأنه يهودي يمني مهاجر و الحكم للأشكناز، ولما أنجبت "موران" كانت بشرته حمراء أشقر الشعر، فأخذه "يوسي" إلى الحاخام وأعلن أن هذا ليس ابنه، ويسأل الحاخام أم موران "عدنة" عن أبيه فتقول أنها لا تعرف لأنها اضجعت مع كثيرين، ويسألها الحاخام إذا كانت تعترف بالزنا "فضحكت وقالت أن الكل يفعل فعلها كما يقول أعضاء حزب مباي، الذي أمر بمساواة الرجل بالمرأة، ولها حريتها الكاملة في ممارسة ما يحلو لها على المستوى الشخصي"[١].

ولم يستطع يوسي أن يطلقها لأن مسئول حزب مباي هدده بخسران الدونمات المئة التي تطعمه، ويرضى " يوسي" بالأمر الواقع لكنه يرفض أن يربي الطفل "موران" ، ويأخذه مسئول الحزب إلى مؤسسة داخلية ليتربى فيها "موران" ويبقى على علاقة ما بأمه التي هجرها "يوسي"، ويلقى "موران" صعوبات كثيرة في الاندماج والتقدم لأنه ابن حرام –حسب شرائع اليهود– ولهذا ظل يعاني ذلك الحرج العميق، وانعكس ذلك سلباً على تصرفاته إزاء أعداء شعبه ليذيقهم ألوان العذاب، فاختاره رؤساؤه ليقمع أهل جنين في العام ١٩٨٩م وقبل موت أمه تكتب في وصيتها أن "موران" ابن الوزير المرموق في حزب العمل، وتتفجر تلك القضية حتى تصل الصحافة الإسرائيلية التي التقطت الخبر ونشرته، فاستقال "موران" من عمله وذهب للاستيطان في مستعمرة على أرض قدرون، ويصبح رئيس حركة استيطانية متدينة يوغل في إيذاء الفلسطينيين المحتجين على إقامة تلك المستوطنة ويقتل شابين ويتم جرح خمسين، ولما رفع المجلس البلدي شكوى إلى المحكمة العليا الإسرائيلية –بحسب ما يسميها اليهود– "أصدرت هذه المحكمة قرارها بالقول إن قرار المصادرة شرعي لأن ذلك من شأنه حماية السكان المحليين، ولا أحد من هؤلاء المحليين يعرف بالضبط كيف يمكن أن تصادر أرضه لضمان أمنه"[٢].

هذا الأمر أدى إلى إيغال الكره والحقد في قلوب الفلسطينيين فقام الشبان المنتمين إلى الأجنحة المسلحة بالهجوم على المستوطنة وقتلوا ثلاثة من المستوطنين ومن ثم اشتبكوا مع جنود الاحتلال وأفراد أمن المستوطنة وبعد معركة استمرت ساعتين استشهد جميع الشبان وكانوا أربعة، ومن ثم تم هدم بيوتهم، هذه البيوت التي هُدمت بها أولاد صغار رأو أمام أعينهم هدم بيوتهم فماذا يُنتظر منهم، لقد زرع الاحتلال الحقد والكره في قلوبهم منذ نعومة أظافرهم، ويستخدم الكاتب تقنية الاستباق ليخبرنا عن مصير هؤلاء الأولاد يقول الراوي: "سيقرر الأولاد الذين نسفت بيوتهم الآن

---

[١] أحمد رفيق عوض: بلاد البحر ، ص٧١.

[٢] السابق : ص١٦٣.

الانضمام إلى الأجنحة المسلحة في الانتفاضة القادمة وسيستشهدون على أبواب مستوطنة أبهرون في ربيع ذلك العام"(١).

وأخذ موران يجمع التبرعات الهائلة من يهود الولايات المتحدة لمستوطنته التي اعتبرها مشروعه الشخصي، فقد لازمه شعور بالاغتراب نتيجة معرفته أنه ابن حرام، فأراد من خلال مشروعه أن ينتصر على الجميع، الذين أنكروه والذين احتقروه، ولم يكن هناك غير الحلقة الأضعف –الفلسطيني– لفقرهم وضعفهم، بحيث يمنع التميز والتفوق من خلال الاستقواء على الفلسطيني، ويقنع "موران" الحاخامات بافتتاح معهد ديني هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد جعل من المستوطنة مكاناً للجنس والدعارة تحت ظل الدين المزعوم.

لقد حرق المستوطنون قلوب أهالي قدرون وهم يرون زيتونهم في بطن الوادي ولم يعد بمقدورهم أن يقطفوه، ينظرون إلى حقول الرمان والخوخ واللوز والكرمة وهم لا يستطيعون الذهاب إليها فتصيبهم الحسرة والألم الشديد ولم يعد بمقدورهم أن يطلقوا قطعان أغنامهم لترعى فيها.
إن مجرد كارافان أو اثنين كفيل بسلب الأهالي كل شيء بكل بساطة.

ويصاب موران بلوثة دينية متطرفة في نهاية عمره حيث يروج بأن هناك نبوءة ميلاد المشيح في إحدى مستوطنات السامرة قد تحققت، وأنه قرب يوم الخلاص والحرية وانتصار شعب إسرائيل على أعدائه وأن مجد إسرائيل يقترب من ذروته، لكن الحاخامات بعد فحصهم للمولود يقرون بأن الوقت لم يحن بعد فالطفل ليس المشيح، ويفقد "موران" بصره في حادثة عندما حاول توسعة المستوطنة وهدم بعض البيوت، لم يستطع "موران" أن يعيش من دون عينيه مما يجعله يُقدم على الانتحار وهكذا تنتهي حياة "موران".

إن موران ثمرة علاقة محرمة، وهذا ما قد صعّب عليه الاندماج في المجتمع الإسرائيلي، وقد كان ذلك دافعاً لقمع الفلسطينيين وقتل أبنائهم دون أدنى رحمة، وقد بدا طرح الكاتب لشخصية موران طرحاً منطقياً، فهو ثمرة علاقة محرمة ومنبوذة في مجتمعه مما يشعره بالغربة والدونية فأسقط ذلك العجز والضعف على الحلقة الأضعف .

لقد جمعت شخصية موران العديد من الأدوار فهو يمثل ضابط التحقيق الذي يستخدم أشد ألوان العذاب، ويتفنن بل ويتلذذ في تعذيب الفلسطينيين مما يوحي بشخصية مريضة مأزومة عدوانية لأبعد الحدود ، تعالت وهي دونية حقيرة، التحق بالسلك العسكري في محاولة بائسة للتخلص من تلك العقدة "فضيحة أمه"، فهو يحاول من خلال الإيغال في الدم الفلسطيني أن يصل

(١) أحمد رفيق عوض: بلاد البحر ، ص١٦٦.

إلى درجة من درجات الرضا الذاتي هذا بالإضافة إلى أنه مستوطن مبتغاه إقامة مستوطنة مهما كان الثمن الذي يدفعه الفلسطيني من أرضه ودمه.

وقد استطاع الكاتب بمهارة فائقة أن يضعنا أمام شخصية جمعت في طياتها شخصية المحقق وممارساته التي لم تنته بتقاعده مما يدل على عمق الكره حيث تحول بعد تقاعده إلى استيطاني يغتصب الأرض ويسرقها، كما ووضعنا الكاتب أمام النهاية المتوقعة للمحتل من خلال شخصية موران حيث أصابه العمى ومن ثم ينتحر ليقول لنا أن هذا هو مصير المحتل وأن أرض فلسطين لن تكون سهلة المنال ولقمة سائغة للمحتل والمستوطن كما ويستبقي الكاتب في نهاية الرواية فراغات نفسية، تفتح الأفق لتحليلات المتلقي.

لم يقدم "أحمد رفيق عوض" الشخصية اليهودية إلّا على أنها سلبية فلم يقدم شخصية إسرائيلية إيجابية على الإطلاق وهذا يدل على عدم إيمان الكاتب بفكرة التعايش.

كما ونلمس في خطاب الكاتب ألماً ووجعاً يسري في البدن والروح لأن المستوطن كالسم يسري في جسد الفلسطيني، أفرغته حية نبتت في جسد الأمة ولم يتنبه لها ولغدرها فأتته على حين غرة أو سهوة منه.

ب- أبو ماهر و أبو علي
رواية (قدرون)

وقد برز دور ضابط المخابرات في روايات "أحمد رفيق عوض" بشكل واضح في رواية "قدرون" حيث يتبادل ضباط المخابرات الأدوار التمثيلية فيما بينهم على المعتقلين الفلسطينيين أثناء عملية التحقيق معهم .

يأتي ضابط المخابرات بلقب عربي " أبو ماهر" يؤنب الحارس سليمان الذي قام بضرب "زياد" ، مظهراً تعاطفه من خلال تعامله بأسلوب جيد مع زياد ويسأله ماذا يشرب، كما ويحاول أن يبين له بأنه يعلم بكل شيء يدور حوله "ضحك أبو ماهر أشعل سيجارة، قال: أنا أعرف أشياء كثيرة، أنا أعرف كل شيء تقريباً. أنا أعرف علي ابن عمك، وفارس صاحب بقالة الأمل، وأبا سليم سائق الشاحنة الحمراء..." [١].

---

[١] أحمد رفيق عوض: قدرون ، ص١٦٥.

كما يحاول أن يفتح حديثاً مع زياد من خلال الحوار والمناقشة يسأل ضابط المخابرات زياد: "أنا أحب منك يا زياد أن تعاونني في إنهاء الخلاف العائلي في قدرون، هل تحب هذا؟ نعم، أحب أن ينتهي الخلاف العائلي في قدرون"[١].

وسرعان ما يتحول هذا اللطف والحوار الهادئ إلى بركان يُصب على رأس زياد عندما يرفض التعاون مع "أبي ماهر"، ثم يأتي دور ضابط مخابرات آخر يدعى "أبو علي" مستخدماً أسلوباً جديداً مع زياد بل ، ويتهم أبا ماهر بأنه عصبي متسرع وقد أقصاه عن التحقيق، ويخبره بأنه ليس مثل أبي ماهر ويتودد إليه ليخبره عمن حرق بيت أحد أفراد حامولتك فيرفض "زياد " الاعتراف رغم أن ضابط المخابرات أراه اعتراف صديقه "زكي" الخطي .

كما ويحاول ضابط المخابرات نصب الخطط والمكائد للإيقاع بالشباب والشابات في وحل العمالة من خلال وسائل متعددة أبرزها الجنس كما فعل مع "علي" الذي وقع في حب "أوريت" وأصبح يمارس معها الجنس ويتعلق بها لدرجة أنها تطلب منه أن يتزوجها، ويكون ذلك بدافع من ضابط المخابرات "غابرئيل" ليسقط في حب "أوريت" ومن ثم لا يرفض له طلب، ويتقابل "علي"، مع "غابرئيل" و يطلب منه بأن يصبح سمساراً ليشتري له الأراضي من الفلسطينيين ومن ثم يبيعها له.

ويظهر لنا الخطاب الروائي شخصية "غابرئيل" على أنه "عليز" أي "لوطي" منذ صغره وهو متزوج من زميل رجل مثله، كما ويقوم ضابط المخابرات بعمل شبكات لعملائهم كما فعل "غابرئيل" مع "علي" حيث عرّفه على "أسعد حمودة" مختار قرية من قرى طولكرم وهو سمسار أراضي مثله، ثم يعرفه على "توفيق الساري" ليصبح علي وتوفيق شريكان في مكتب للعقارات.

كما ويعمل ضابط المخابرات على إيصال "توفيق الساري" لرئاسة البلدية ليطلع "عليّ" على مخططات الأراضي وأملاك الغائبين والأراضي الحكومية والأراضي الخاصة مما يسهل عمل "علي" لكن "توفيق الساري" معروف بعمالته لليهود أمام الناس لذلك لم يأخذ سوى صوتين في الانتخابات البلدية يقول عليّ: "غابرئيل مخطط جيد، كيف لم أفهم هذا من قبل؟ يريد غابرئيل توصيل توفيق إلى البلدية من ناحية ويجعلني وكيلاً لشركته من ناحية أخرى، يا لها من خطة محكمة"[٢].

كما ويحاول ضابط المخابرات تدريب عملائهم لكي يتمكنوا من تنفيذ بعض المهام التي توكل إليهم بنجاح فهم يدربون على استخدام الأسلحة كما وينظمونهم ضمن مجموعات، ويعطوا لكل عميل اسماً رمزياً غير اسمه الحقيقي.

---

[١] أحمد رفيق عوض: قدرون ، ص١٦٥.

[٢] السابق : ص٢٤٠.

وهذا ما حدث مع "توفيق الساري" حيث أخذه "غابرئيل" إلى مكان ما ويخبره بأنه يحتاج إلى تدريب "نعم... تدريب على السلاح... تدريب على جمع المعلومات... تدريب على خلق العلاقات الاجتماعية... وبعض المعلومات الفنية... هذا لا بد منه... إن هذا يجعل منك رجلاً يعتمد عليه... وستتلقى راتباً كبيراً... تململ توفيق في جلسته، أحس بشيء من الزهو... وحمل السلاح لأول مرة، وانتابه شعور غريب، أنه الآن قوي"[١].

٢- شخصية اليهودي المدني والمستوطن

موتي سليبرغ

يصور لنا الكاتب تلك الشخصية بشكل مختلف حيث جاءت على شكل طبيب اسمه "موتي سلبيرغ" وهو شاب في التاسعة والعشرين يعمل طبيباً في الوحدة العسكرية المتمركزة في مستوطنة (كوخاف يائير) التي أقيمت على جبل الطويل الذي يقع في رام الله والبيرة وبعد حوار قصير يدور بين هذا الطبيب وأبي الفداء الذي جاء في الرواية كطائر رخ يطوي البلاد والأحداث التاريخية، تظهر عدوانية "موتي" وعنصريته الغير مبررة حيث يصف "موتي" العرب بأنهم قساة ومتوحشون فيسأله أبو الفداء عن بيته من أين حصل عليه وكم ثمنه ومن أين يحصل على الكهرباء والماء؟، فيجيبه أنه من حكومة إسرائيل ثم يقول له أبو الفداء أنَّ بيتك المحمي بالدبابة يشكل خطراً وتهديداً على بيوت البيرة ويصور لنا الحوار التالي مدى الكره الذي وصل إليه الآخر "قال أبو الفداء:هل ترغب في تدمير رام الله والبيرة؟!

قال موتي: ولم لا، أنا أعيد للمنطقة ثقافتها...، ولكني للحقيقة لا أرغب في تدمير المدينة، أرغب فيها فارغة من أهلها.

قال أبو الفداء: ولماذا يا موتي؟!

قال موتي: أنا أكرههم كراهية عميقة...

قال أبو الفداء: فماذا تريد يا موتي؟!

قال هذا: يجب ابتكار يهودية جديدة.

قال أبو الفداء: وما هي هذه اليهودية الجديدة؟

قال موتي: ستعرفها في حينها أيها المؤرخ...

قال أبو الفداء: أنا أعرف هؤلاء المهووسين.

---

[١] أحمد رفيق عوض: قدرون ، ص٢٥٤.

قال موتي: أنا أعرفكم أيضاً، إنكم تكرهوننا لأننا الأفضل والأرقى والأنقى..." [١].

وتتصاعد وتيرة الحوار وتشتد لتوضح مدى الكره العميق الذي يحمله اليهود للفلسطينيين حتى الطبيب الذي يفترض الرحمة في قلبه يملأه الحقد والكره والسواد والعنصرية وعدم قبوله للتعايش مع الآخر –الفلسطيني–

"قال أبو الفداء:... ولكن ألا تعتقد أن أحمد بن مسعود هذا يحب هذه البلاد.. لأنها بلاده، قال موتي:... هل معه توراة تثبت صلته بها؟ قلت: لا، ليس معي توراة، قال: إذاً لا علاقة لك بهذه البلاد. قلت وكيف أحصل على التوراة هذه؟!، قال: هناك توراة واحدة، وهي معنا، نحن ميزة التاريخ ومعجزة السماء... قال موتي: أريدكم أن تختفوا عن وجهي، ارحلوا من هنا... اتركوا لنا هذه البلاد، واذهبوا للعيش في الصحراء"[٢].

هكذا بدت شخصية المثقف الإسرائيلي يرغب "موتي" في إبادة كل فلسطيني، حتى يطمئن على وجوده، ولقد أعطت شخصيته انطباعاً سلبياً عن طبيعة الفكر الصهيوني.

لقد استخدم اليهود كل الأساليب من أجل التوسع في عمليات الاستيطان بعد إقامة الدولة المزعومة عام ١٩٤٨م ؛ فاستخدموا سماسرة من العرب من أجل شراء الأراضي الفلسطينية، كما استخدموا الجنس ، واستخدموا القوة المفرطة ، وسنسرد بعض الأساليب من خلال القصص التي وردت في رواية (آخر القرن) .

٣- شخصية اليهودي المخادع

من الصفات القبيحة التي تأصلت في نفس اليهود، على مر الأيام المكر والخداع، وهذا ما برز واضحا في سلوكهم وفي حياتهم على اختلاف مراحلها، فاليهود قوم قد مارسوا كل فعل قبيح في حياتهم ، بل يستخدمون كل الوسائل من أجل الوصول لغاياتهم ، وأهدافهم وسأعرض بعض القصص التي تدلل على ذلك من روايات عوض .

- **قصة ماكس اليهودي :**

الذي بنى كوخاً فوق جبل العاصور قبل عام ١٩٦٧م، ثم بدأ يتقرب من الأهالي الطيبين حتى وثقوا به، ولزيادة هذه الثقة فقد أعلن إسلامه، ثم ساعد بعض الأهالي على نفقات الحج، وقيل أنه حج هو نفسه ذات مرة، ثم اختفى قبل حرب ٦٧، ليعود لسلواد على ظهر دبابة إسرائيلية، ثم عاد

---

[١] أحمد رفيق عوض: بلاد البحر ، ص١٠٠-١٠١-١٠٢-١٠٣.

[٢] السابق: ص١٠٣-١٠٤.

لجبل العاصور مرة أخرى، ولكن ليستوطنه هذه المرة . مواطنو القرية الذين أحسوا المرارة والخديعة استطاعوا هم أيضاً ذات مرة قتل ماكس. [١]

- **قصة السمكري :**

الذي قدم إلى قرية السنديانة عام ٣٦م فاحتضنه الحاج "مرشود" كبير القرية عموماً، ولم يخطر على بال أحد أن يكون السمكري الأسمر الأعور أحد أفراد "الهاجاناه" حيث قال للأهالي أنه من قبائل النور المرتحلة، وأنه ضل طريقه وأن قبيلته تركته لسبب ما.

والأهالي الكرماء السذج أكرموه وأسكنوه معهم ثلاث سنوات ، والتي شهدت أعنف ثورة مسلحة في فلسطين ، وقد لاحظ أهل القرية حدوث جرائم غامضة في السنديانا حيث تمت اغتيالات وتصفيات أدت إلى خلخلة كبيرة في الثورة ، وفي عام ١٩٤٨م دخل السمكري القرية على رأس قوة كبيرة من اليهود [٢].

*** قصة نتانيا:**

عرض سماسرة الأراضي من اليهود على فلاح فلسطيني غني يملك جميع أراضي نتانيا بيع أرضه لكنه رفض الفلسطيني، ثم ما كان منهم إلّا أن سلّطوا عليه النساء والكيف ... فاحتاج الرجل للنقود فباع قطعة من أرضه ولكنه أدمن النساء والكيف فدفعه لبيع المزيد إلى أن باع كل ما يملك حتى تحول إلى مجنون يهذي في شوارع طولكرم. [٣]

٤- شخصية اليهودي المهاجر

بلاد البحر

أ- المهاجر الأثيوبي

من أكثر الشواهد على عدم تجانس ما يسمَّى بالشخصية اليهودية يهود الفلاشاه ،وهم يهود أثيوبيا الذين يصنفون ضمن اليهود تجاوزاً، فبعض علماء الأنثروبولوجيا الغربيين يصنفونهم "مسيحيين دخلت عليهم عناصر يهودية"... وقد تسبب وصول الفلاشاه إلى إسرائيل في تقويض

---

[١] أحمد رفيق عوض : آخر القرن ، ص٢١٦.

[٢] أحمد رفيق عوض : آخر القرن ، ص٢١٧.

[٣] السابق : ص ١٤٣ - ١٤٤.

مقولة الشعب اليهودي الواحد إلى حد كبير ولتتخيل يهودياً أمريكياً أشقر يقف بجوار يهودي من الفلاشاه أسود البشرة فهل سيقتنع الاثنان بأنهما ينتميان إلى شعب واحد، خاصة وأن الأشكناز لم يرحبوا بالفلاشاه، وقد رفضت الحاخامات أن تعترف بهم يهوداً وطلبت أن يعاد تختينهم وأن يأخذوا حماماً طقوسياً لتطهيرهم، ولكن الرفض كان لأسباب عرقية حيث رفضت مدينة إيلات تزويدهم بالماء والكهرباء ورفضت مدن أخرى مجرد توطينهم، بالإضافة إلى أن بنك الدم الإسرائيلي تخلص من مخزون الدم الذي تبرع به يهود الفلاشاه[١].

هذه هي الصورة الواقعية عن العنصرية الموجودة لدى اليهود نجدها تتجلى في الخطاب الروائي عند "أحمد رفيق عوض" حيث يصف لنا الخطاب كذب وزيف نظرية التجانس اليهودي من خلال مهاجر أثيوبي جاء إلى إسرائيل خلال موجة الهجرة العام ١٩٨١م فيما عرف بعملية "موسى" حيث كان عمره ثمانية عشر عاماً، وعندما وصل إسرائيل أُلقي به في أحد مراكز الاستيعاب حيث أدخلوه دورات تعليمية سريعة ومكثفة لينسى كل شيء، وقالوا له إنّ هذه البلاد بلادك، أسكنوه في إحدى القرى الزراعية جنوب بئر السبع "ولكن اليهود الآخرين، البيض والأغنياء، عاملوه بجفاء وتوجس، ولما انضم إلى الجيش لم يتحسن الوضع كثيراً، وعندما أراد أن يتزوج اضطر أن يتزوج أثيوبية فقيرة مثله... حصل بمشقة على منزل خشبي متواضع في حي فقير من أحياء الرملة"[٢].

وبدأ يشعر هذا الأثيوبي بالدونية من خلال شعوره بالعنصرية بينه وبين أبناء شعبه فانعكس ذلك سلباً في تصرفاته على من هم أدنى منه منزله –حسب وجهة نظره– وهم الفلسطينيون لذلك كرههم واستعلى عليهم حتى وهو يشتري منهم ما يريد.

لقد عاش الأثيوبي حياة فقر وبؤس ، وقد تعامل معه اليهود كأنه جرثومة فتعالوا عليه وقبلَ الأثيوبي ذلك الوضع المهين والمشين ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وصل إلى حد السكوت على انتهاك عرضه وشرفه أمام ناظريه؛ فلمّا رأى زوجته في أحضان رجلٍ أبيض لم يحرك ساكناً لكنه سأل ذلك الرجل هل أنت يهودي؟ ويجيبه الرجل بنعم فيقول الأثيوبي: "من حق اليهود أن يفعلوا كل شيء حتى مضاجعة زوجاتنا!!" [٣].

والمفارقة العجيبة أن ذلك أغرقه في كراهيته لجيرانه العرب فأوغل في عدائهم ، ويدفع بأولاده للالتحاق بالجيش ليعرب عن انتمائه لدولته، وليؤكد لهم أنه منتمي لبلده مثلهم، كما ويتم

---

[١] عبد الوهاب محمد المسيري: التجانس اليهودي والشخصية اليهودية، منتديات الوحدة العربية، ص٥٣.

[٢] أحمد رفيق عوض : بلاد البحر، ص١٦٧.

[٣] السابق : ص١٦٨.

استدعاءه للخدمة لأنه في جيش الاحتياط وعندها يشعر أن الفرصة قد أتت ليثبت لليهود مدى حبه وانتمائه لدولة إسرائيل والفلسطيني من يدفع الثمن .

"سلموه جرافة ضخمة وسلموه مخيم جنين، وقالوا له: اهدم هذا الجزء من المخيم، أخذ يهدم البيوت وكأنها علب من الكرتون، فعل ذلك بانتشاء شديد، كأن يشعر أنه يقوم بعمل خطير ومهم، وأنه يتخلص من إحساسه القديم... كانت كرايته للعرب جزءاً من كراهيته للونه واختلافه عن اليهود الآخرين"(١).

لقد أراد الأثيوبي أن يثبت لليهود أنه مثلهم لا يختلف عنهم فهو يهودي يكره العرب ويحقد عليهم وكأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يوحد اليهود ويتفقون عليه في ظل خلافاتهم الشديدة على كل شيء.

إنها المفارقة بحق عندما يُطلب من الضحية –الفلسطيني– أن يشفي أمراض الجلاد، فجلادنا يعتبر نفسه ضحية تاريخية معذب على مدى التاريخ ؛ فالفلسطيني هو الضحية الذي يُرفض حتى مجرد القبول أن يمارِس دور الضحية ويصورها الآخر على أنها الجلاد.

لقد كان الأثيوبي يهدم بيوت اللاجئين في مخيم جنين سعيداً ومرحاً بل وكان يردد الأغاني وكان يتلذذ بهرس الحيطان والأثاث وعظام الناس "ولما تحدث إلى صحيفة إسرائيلية ما، أعرب عن سعادته البالغة وعدم ندمه، وبدا منشرحاً مرتاح الضمير نقي السريرة"(٢).

ب-(يوسي يونا)

وهو يهودي يمني كان اسمه حمامة من عائلة صنعاني اليمنية، هاجر إلى فلسطين مبهوراً بالدعوة الصهيونية في الخمسينيات مع زوجته وأولاده الأربعة، ويتعرض للذل والإهانة بسبب بشرته السمراء، واختفى له طفلان ومن ثم نقل إلى "المسمية" الفلسطينية في موشاف(٣) صغير وهناك يقوم بتغيير اسمه إلى "يانون" ويتسلم يوسي مسئولية إدارة مئة دونم من الأرض الخصبة التابعة للحكومة ويعمل أجيراً بها خاضعاً لتعليمات سكرتارية الموشاف(٤).

ويظهر لنا الخطاب الروائي العنصرية الموجودة بين اليهود أنفسهم فحزب "الأشكناز" حزب مباي هو الذي أقام "الدولة" يشعر بأنه أفضل من اليهود اليمنيين، وهذا ما شعر به اليمنيون الذين

---

(١) أحمد رفيق عوض : بلاد البحر، ص١٦٩.

(٢) السابق: ص١٦٨.

(٣) الموشاف : كلمة عبرية تعني القرية الزراعية.

(٤) أحمد رفيق عوض : بلاد البحر، ص٧٠.

أداروا ألاف الدونمات الزراعية وقد شعروا بالإهانة والإذلال أمام حزب "الأشكناز" ولذلك طلب من اليمنيين أن يحاكوا عادات وتقاليد "الأشكناز"، وقد سلمت زوجة يوسي نفسها لكل "أشكنازي"، ولم يستطلع زوجها "يوسي" أن يفعل شيء، لأن الحكم للأشكناز، و "الأشكناز" لا يغارون على نسائهم[١].

وتلد "عدنه" زوجة "يوسي" طفلاً أحمر الجلد أشقر الشعر، مما جعل "يوسي" يعلن أن هذا الطفل ليس ابنه، وتعترف الزوجة أمام الحاخام بالزنا عندما سألها فردت ضاحكة بأن الكل يفعل فعلها فلها الحرية الكاملة في ممارسة ما يحلو لها ويستفسر الحاخام عن والد الطفل فتقول أنها اضطجعت مع كثيرين وهي لا تعرف والده بالضبط.

بعد ذلك يقرر "يوسي" أن يطلّق زوجته لاعترافها بالزنا، لكن مسؤول حزب مباي في المنطقة هدده بأنه سيخسر الدونمات المئة التي تطعمه وأنه لن يجد وظيفة في الدولة ولا حتى وظيفة زبال "كان مسؤول الحزب أشكنازياً أحمر الجلد أشقر الشعر يشبه المولود الذي أتت به زوجته، كان يتحدث ببرود وعدم اكتراث وكأنه يتحدث عن بغل أو عن حالة الجو، فاستشاط يوسي غضباً، وقال إنه لن يطلق زوجته ولكنه لن يربي الطفل"[٢].

ويأخذ مسئول الحزب الطفل ليتربى في مؤسسة داخلية للدولة تابعة للأشكناز ،وقبل انتحار الزوجة "عدنه" تعترف أن مسؤول الحزب الأشكنازي هو والد الطفل .

لقد كان للأشكناز سطوة على المهاجرين اليهود فهم يؤمنون لهم مكاناً للعمل كعمال ومكاناً للسكن فبالتالي يخضع المهاجرون لأوامرهم وتعليماتهم حتى لو كانت على حساب كرامتهم وشرفهم، كما أن الأشكناز يعملون على تعبئة المهاجرين بالحقد والكراهية نحو العرب الفلسطينيين، ويحاول "يوسي" أن يظهر انتمائه للدولة من خلال دفعه بابنيه إلى الجيش حيث تقدما في المناصب، فصار الأول قائد وحدة دبابات والثاني ضابط تحقيق في "الشين بيت" بالخليل، لكن موران لقي صعوبة في الاندماج بالمجتمع لأنه ابن زنا ورغم ذلك فقد عمل في المخابرات وصبّ جام غضبه على الفلسطينيين حيث أراد بذلك أن يثبت للجميع أنه مثلهم ينتمي لدولته .

ويفاجئ "يوسي" الجميع بانضمامه للتمرد الذي قاده الحاخام اليمني "مشولام" الذي يطالب الحكومة بكشف الملابسات عن خطف أكثر من خمسمئة طفل يمني من بينهم ابني "يوسي"،

---

[١] أحمد رفيق عوض : بلاد البحر، ص٧١.

[٢] السابق : ص٧١.

وينتهي التمرد بالقوة ولم يكشف النقاب عن مصيرهم ويعاقب "يوسي" بخسران الدونمات المئة ويتم اعتقاله في حداريم مع المعتقلين الفلسطينيين .

يتضح مما سبق أن ثمة عنصرية واضحة بين اليهود أنفسهم حيث يشعر "الاشكناز" بالتعالي على الجميع لأنهم هم من أسس الدولة لذلك يجب أن يفكر الجميع مثلهم حتى في عاداتهم وتقاليدهم وهذا ما دفع "يوسي" إلى محاولة الاندماج معهم مضحياً بكرامته وشرفه حتى يحافظ على الدونمات المئة، كما ويحاول أن يظهر لهم أنه صهيوني أكثر منهم بدفعه لأبناءه إلى دخول الجيش، لكن العقلية الصهيونية التي تعتقد بالتفوق على الجميع مستمدة ذلك من قناعتهم بأنهم اختيار إلهي ومن فهمهم العنصري ينطلقون نحو إزدراء الجميع فهم شعب الله المختار والجميع وجد لخدمتهم والسعي على راحتهم.

لقد قام "أحمد رفيق عوض" برسم شخصية اليهودي المهاجر الذي يشعر بالضعف والذل والمهانة من خلال بشرته السمراء ومن خلال كونه مهاجراً جاء ليعمل مزارعاً تحت مسئولية الأشكناز وبذلك يكون "أحمد رفيق عوض" قد خرج عن الصورة النمطية التي رسمتها الرواية العربية والرواية الفلسطينية في المنفى "فالتفحص الدقيق للروايات العربية عامة والرواية الفلسطينية في المنفى خاصة التي عرضت صورة الآخر –اليهودي- وقدمتها ، يثبت أن تلك النماذج (اليهودية) التي عرضتها تلك الروايات ظلت أسيرة لتلك الصورة النمطية التي وجدناها في الرواية العربية قبل نكبة ١٩٤٨ حيث غلبت على هذه الراوية نعوت اليهود بعباد المال، وتسخيرهم نسائهم للوصول إلى أهدافهم واتهامهم بقتل المسيح ونعتهم بصفتي الذل والكفر الدائمين، وهكذا امتلأت الرواية العربية بمفردات مكررة تنعت اليهود بأنهم لصوص وقتلة وسفاحون وكلاب[١].

ولعل هذه الصورة المرسومة في تلك الروايات مستوحاة من الرواية الغربية بشكل عام، ويعد غسان كنفاني من الكتاب الذين حاولوا تقديم شخصية يهودية غير نمطية بعد (٦٧) في روايته "عائد إلى حيفا" لكن شخصياته لم تكن مقنعة نامية بل عبرت عن أفكار مسبقة وكانت أطراف في حوار مقصود ولم تكن شخصيات من صميم الحياة وإفرازاتها[٢].

---

[١] عادل الأسطة: اليهود في الأدب الفلسطيني –اتحاد الكتاب الفلسطينيين- ط ١٩٩٢ ، ص ٦٩-٧٢.

[٢] علي محمد عودة: دراسة في الرواية الفلسطينية، مكتبة جزيرة الورد، الجامعة الاسلامية –المكتبة- قسم الفلسطينيات، ص٧٤ .

لكن "أحمد عوض" قد أفلت من حالة التصور هذه من خلال تجربته الشخصية والاحتكاك بالآخر –اليهودي– فجاءت شخصياته ملموسة ومقنعة حيث قدم نماذج لمعظم شرائح المجتمع اليهودي تقريباً، فوجدنا شخصية ضابط المخابرات، والجندي، والمرابي، واليهودي المهاجر والعامل المغلوب على أمره، والمقاول، واليهودي الماكر الذي يلبس ثياب الديمقراطية ووجدنا شخصية العاهرة المتعالية على العرب والتي تجد نفسها أفضل من كل العرب ...

لقد قدمت روايات أحمد رفيق عوض هذه النماذج اليهودية وغيرها والتي تضع نصب أعينها هدفاً واحداً فمرماها وهدفها هو تعرية الآخر –اليهودي– أمام الفلسطيني خاصة وأمام العالم العربي والغربي بصفة عامة، من هنا فإن روايات "أحمد رفيق عوض" تستحق أن نعطيها قدراً أكبر من الاهتمام كما وتستحق من الدارسين اهتماماً أكبر فمعرفتنا بشخصية الآخر تزودنا بمعرفة جديدة للذات حيث توضح لنا مثالب قصورنا خصوصاً إذا جاءت على لسان روائي عاصرهم من خلال عمله في الأراضي المحتلة (٤٨) في عدة أعمال مما سهل له الاحتكاك بالآخر والتعرف عليه عن قرب.

٥- شخصية المرأة العاهرة

رواية بلاد البحر

جاءت شخصية المرأة العاهرة في رواية بلاد البحر في اتجاه واحد وهو العاهرة التي تمارس العهر من أجل المتعة الجنسية لا غير، وهي امرأة أثيوبية جاءت على إسرائيل خلال موجة الهجرة عام ١٩٨١م، ويتزوجها رجل أثيوبي فقير مثلها، يدخل على زوجته ويضبطها مع أحد موزعي الحشيش اليهود ولكن الزوج لم يحرك ساكناً خصوصاً عندما يعلم أنه يهودي ؛ فهو يعلم أن من حق اليهود فعل كل شيء.

ويحدث نفس الشيء مع زوجة "يوسي يونا" وهو يمني هاجر لإسرائيل في بداية الخمسينيات مع زوجته وأولاده، تتعرف زوجته على أشكنازي –وكان طالباً– جُنِّد حديثاً وطُلب إليه أن يقضي خدمته العسكرية في موشاف "يانون" ليدرس أبناء اليمنيين العربية والتاريخ، وتفتن الزوجة به وتمارس معه الجنس ثم أخذت تمارس الجنس مع كل أشكنازي يصل الموشاف، حتى عرف ذلك كل يمني سكن في الموشاف. والعجيب أن زوجها لم يستطع أن يحرك ساكناً، فالحكم للأشكناز، فسلّم زوجها للأمر الواقع.

ومن خلال هاتين الشخصيتين يظهر لنا الجانب الاستعلائي لدى اليهود المؤسسين لدولة الكيان حيث يرون أن هؤلاء اليهود المهاجرين ليسوا يهوداً أصليين وينظرون إليهم نظرة دونية لذلك فقد استحلوا نساءهم، ولم يستطع أزواجهنّ أن يحركوا ساكناً أمام أصحاب القوة ، والنفوذ من مؤسسي الدولة .

ومن الملاحظ أن "المجتمع ينظر إليهم بعين الشك بسبب لون جلدهم وتوجههم الثقافي بل ومعتقداتهم الدينية، وقد شككت دار الحاخامية في يهوديتهم في بادئ الأمر... ولم يكن الاعتراف بهم كاملاً، فيهوديتهم حسب التصور الديني ناقصة، ولذا طلب منهم عند وصولهم أن يعاد تختينهم وأن يأخذوا حماماً طقوسياً لتطهيرهم"[١].

وقد لاحظ الفلاشاه المشكوك في يهوديتهم من قِبَل المجتمع الإسرائيلي عدم حرص المجتمع الإسرائيلي العلماني على الشعائر اليهودية حتى أنهم لا يلتزمون بشعائر السبت[٢].

لقد كان رفض المجتمع الإسرائيلي ليهود اليمن ويهود أثيوبيا من منطلق عرقي، وهذا ما أكد عليه الخطاب الروائي في رواية "بلاد البحر" فالمهاجر الأثيوبي واليمني صمتاً أمام جريمة ممارسة زوجاتهما الزنا على مرأى ومسمع منهما لأن الزاني هو اليهودي المؤسس وهما عبارة عن حثالة وعمال دونيين جاءوا لخدمة شعب الله المختار

ولا نعجب عندما نعلم ذلك فقد "رفضت مدينة إيلات تزويد المستوطنين الفلاش بالماء والكهرباء كما رفض المجلس المحلي لمستوطنة يروحام إدخال الفلاشا إليها. وفي صفد تظاهر السكان ضد إعطاء المهاجرين من إثيوبيا بيوتاً، كما هدد أولياء أمور الطلاب في المدارس الدينية بالامتناع عن إرسال أطفالهم إليها إذا استمر أطفال الفلاشا معهم، وشكا رئيس بلدية عكا ونهاريا من توطين الفلاشا في بلديتهما بحجة أن هذه مدن اصطياد سياحية ووجود الفلاشا لا يساعد كثيراً على اجتذاب السياح، بل يخلق التوتر ويزيد تفاقم ظاهرة العنصرية في المدينة"[٣].

رواية آخر القرن

هناك اتجاهين آخرين جاءا في رواية " آخر القرن " و " قدرون " بخلاف ما جاءت عليه صورة العاهرة في رواية " بلاد البحر "

---

[١] عبد الوهاب محمد المسيري : التجانس اليهودي والشخصية اليهودية، ص٦٠٣.

[٢] السابق: ص٦٠.

[٣] عبد الوهاب محمد المسيري : التجانس اليهودي والشخصية اليهودية، ص٦٠.

فالاتجاه الأول : جاء في رواية " آخر القرن " و يمثله تلك العاهرات اللاتي يتقاضين أجراً مقابل تلك الممارسة الحيوانية التي تثير الاشمئزاز ، يذهب "علي" وصديقه المتمرس في الذهاب للعاهرات لمستوطنة الاستجمام "مخمورت" وتبدأ عملية المفاوضات على الأسعار ويصف لنا "علي" الموقف قائلاً:

"مد الزميل يده إلى إحداهن وقال: كم؟ ضربته على يده وقالت رقماً، كان ذلك أكبر من الأجرة اليومية بكثير جداً، صاح الزميل؟ في حيفا أرخص بكثير، صرخت تلك بوحشية: اذهب... في حيفا"(١).

ويحتد الحوار بين صديق "علي" وبين إحدى العاهرات فما كان منها إلّا أن شتمت العرب بكل أنواع السفالات والقذارات فيتدخل عليّ متسائلاً " وما دخل العرب في هذا؟ حدقت فيه كأنها تراه لأول مرة: أغرب عن وجهي، لا ينقصني عربي قذر آخر"(٢).

هكذا أظهر الخطاب الروائي شخصية المرأة العاهرة تقبل أن تبيع نفسها لكل من هب ودب دون أن تسأل عن اسمه، هذا جزء من المجتمع اليهودي تحوّل إلى مجرد قطيع من البهائم، والمفارقة العجيبة أن النظرة الاستعلائية لدى اليهود تجاه العرب موجودة حتى عند العاهرة اليهودية والتي تشعر أنها أحسن من كل العرب وتصفهم بأقذر الصفات.

رواية قدرون

والاتجاه الثاني : وهو الأشد خطورة من سابقيه على الفلسطينيين ، وقد جاء في رواية "قدرون" تمثله "أوريت" وهي عاهرة أخرى تعمل في بار، وهي من عائلة يهودية يمنية هاجر أهلها إلى فلسطين تلتقي " أوريت بـ"عليّ" ويتعلق بها ويحبها ويشعر أنه لا يستطيع الاستغناء عنها حتى أنها تطلب منه الزواج منها، وبعد أن تشعر " أوريت " بأن " علي" قد تعلق بها وأحبها لدرجة أنه يمكن أن ينفذ لها كل ما تطلبه تقوم بتعريف "علي" على " غبرائيل " بصفته صديق لها ، ويطلب غبرائيل الذي يعمل في المخابرات الإسرائيلية من "علي" أن يعمل سمساراً لحسابه فيشتري له الأراضي من الفلسطينيين لأن الفلسطينيين لا يبيعون أرضهم لليهود .

وبذلك يتضح دور "أوريت" لنا جلياً فقد أسقطت "علي" في وحل العمالة من خلال علاقة الحب التي نسجتها معه بحيث إنه لا يستطيع أن يرفض لها طلب، علماً بأن هذا هو الأسلوب السائد لعمليات إسقاط الفلسطينيين أي "الجنس".

---

(١) أحمد رفيق عوض : قدرون، ص٦٧.

(٢) السابق: ص٦٨.

تبدو صورة المرأة في روايات الكاتب شاذة ولا أخلاقية تسعى وراء الجنس والشهوة سواء أكانت من أصول شرقية أو غربية مثقفة أو غير مثقفة ،وقد استوحى الكاتب شخصية العاهرة الإسرائيلية من خلال الواقع الإسرائيلي ،ومن خلال احتكاكه بالآخر –اليهودي– ولقد كان حضور دور العاهرة في الرواية بسيطاً فلم يتعد صفحات قليلة لكنه كان له دورٌ كبيرٌ وبارزٌ في النسيج العام للرواية، ولخص لنا ماهية المجتمع اليهودي القائم على الرذيلة والجنس وهو السلاح الذي يسقطون به العملاء.

٦- شخصية المفاوض الإسرائيلي

رواية آخر القرن

تظهر شخصية المفاوض الإسرائيلي من خلال رواية "آخر القرن" على أنه قوي واثق من نفسه حاضر الذهن والبديهة وهو "حاييم شلومو" صاحب العطر الخفيف ووالد عوفر عبقري الكمبيوتر، شخصية "حاييم" بصفاتها الخارجية وأدائها أمام المفاوض الفلسطيني تقربنا من مشاعر الإحباط والهزيمة واللا جدوى، كما وتعرينا أمام أنفسنا وتضعنا أمام ضعف شديد بالمقارنة مع المفاوض الإسرائيلي.

ينظر "حاييم شلومو" إلى أن اليهود هم مشكلة التاريخ وبالتالي مشكلة البشرية أجمع، وأن العرب ليسوا إلّا من مخلفات القرون الوسطى، حيث كان الوهم أقوى من العلم ويضيف "حاييم": "إن ما أؤمن به من التاريخ هو مجرد أكاذيب لأنه قائم على التمني فقط"[١].

يدخل حاييم إلى مكان اللقاء التفاوضي تفوح منه رائحة العطر الخفيف لتعلن عن قوته وحضوره فقد بدا قوياً ومسيطراً في الغرفة الصامتة خصوصاً وأن طاقمه يتكون من شخصين أحدهما من وزارة الخارجية والآخر من وزارة الدفاع، بينما المفاوض الفلسطيني معه "حسين فالح" من المركز الفلسطيني لشئون اللاجئين.

ويبدأ حاييم حوارهُ مع "محمود السلوادي" مستحضراً انتصاراتهم التي دائماً تحدث في شهر حزيران "استطرد قائلاً إنه يحب هذا الشهر جداً، فقال محمود السلوادي بصوت متجهم: إنه شهر انتصاركم على العرب.. ضحك حاييم وقال وهو يتحرك على كرسيه: نحن ننتصر دائماً.. ألا تعتقد ذلك؟"[٢].

---

[١] أحمد رفيق عوض : آخر القرن، ص٩.

[٢] السابق : ص١٥.

لكن حاييم يشعر أن محمود مستفز فبادره بالقول ولكنكم انتصرتم أيضاً من خلال اتفاق أوسلو.

لقد بدت شخصية حاييم مسيطرة على مجريات الأحداث فهو المفاوض المنتصر الذي يملي شروطه على الآخرين، كما تميز المفاوض الإسرائيلي بتزوده بتقارير مفصلة عن خصمه المفاوض الفلسطيني؛ زوده بها جهاز "الشين بيت" منذ أن بدأت سلسلة المفاوضات ، وهذا يعطيه قوة إلى قوته.

وبعد قراءة "حاييم" للتقرير يرفع رأسه عن الورق بكل كبر وعنجهية وسأل محمود فجأة "لماذا تخفي علي أنك تعرف العبرية؟! رد محمود بسرعة وبدون تفكير: أنا أفاوضك، ولست صديقك"[١].

إن المفاوض الإسرائيلي يفاوض وهو يعلم أن العالم تحت إمرة الولايات المتحدة التي تتحكم في مصائر الشعوب، لذلك قابل حاييم محمود بكل تعنت بخصوص قضية اللاجئين ورفض عودتهم رفضاً قاطعاً.

كما ويصف لنا الخطاب الروائي المفاوض الإسرائيلي بأن النقاش معه بلا فائدة وبلا هدف فهو مفاوض محترف يفرغ المحادثات من معناها ومبناها كما ويركز على القضايا الهامشية كمكان انعقاد المحادثات وشكل المائدة، واللغة المستعملة، وباقي البروتوكول المعمول به، وقد يتم التركيز على مسألة جوهرية قبل المسائل الثانوية المتعلقة بها والمؤدية إليها مما يوجب العودة إليها مرة أخرى.[٢]

إن المفاوض الإسرائيلي ماهر جداً في إدارة مفاوضاته حيث إنه يختار الشكل الأنسب لطرح قضاياه التي يود ربحها، كما أنه يجعل من الحقائق أوهاماً وأن الحقيقة لا تمتلك وجهاً واحداً، وهو يؤمن أن فلسطين كانت أرضاً بلا شعب وأن هذه الأرض أعطيت لليهود بوعد إلهي.

وبعد هذا العرض لشخصية اليهودي يتضح لنا أنّ الطابع العام لهذه الشخصية بكافة النماذج السابقة الذكر هو الطابع العدواني والاستعلائي لاعتقادهم بالتفوق المستمر المستمد من فهم الاختيار الإلهي والفهم العرقي العنصري [٣].

ومن هنا كان العنف والقتل والاستعلاء هو ديدن اليهود ، وهو الوسيلة الوحيدة التي تحرر اليهودي من نفسه المريضة ؛ فكان لزاماً عليه تبني نفس نهج دولته الإرهابي وكلما أوغل في كره

---

(١) أحمد رفيق عوض : آخر القرن، ص٣٩.

(٢) السابق : ص٦٨.

(٣) محمد خليفة حسن : الشخصية الإسرائيلية ، سلسلة الدراسات الدينية ، جامعة القاهرة ، العدد ٢ ، ص٧٥.

الفلسطيني كلما كان منتمياً لدولته ويظهر هذا السلوك خصوصاً عند اليهود المهاجرين لكي يثبتوا لمؤسسي الدولة من "الأشكناز" صدق ولائهم وانتمائهم ؛ فيمعنون في إيذاء الفلسطينيين ، وبذلك يصبح جديراً بالانضمام إلى مجموعة من الإرهابيين تسمي نفسها بالدولة الديمقراطية وهي تمارس كل أنواع الإرهاب ، وقد كانت هذه الشخصية حاضرة في روايات "أحمد رفيق عوض " بأبعادها السلبية المدمرة ، وقد كان لعمل الكاتب مع اليهود في الأراضي المحتلة واحتكاكه بهم ، وإتقانه للغة العبرية دورٌ بارزٌ في معرفته للشخصية الإسرائيلية بشكل دقيق ومباشر ؛ فقد وضّح شخصية اليهودي عن قرب ودون مبالغة أو تعسف أو تجني كما أنه لم يبد تحيزاً لأحد على حساب الآخر ؛فأظهر الفلسطيني دون تضخيم أو تمجيد للذات الفلسطينية ؛ فأظهر الفلسطيني النفعي والمهزوم والخائن والعميل وسمسار الأراضي ....، وهو بذلك يختلف عمن تحدثوا قبله عن اليهود دون الاحتكاك المباشر بهم فتفوق عليهم وتميز بدقته وموضوعيته ،وقد استقى لنا تلك النماذج كما رأينا من واقعنا اليومي ، فلا تكاد تجد فلسطينياً إلا وقد تعرض لنوع من أنواع الإرهاب الصهيوني من قتل أو سجن أو التعرض للإصابة أو هدم للبيوت أو مصادرة للأراضي أو بناء الجدار العنصري الفاصل؛ فالصغير والكبير والطفل والرضيع من أبناء الشعب الفلسطيني يعرف تلك النماذج جيداً لأنها من واقعنا ومن صميم حياتنا اليومية فهي تحدث معنا بشكل يومي ؛ فأصبحت مثل طعامنا وشرابنا اليومي .

لقد تناول الكاتب تجربة الشعب الفلسطيني القاسية والثرية من خلال الرواية وهي الشكل الأنسب لما لها من قدرة كبيرة على التعبير عن معاناة الشعب الفلسطيني المحتل من خلال التوغل في النفس البشرية من أجل البحث عن أحلامها ورغباتها وكوابيسها ولإبراز الصراع مع المحتل الصهيوني ، وما رافقه من مذابح وتشريد وسجن وإبعاد وقتل وتسجيل بطولات الشعب الفلسطيني في مواجهة الغطرسة الصهيونية .

الخاتمة

تعرضت الروايات موضوع الدراسة إلى عدة قضايا مهمة ؛ فقد تعرضت رواية (عكا والملوك) لمرحلة حرجة في التاريخ الإسلامي ، وهي هزيمة القائد "صلاح الدين" محاولاً أن يبين أسباب تلك الهزيمة ليربط بين هزيمة اليوم ، وهزيمة الأمس ، ورواية (القرمطي) تعرضت لقضية فساد الحكم المتمثل في الخليفة "المقتدر" والذي يؤدي إلى الهزيمة ، وإلى خروج شخصيات فاسدة مثل شخصية "أبي طاهر القرمطي" الذي عاث الفساد في الأرض بسبب ضعف وفساد الخليفة ليقول لنا أن فساد الحاكم يترتب عليه الهزيمة النكراء.

كما تعرضت باقي الروايات إلى مظاهر الحياة الفلسطينية، وما مر بها من أحداث ومآسي وقد ركزت على هزيمتي الـ (٤٨) والـ (٦٧) ، والتي كان لها الأثر الكبير ، والدور الأبرز في تشكُّل الشخصية الفلسطينية ، وتشتت الشعب الفلسطيني . كما وطغت فكرة الهزيمة المترتبة على فساد المجتمع، وصورت تلك الروايات مظاهر الحياة الفلسطينية بإيجابياتها وسلبياتها ؛ فأظهرت قضية العمال الفلسطينيين ، وبيّنت معاناتهم الشديدة من أجل لقمة العيش ، وتعرضهم للذل والمهانة حتى أصبحوا يعملون كالعبيد في أي عمل يطلب منهم حتى وصل الأمر في بعضهم أن عمل في المستوطنات التي يتفاوض على وجودها المفاوض الفلسطيني لتشكل لنا مفارقة من مفارقات كثيرة يعيشها الشعب الفلسطيني .

كما وتعرضت لقضية الكفاح المسلح ، وأظهرت تبني لتلك الفكرة من خلال الطلاب والمثقفين لقتل العملاء يد المحتل الأولى ، وهي بمثابة الطريق لتحرير أرض فلسطين وتسيير المظاهرات المعارضة للاحتلال.

وتعرضت الروايات لظاهرة العملاء وبينت مدى خطورتهم على القضية الفلسطينية ، وأوضحت طرق علاج تلك الظاهرة من خلال قتل العملاء كما حدث مع شخصية علي الذي قتله أبناء عمه.

وأعتقد أن قضية العملاء قد أخذت حقها في الخطاب الروائي لدى عوض . أما المرأة العميلة فلم يكن هناك ثمة حضور لها على الإطلاق رغم وجودها على أرض الواقع ، ولم يتطرق الخطاب الروائي للحديث عنها . رغم أنّ الكاتب قد أظهرت دور المرأة في النضال الوطني متمثلاً في خروجها للمظاهرات ومشاركتها فيها واستشهاد بعض الطالبات قياساً بالرجال، لكن هذا النضال جاء على شكل هبّات جماهيرية في معظم الأحيان استثناءً بمشاركة "لبنى" أخيها زياد في قتل ابن عمها عليّ.

كما وبينت الرواية دور أطفال الانتفاضة الذين قتلوا وجرحوا جنود الاحتلال وجاء ذلك كردة فعل من الأطفال الذين هُدمت بيوتهم من قبل الاحتلال.

أما بالنسبة للشخصية اليهودية ؛ فقد طغى الوجه العسكري على الشخصية اليهودية ؛ فظهرت شخصية الجندي ، والمستوطن ، وضابط المخابرات، والمهاجر المدني، وقد قدم عوض شخصية اليهودي على أنها شخصية سلبية مستبدة متعالية على الفلسطيني حتى العاهرة اليهودية تجد نفسها أعلى من الفلسطيني الذي جاء لكي يزني بها.

كما وبينت الرواية شخصية المفاوض الإسرائيلي مظهرة تعنته وتعاليه على المفاوض الفلسطيني ، وبينت تفوقاً واضحاً للمفاوض الإسرائيلي من حيث الحضور ووفرة المعلومات .

أما المرأة اليهودية فقد قدمها الكاتب من منظور جنسي فقط ؛ فهي لا تتورع عن مضاجعة العربي مقابل مبلغ من المال، وهي تتعالى عليه ، وتنعته بأرذل الصفات لشعورها بدونيته رغم أنّ وضع الحدث يوحي بعكس ذلك فهي التي تقتات بجسدها .

وقد جاءت صورة المرأة اليهودية على عدة أشكال :

- عاهرة من أجل المتعة تستمتع دون مقابل .
- عاهرة مقابل المال.
- عاهرة من أجل إسقاط الفلسطيني في وحل العمالة .

وقد صورت الرواية أفعال الجنود ، وضباط المخابرات ، والمستوطن كما هي في الواقع، ولم يقدم لنا الكاتب الشخصية اليهودية باعتبارها شخصية رئيسية، بل تم تقديمها على أنها شخصيات ثانوية لكنّها ساهمت في تنمية شخصيات الرواية، وبالتالي يجد القارئ شخصية اليهودي واضحة المعالم محددة الصفات، وهذا يدلل على معرفة الكاتب بالشخصية اليهودية معرفة حقيقية عن قرب فلم يتحرج الكاتب من التعرض للشخصية اليهودية وتعريتها أمام الجميع.

وقد جاء الرواي في معظم روايات "أحمد رفيق عوض" من نوع الراوي العليم بكل شيء رغم أنه راوياً مشاهداً إلّا أنّه مطلع على خفايا ، وأسرار لا يعلمها أحد من الشخصيات سواه ؛ فهو يدخل للأماكن المحرمة ؛ كما يدخل الراوي في عقلية الشخصية ، ويتدخل بالشرح والتفسير، ويبث المؤلف أفكاره من خلال الراوي ، ويقوم أحياناً بتحميل شخصياته أفكاراً لا تحتملها.

برز في الروايات شخصيات متطورة تطورت نتيجة مؤثرات خارجية ، وكان هذا التطور نتيجة تفاعل تلك المؤثرات بالشخصية بالإضافة لتأثير العوامل الداخلية التي تمر بها الشخصية من ظروف نفسية وفكرية ، وهناك أيضاً شخصيات متحولة ، وشخصيات مسطحة لم يكن

حضورها يسهم في اكتمال دور الشخصية الرئيسية، ومن تلك الشخصيات غير السوية ،والشخصية العدوانية ، والشخصية الشاذة جنسياً والشخصية السادية.

كما كشفت الدراسة عن عدم وجود واضح للبيئة المعنوية ؛ فقد ابتعد الكاتب عن التعرض للعادات والتقاليد الفلسطينية ، ولكنه لجأ إلى استخدام الموروثات الشعبية من الأغاني الفلكلورية التي تغنى في الأفراح ؛ فلم يكن هناك خصوصية للبيئة الفلسطينية بعاداتها وتقاليدها.

كما كشفت هذه الدراسة عن بعض سلبيات الانتفاضة ، وإن كان الكاتب "أحمد عوض" لم يتعمق كثيراً في هذه السلبيات، وأطال الروائي من الحديث عن اتفاقية أوسلو وسلبيات المفاوضات الفلسطينية على لسان إحدى الشخصيات "محمد السلوادي" في رواية "آخر القرن" فقد فصّل الروائي كثيراً مما يدلل على عدم قناعته في اتفاقية أوسلو ، وبيّن أنّ التفاوض مع الإسرائيلي غير مجدي.

شكل عام (٤٨) و (٦٧) نقطتين بارزتين في الزمن الروائي الفلسطيني لمعظم روايات الكاتب، كما شكل زمن الاحتلال كابوساً آخر، وأبرزت الرواية دور النضال بأشكاله المتعددة بشكل ضيق قياساً مع ارتباط معظم الروايات بزمن الهزيمتين.

لجأ عوض في تقديم الشخصيات إلى نمطين من أنماط تقديم الشخصيات هما التقديم المباشر والتقديم غير المباشر، ونقصد بالتقديم المباشر بعرض الكاتب وصف مادي ونفسي لشخصياته ،وموجزاً عن حياتها ؛ أما التقديم غير المباشر فهو الذي تعبر الشخصية فيه عن نفسها دون تدخل الكاتب المباشر باستخدام تقنيات حديثة مثل الحوار والأحلام والمونولوج الداخلي ، وفي هذا النوع لا يجد القارئ المعلومات أمامه جاهزة عن الشخصيات بل يترك المؤلف المجال للقارئ ليشارك في التعرف والبحث عن ماهية الشخصية .

وتكشف الدراسة أنّ التقديم المباشر كان أقل من التقديم غير مباشر حيث كان الأخير ديدن عوض ؛ فقد احتل مكانة كبيرة في رواياته ؛ فما من رواية إلا وظهر فيها هذا النمط من التقديم ، وهذا النمط قد جعل القارئ بحاجة إلى قراءة عميقة من أجل فهم النص ، وقد تضمنت هذه الطريقة تقنيات حديثة مثل الحوار والأحلام والكوابيس والهذيان جعلت القارئ لا يكتفي بمعلومات أولية قدمت عن أي شخصية بل هو بحاجة إلى البحث عن معلومات أخرى في صفحات أخرى من الرواية حتى يستطيع الحصول على تصور واضح عنها .

أما بما يخص تصنيف الشخصيات فظهر أن الشخصيات في روايات عوض انقسمت إلى شخصيات رئيسية وشخصيات ثانوية، وتبين أنّ الشخصيات الرئيسية غالباً ما كانت منفصمة ومتشظية في ماهيتها، لكنها كانت تحمل في مكنونتها دلالات موحية هدفت في أغلبها إلى تصوير الواقع العربي الراهن والواقع الفلسطيني الراهن الذي يعيش حالة من الانهيار والتلاشي.

أما بالنسبة للشخصيات الثانوية فلم تكن عديمة الأهمية، بل كانت تساعد في خلق الصراع وإثارة الحيوية وتصعيد الحدث، وتبين أنها قد اختلفت في سلوكها؛ فمنها ما كان إيجابياً في سلوكه، حيث تجلى سلوكه بالكفاح والنضال، ومنها ما كان سلبياً طغى على سلوكه صفة التخاذل والخنوع والاستكانة والخيانة.

وفي الإشارة إلى الشخصيات النامية وجدتُ أن هذا النمط كان له حضوره في روايات عوض نظراً لبنية التفكك ، والهزيمة ، والانهيار التي قامت عليها رواياته في حين قلّت الشخصيات المسطحة التي أراد عوض من خلالها إظهار هامشية المجتمع العربي والفلسطيني.

وقد أنجز عوض نماذج مختلفة للشخصيات عبّرت عن حقائق ذات أثر عميق في المجتمع الفلسطيني، مثل الشخصية ذات الكثافة النفسية التي كانت نتاج مشاعر معقدة بسبب تناقض الشخصية مع محيطها، والشخصية الجذابة مثل شخصية المرأة وشخصية المناضل، فكانت شخصية المناضل جذّابة لسلوكها النضالي واتسامها بالشجاعة والقوة والإصرار على الموقف، أما المرأة فكانت جاذبة لمظهرها الخارجي الذي كان محط الإثارة للشخصيات الذكورية زيادة على دورها الاجتماعي الإيجابي تارة والسلبي تارة أخرى، كما ظهرت الشخصية المهيبة المتصفة بالقمع والرعب لباقي الشخصيات والمجتمع الذي تعيش فيه، واستطاع عوض من خلال الشخصية المهيبة أن يصور العنف والديكتاتورية المتمثلة في المحتل وعملاءه ، وسماسرته ، والمخفر، وهي قائمة على سلب الحقوق واستغلال فقر الناس وضعفهم ؛ فأعطى بذلك الهيبة سمة السلبية.

وظهر في كثير من الشخصيات الفلسطينية أنّها تعيش حالة من الاغتراب الشديد بسبب واقعها المرير وظروفها الاجتماعية الصعبة، وقد أسبغ عليها عوض من حياته الكثير؛ لأنه عاش مغترباً.

يبدو أن الشخصية المغتربة جاءت بارزة في أعمال عوض التي تتحدث عن الواقع الفلسطيني، ولا أقصد بالاغتراب هنا البعد عن الوطن ؛ بل هو بعد الشخصية عن ذاتها وعن المجتمع الذي تعيش فيه ، والإحساس بالقهر والانهزام، ورفض الواقع، الاغتراب بكل ما يعكسه من قوة وضعف وتمرد وخروج عن المألوف فهذه هي حقيقة الاغتراب عند عوض، فالشخصية المغتربة عنده دائمة الإحساس بمدى انفساخها عن كل ما يربطها سواء أكان بالمجتمع أم بالواقع الذي بدا متشظي في نظرها، وكل ذلك بسبب الاحتلال الذي سلب الفلسطيني أرضه وحريته ومنعه من تحقيق أحلامه وتطلعاته ورغباته ، ويظهر ذلك جلياً من خلال شخصية اللاجئ ، والعامل .

وقد دفع هذا الاغتراب بعض الشخصيات إلى الدخول في بوتقة الأسطورة والخرافة، كما ودفع بعض الشخصيات إلى فقدان الإحساس بالذات ؛ فقد أصبحت تشعر بأنّها لا شيء مجرد

نكرة لا قيمة لها في الوجود، وقد وصل الأمر بهم إلى الدخول في دائرة الهلوسة والهذيان، فنراها تتفوه بحديث لا تفهم أقرب إلى الجنون منه إلى المعقول وذلك بسبب اصطدامها بالواقع، والظروف التي عاشتها.

وقد احتلت المرأة مساحة واسعة في روايات عوض، مما يؤكد على مكانتها ودورها في بناء المجتمع كما يؤكد قدرتها على العمل النضالي أو أن تكون من أسباب الهزيمة فهي كالقنبلة الموقوتة إن لم نحسن استخدامها انفجرت بنا.

كما أشار عوض إلى الفساد الحزبي والسياسي، وبين دور المنتفعين والمستفيدين على حساب المناضلين المقموعين الذين زرعوا النضال ، وقدموا التضحيات وغيرهم يبيع ويحصد النتائج.

وفي نهاية دراستي التي تناولت "الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية" تبين لي أن "عوض" قد انزاح عن النمط التقليدي للروايات الكلاسيكية التي كانت تتضمن راوياً واحداً يقوم بسرد الأحداث، وقد مال لجعل عدة رواه يتناوبون على سرد الأحداث في كل رواياته.

كما تبين لي أن إضافة المتلقي والمؤلف إلى الرواية في روايات "عوض" جعل روايات عوض تدخل في بوتقة الحداثة والتجريب الخاضع للنظريات النقدية الحديثة ؛ فقد استطاع عوض أن يكسر أفق التقليد ، ويندمج في روح التجريب الحداثي الملائم لروح العصر وتطور النقد العالمي، فاختفاء الراوي أحياناً ودخول المؤلف والقارئ إلى ساحة النص الروائي من خلال الأنا المشاركة والأنا الشاهدة، هو أحد المظاهر الحداثية التي تميز بها عوض بالإضافة إلى استخدام عوض لتقنيات حديثة أضفت على الرواية لوناً جديداً ؛ فقد كانت أعمال عوض قائمة على تحطيم التقليد والانزياح نحو الحرية في السرد والخروج من سلطة الراوي الواحد والميل نحو التعدد في الرواة ووجهات النظر والضمائر التي تتيح الفرصة لتقديم الحقيقة وتعمل على إبراز الجوانب المختلفة منها، وكسر حدة السلطة التي يحتكرها الرواي المهيمن على القصص، كما يرى بعض النقاد.

من خلال الدراسة النقدية التي قدمها الباحث، في روايات أحمد رفيق عوض، والتي أنتجت ما بين عام: ألفٍ وتسعمائةٍ واثنتين وتسعين، وألفين وستة للميلاد، فقد توصل الباحث إلى نتائج يمكن إجمالها بالآتي:

- عرض عوض شخصياته التراثية وفقاً لمنظور الحداثة العربية التي أخذت على عاتقها تصحيح مسار التعامل مع التراث ، حيث البعد عن التعصب له ، والنبرة الحماسية في الدفاع عنه ،

وكذلك البعد عن الإجحاف الذي نال التراث على أيدي بعض المفكرين والفلاسفة والنقاد والمبدعين أنفسهم ؛ فالحداثة لا تعني رفض التراث بل تعني تطوير مستوى التعامل مع التراث ليحتل مكانة متميزة في العصر الحديث .

- إنّ توظيف التراث عند عوض ليس اختياراً عشوائياً بل يتخذ مناحي مختلفة جمالية ، وفنية ، وفكرية ، وسياسية ، واجتماعية ؛ مما يجعل روايات عوض تدخل في منظومة جديدة ، واتجاه فني حديث تتبناه الرواية العربية بشكل عام .
- لقد استخدام عوض التراث الأدبي في رواياته للاحتماء بالماضي ، والعودة إليه في ظل الأوضاع الفلسطينية والعربية الراهنة ، وتسليطه كرمزاً لقضايا العصر ، وإشكالياته من خلال الربط بين فساد الحاضر وهزائمه ، وفساد الماضي وهزائمه ؛ فما يحدث في الماضي يمتد إلى الحاضر ، وما يحدث اليوم يعتبر امتداد للماضي ، إذ يلتقي الماضي والحاضر في منظومة فكرية واحدة ، ومتكررة .
- لم ينصرف اهتمام عوض نحو التراث القصصي ، واستغلال إمكانياته الفنية فحسب ،بل اهتم أيضاً بتقنيات الرواية الحديثة ، وكمن خلال المزج بين الجانبين يظهر إبداع الكاتب وتميزه ، ولم يقلد التراث القصصي تقليداً تاماً ؛ إذ لم تكن النصوص القصصية إعادة كتابة لتلك القصص ، وإنما انعكس أسلوب الكاتب ووجهة نظره الخاصة ، وملامح كتابته على تلك النصوص . كما عبرت نصوص التراث عن القضايا المعاصرة بصورة مباشرة ، أو بصورة إيحائية غير مباشرة ؛ وهنا تكمن قيمة التوظيف الحقيقي .
- إذا كانت المادة التراثية التي اعتمدها عوض تنتمي إلى حقبة من التاريخ الماضي فإن توظيفها لم يقترن بقضايا محلية فحسب ، بل تعدى الأمر إلى قضايا عامة تجسد أزمة الإنسان العربي المعاصر عبر ثيمات مختلفة تتخذ أشكالاً متعددة من القهر والاستلاب والاغتراب .
- لم تكن شخصيات "أحمد رفيق عوض" في مستوى واحد، وذلك يرجع إلى انفتاح النص على جميع فئات المجتمع كافة، لذلك فقد وجدنا تنوعاً مقصوداً في الشخصيات التي تتمثل بالفلاح والعامل والوطني المناضل والمقاول والعميل والعاهرة... بالإضافة للشخصيات التراثية كصلاح الدين والخليفة المقتدر والقرموطي...، والشخصيات اليهودية، حيث يطغى الصراع والمواجهة بين الشخصية الفلسطينية وشخصيات الاحتلال متمثلاً بجنودها ومستوطنيها وجواسيسها وعملائها، ويتخذ هذا الصراع عدة صور وأشكال.
- عرض عوض سلوك شخصياته بشكل طبيعي غير متكلف ، ولا مفتعل حيث استقى تلك الشخصيات من الواقع الفلسطيني ؛ فصور لحظات الضعف والقوة الكامنة في النفس البشرية،

كما وأجاد عوض في رسم العالم الباطني الخفي لشخصياته وهو يزاوج بين العالم الخارجي الذي تتحرك فيه الشخصية ، وبين عالمها الباطني النفسي.

- قدّم عوض الشخصيات الفلسطينية العاشقة لفلسطين التي تضحي بنفسها وتبذل الغالي والنفيس وهي تعلم أن نهايتها ستكون الشهادة أو الاعتقال.
- معظم الشخصيات الفلسطينية تعاني الغربة بسبب تهجيرها قصراً عن أرضها، وهي تعيش على الذكرى ما بين الحنين والشوق للماضي، فارتبطت الشخصيات بالماضي، وكأن الزمن الماضي حيوياً نظراً لارتباطه بما هو جميل فهو الجذر المرتبط بالذاكرة الفلسطينية.
- وترمز بعض الشخصيات إلى موقف معين أو قضية بذاتها، فأراد عوض أن يشير إلى تحول شخصية رسمية في رواية العذراء والقرية إلى رمز لفلسطين ؛ فهي العذراء وهي القرية ؛ فقد تزوجها رجل "عنين" لم ينفعها بشيء، ثم رمت نفسها في أحضان من ظننت به القوة والسلطة والهيمنة ليكون هو الآخر "عنين" ولم ينفعها بشيء، وفي النهاية تموت دون أن يستطيع أحد أن يدفنها وتبقى مشكوفة في العراء تنتظر من يكرّمها ولو حتى بالدفن فهي لم تحظ حتى بقبر.
- استخدم الكاتب الأسطورة ليوصل من خلاله فكرة قد رسمها على بعض شخصياته لتوضح لنا الضعف والهوان الذي وصلت إليه تلك الشخصيات مثل شخصية المفاوض الفلسطيني الذي يتحدث عن نهاية العالم والرجوع لاستخدام السيف ، ومن ثم الانتصار ، وكشخصية الشيخ "سعد الدين" الذي استعان بالخرافات والسحر والشعوذة والأساطير واستحضار الأرواح من أجل الاستمرار في الحياة.

توصيات:

ثمة مساحة واسعة لبعض الدراسات في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية يوصي بها الباحث للدارسين فهي تحتاج لدراسة مفصلة.

١- تقنيات السرد في روايات "عوض" فجميع ما كتب تقريباً لم يتطرق لتقنيات السرد.
٢- المرأة في نتاج "أحمد رفيق عوض" تشكل الخط النسوي الفاعل وهي تحتاج لدراسة مطولة.
٣- تداخل الأجناس الأدبية وهي ظاهرة تحتاج لدراسة من أجل إثراء الساحة الأدبية النقدية.

وأولاً وأخيراً أحمد الله تعالى أن أعانني على إكمال هذه الدراسة التي بذلت فيها قصارى جهدي لإخراجها على الوجه المطلوب، وقد تحملت في سبيل ذلك جهداً كبيراً، وأحمد الله تعالى الذي مكنني من تحمل تلك المشاق التي اعترضت سبيلي، وتخطى العقبات والعراقيل آملاً أن تكون هذه الدراسة قد ساهمت في توضيح الشخصية الفلسطينية ، والشخصية الإسرائيلية لعلها تكون نبراسا لنا في مرحلة التحرير، لأن معرفة العدو تساعدنا في رسم آليات للتعامل معه.

وأخيراً فإنه ما كان في هذه الدراسة من توفيق فهو من الله تعالى، وما كان من نقص أو قصور فمن نفسي والشيطان، سائلاً المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصـــــادر والمراجـــــــع

١- المصادر

١) أحمد رفيق عوض : العذراء والقرية، اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة والقطاع، ط١ – القدس- ١٩٩٢م .
٢) أحمد رفيق عوض : القرمطي ، بيت المقدس للنشر والتوزيع برام الله –فلسطين- ٢٠٠١م .
٣)أحمد رفيق عوض : آخر القرن ، القدس – اتحاد الكتاب الفلسطينيين – ، ١٩٩٩ .
٤) أحمد رفيق عوض : بلاد البحر، الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين بالتعاون مع دار الماجد –رام الله–الطبعة الأولى، فلسطين ٢٠٠٦م.
٥) أحمد رفيق عوض : عكا والملوك، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م .
٦) أحمد رفيق عوض : قدرون، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ١٩٩٥ .

٢- المراجع

١) ابن الرومي : الديوان، شرح وتحقيق: عبد الأمير مهنا، بيروت: دار الهلال، ج١، ١٩٩١م.
٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان، تحقيق:إحسان عباس ، دار صادر –بيروت ،١٩٧١م.
٣) ابن منظور: لسان العرب، ط٦، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧.
٤) الرشيد أبو شعير : دراسات في المسرح العربي، دمشق: دار الأهالي، ١٩٩٧.
٥) الفيروز أبادي(ت٨١٧هـ) : القاموس المحيط، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
٦) المتوكل طه : المختلف، دراسات في عالم أحمد رفيق عوض الروائي والمسرحي، منشورات اتحاد كتاب فلسطين بالتعاون مع منظمة شعراء بلا حدود، رام الله –فلسطين- الطبعة الأولى ٢٠٠٩ .
٧) إبراهيم السعافين : تطور الرواية العربية في بلاد الشام، دار المناهل، بيروت ١٩٨٧ .
٨) إبراهيم أنيس ورفاقه: المعجم الوسيط، ج١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٧٢: ٤٧٥، مادة"شخص".
٩) إبراهيم فتحي : معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين، طبع التعاضدية العالمية للطباعة والنشر –تونس- ١٩٨٦.
١٠) إلياس خوري : الرواية الجديدة، كتابات معاصرة (مجلد١، عدد ١٩٨٩، ٣) .

١١) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني اللغوي، اللكيات – معجم في المصطلحات والفروق اللغوية – قابلة ووضع فهارسه: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢، مادة (ورث).

١٢) أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي : معجم ديوان الأدب ، تحقيق: أحمد مختار عمر،مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس ،مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة ،٢٠٠٣م.

١٣) أبو الفضل جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، بيروت: دار صادر، ١٩٩٠، مجلد ٢، مادة (ورث).

١٤) أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني : شرح المعلقات السبع، تحقيق: لجنة التحقيق في الدار العالمية، بيروت: الدار العالمية، ١٩٩٣م.

١٥) أحمد رضا : معجم متن اللغة، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠، مجلد ٥ .

١٦) أحمد عطية أبو مطر: الرواية في الأدب الفلسطيني ١٩٥٠-١٩٧٥، دار الرشيد للنشر ،١٩٩١ م.

١٧) أنريكي أندرسون:القصة القصيرة(النظرية والتقنية) ت:علي إبراهيم ، المجلس الأعلى للثقافة –القاهرة- ٢٠٠٠م .

١٨) آلان روب جرييه : نحو رواية جديدة، دار المعارف –القاهرة- .

١٩) آمنة يوسف: تقنيات السرور في النظيرة التطبيقية دار الحوراء للنشر والتوزيع سوريا ط،١٩٩٧:٢٦.

٢٠) باسم عبد الحميد حمودي : مدخل إلى الشخصية الثانوية في الرواية العراقية، الأقلام، ٦٤، ١٩٨٨م.

٢١) بيرسي لوبوك : صنعة الرواية، العراق ، وزارة الثقافة والإعلام ، ترجمة عبد الستار جواد، ١٩٨١ م .

٢٢) جيرالد برنس: المصطلح السردي؛ ترجمة عابد خزندار، ط١، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٢٣) حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي (الفضاء – الزمن – الشخصية)، ط١، ١٩٩٠، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي .

٢٤) حسن حنفي، التراث والتجديد، القاهرة: المركز العربي للبحث والنشر، ١٩٨٠ م .

٢٥) حسن علي المخلف، توظيف التراث في المسرح – دراسة تطبيقية في مسرح سعد الله ونوس، دمشق: دار الأوائل، ٢٠٠٠.

٢٦) داوود حنا: الشخصية بين السواء والمرض، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩١ م .

٢٧) ديفيد لودج : الفن الروائي ، ت: ماهر البطوطي ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ، ٢٠٠٢ م .

٢٨) رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة – الكويت– ١٩٨٦م.

٢٩) روبرت شولز : السيمياء والتأويل، ترجمة سعيد الغانمي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٤/٣٠.

٣٠) روبرت شولز:" عناصر القصة،ترجمة محمود الهاشمي،دار خلاس للدراسات والترجمة والنشر ،دمشق،ط١، ١٩٨٨م.

٣١) روجرب هينكل : قراءة الرواية، ترجمة صلاح رزق، د.ط١، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٥م

٣٢) سامح الرواشدة، القناع في الشعر العربي الحديث –دراسة في النظرية والتطبيق– الأردن: مطابع كنعان، ١٩٩٥م

٣٣) سعيد علوس : الرواية والأيديولوجيا (ط٢، بيروت، دار الكلمة للنشر، ١٩٨٢ .

٣٤) سعيد يقطين : الرواية والتراث السردي، ط١، رواية، –القاهرة– ٢٠٠٦ م .

٣٥) سمر روحي الفيصل : بناء الشخصية الروائية ، الموقف الأدبي ، دمشق ، ٢٠٠٠ .

٣٦) سمير روحي الفيصل : الشخصية والراوي في "أنت منذ اليوم" راية مؤتة، م٢، ع٢، ١٩٩٣

٣٧) صنع الله إبراهيم وآخرون : ملتقى الروائيين العرب، ط١، مهرجانه قابس –تونس– ١٩٩٣م

٣٨) عادل الأسطة: اليهود في الأدب الفلسطيني –اتحاد الكتاب الفلسطينيين– ط ١٩٩٢ .

٣٩) عبد الرحمن بسيسو: قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩م.

٤٠) عبد الله أبو هيف : صورة الآخر نموذج أحمد رفيق عوض، مجلة جامعة دمشق –المجلد ٢٤– العدد الثالث + الرابع ٢٠٠٨م .

٤١) عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب –الكويت– شعبان ١٩٩٨م .

٤٢) عبد الوهاب محمد المسيري: التجانس اليهودي والشخصية اليهودية، منتديات الوحدة العربية

٤٣) عدنان عبد الله خالد :النقد التطبيقي التحليلي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ م.

٤٤) علي الخواجة : جوائر الفحم (دراسات في روايات أحمد رفيق عوض)، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، مطبعة المنار الحديثة .

٤٥) علي الخواجة : مقاربات نقدية، دراسة في روايات أحمد رفيق عوض، دار الماجد للنشر والتوزيع، البيرة، ط١، ٢٠٠٤م .

٤٦) علي الخواجة: عين السارد قراءات في أعمال أحمد رفيق عوض ، ط١ ، مطبعة أبو غوش ، البيرة ، ٢٠٠٥م

٤٧) علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٧

٤٨) علي عودة : الفن الروائي عند جبر إبراهيم جبرا، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، ط١، رام الله –فلسطين– ٢٠٠٣م.

٤٩) علي كمال: النفس، دار واسط، بغداد ط٤، ١٩٨٨م .

٥٠) علي محمد عودة: دراسة في الرواية الفلسطينية، مكتبة جزيرة الورد، الجامعة الاسلامية – المكتبة– قسم فلسطينيات .

٥١) فريال سماح: رسم الشخصية في روايات حنامينة، ط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٨/١٧،.١٩٩٩ .

٥٢) مجدي وهبة: معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان–بيروت١٩٧٤.

٥٣) محبة حاج معتوق : أثر الرواية الواقعية الغربية في الرواية العربية ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤ .

٥٤) محمد اقضاض وآخرون: الرواية المغربية أسئلة الجدارة دراسات ضمن موضوع الشخصية في الرواية المغربية، د، ط، دار الثقافة، الدار البيضاء ،م،ث٢١٩.

٥٥) محمد التوتجي: المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت،١٩٩٣م.

٥٦) محمد الجابري، نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، ط٦، ١٩٩٣، بيروت .

٥٧) محمد الحسن المصطفى، الرواية العربية الموريتانية (مقاربة للبنية والدلالة) .

٥٨)محمد أيوب: الشخصية في الرواية الفلسطينية المحاصرة في الضفة الغربية وقطاع غزة،١٩٦٧–١٩٩٣، ١٩٩٦م .

٥٩) محمد أيوب: الشخص والشخصية في القصة الغربية(دراسة سيميائية) .

٦٠) محمد خليفة حسن : الشخصية الإسرائيلية ، سلسلة الدراسات الدينية ، جامعة القاهرة .
٦١) محمد رياض وتار : توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٢ م.
٦٢) محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩١ م .
٦٣) محمد يوسف نجم : فن القصة ، الطبعة الخامسة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٦.
٦٤) نارد، دي فوتو: عالم القصة، ترجمة: محمد مصطفى هدارة، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٩: ٤٠.
٦٦) نايف حواتمة : أوسلو والسلام الآخر المتوازن ، الأهالي – بيسان – .
٦٧) نبيل خالد أبو علي : في نقد الأدب الفلسطيني ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م ، دار المقداد للطباعة –غزة – .
٦٨) يمني العيد: تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج النبوي، ط٢، الفارابي، بيروت،١٩٩٩م .

٣- الرسائل العلمية

١) أحلام بشارات : البطل في الرواية الفلسطينية –رسالة ماجستير– جامعة النجاح، ٢٠٠٥م .
٢) يوسف محمد الشحادة : الرواية الفلسطينية في الضفة وقطاع غزة، ١٩٦٧-١٩٩٣، رسالة ماجستير، إشراف: د/عادل الأسطة،٢٠٠٠م .

٤- الدوريات والمجلات العلمية

١) فصول : خصوصية الرواية العربية، العدد الثالث، شتاء ١٩٩٧ .
٢) كمال أحمد غنيم وحنان أحمد غنيم : مشكلات السرد في رواية عكا والملوك لأحمد رفيق عوض، مجلة الزيتونة، العدد ٢، يوليو ٢٠١١ م .
٣) نبيل خالد أبو علي : بهاء الدين قراقوش بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية ، بحوث ، مجلة علمية محكمة تصدر عن المركز القومي للبحوث وجامعة فلسطين غزة –فلسطين– العدد الثاني ، تشرين ٢٠٠٨م
٤) يوسف رزقه : الرؤية وتعدد الأصوات في رواية عكا والملوك للروائي أحمد رفيق عوض، مجلة الأقصى –غزة– عدد خاص ج١، ٢٠٠٦م .

٥- المقابلات واللقاءات

١) مقابلة مع الكاتب أحمد رفيق عوض : عبر الهاتف ٢٠١٤/٤/١٦م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
شكر وتقدير	أ
عرفان	ب
الملخص بالعربي	ت
الملخص بالإنجليزي	ج
المقدمة	١
الفصل الأول : شخصيات فلسطينية	١٦
١- شخصية المفاوض الفلسطيني	١٨
٢- شخصية الضابط الفاسد	٣٠
٣- شخصية المرأة البغي	٣٤
٤- شخصية العميل	٤٤
أ- عليّ	٤٤
ب- سليمان الهراوات	٥٤
ج- خالد الهراوات	٥٨
٥- شخصية اللاجئ	٦٠
أ- الشيخ عثمان وزوجته	٦١
ب- عبد الرازق اللاجئ	٦٢
ج- حسن أبو شامة	٦٦
٦-شخصية المغترب العائد	٧٠
٧- شخصية العامل الفلسطيني	٧١
٨- شخصية المثقف المقاوم	٧٧
الفصل الثاني : شخصيات تراثية	٨٣
تعريف بالتراث لغة واصطلاحاً	٨٤
رواية عكا والملوك ، مدلول العنوان	٨٩
شخصية صلاح الدين الأيوبي	٩١
١- تقانة الوثائق التاريخية	٩٧

٢- تقانة الشهادة	٩٨
٣- تقانة السيرة ، والسيرة الذاتية	٩٩
٤- تقانة الرسائل والمذكرات	١٠١
شخصية بهاء الدين قراقوش	١٠٣
رواية القرمطي ، مدلول العنوان	١٠٩
شخصية الخليفة المقتدر	١١٠
١- تقانة الوثائق التاريخية	١١٥
٢- تقانة الشهادة	١١٥
٣- تقانة السيرة	١١٧
شخصية القرمطي	١٢٠
شخصية المرأة (البغي – الأم – الراهبة)	١٢٨
الفصل الثالث : شخصية اليهودي	١٣٨
الشخصية اليهودية الإسرائيلية	١٣٩
١- ضابط المخابرات	١٤٢
أ- موران	١٤٣
ب- أبو ماهر	١٤٦
٢- اليهودي المدني والمستوطن	١٤٨
٣-اليهودي المخادع	١٤٩
٣- اليهودي المهاجر	١٥٠
أ- المهاجر الأثيوبي	١٥٠
ب- يوسي يونا	١٥٢
٤-المرأة العاهرة	١٥٥
٥- المفاوض الإسرائيلي	١٥٨
الخاتمة	١٦١
التوصيات	١٦٨
المصادر والمراجع	١٦٩
فهرس الموضوعات	١٧٤